العدالة الاجتماعية في الإسلام

سيد قطب

دار الشروق

إهـــــــــداء2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

العدالة الاجتماعية في الإسلام

الطبعة الشرعية السابعة

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٧٥٤٣١٤ برقياً : شروق القاهرة
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقياً : داشروق

سيّد قطب

العَدَالَة الاجْتِمَاعِيَّة في الإسْلام

دار الشروق

إهـــداء

إلى الفتية الذين كنت ألمحهم بعين الخيال قادمين ؛ فوجدتهم فى واقع الحيـاة قائمين . . يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، مؤمنين فى قرارة نفوسهم : أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

إلى هؤلاء الفتية الذين كانوا فى خيالى أمنية وحلماً ، فإذا هم حقيقة وواقع ، حقيقة أعظم من الخيال ، وواقع أكبر من الآمال .

إلى هؤلاء الفتية الذين انبثقوا من ضمير الغيب كما تنبثق الحياة من ضمير العدم ، وكما ينبثق النور من خلال الظلمات .

إلى هؤلاء الفتية الذين يجاهدون باسم الله . فى سبيل الله . على بركة الله . أهدى هـذا الـكتاب .

رجب سنة ١٣٧٣
مارس سنة ١٩٥٤

سيد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

فى عالم الاقتصاد ، لايلجأ الفرد إلى الاستدانة ، وله رصيد مذخور ، قبل أن يراجع رصيده ، فيرى إن كان فيه غناء ؛ ولا تلجأ الدولة إلى الاستيراد قبل أن تراجع خزائنها ، وتنظر فى خاماتها ومقدراتها كذلك.. أفلا يقوّم رصيد الروح ، وزاد الفكر ، وورائات القلب والضمير ، كما تقوّم السلع والأموال فى حياة الناس ؟!

بلى ! ولكن الناس فى هذا العالم الذى يطلق عليه اسم « العالم الإسلامى » ، لاتراجع رصيدها الروحى وتراثها الفكرى ، قبل أن تفكر فى استيراد المبادئ والخطط ، واستعارة النظم والشرائع ، من خلف السهوب ومن وراء البحار !

إن الناس تنظر فترى، واقعاً اجتماعياً لا يسر ؛ وتبصر فترى أوضاعاً اجتماعية لاتحقق العدالة ، عندئذ تتجه بأبصارها إلى أوربا وأمريكا وروسيا والصين ويوغوسلافيا ... وما إليها ! تستجلب منها الحلول لمشكلاتها ، كما تستورد منها السلع لمعاشها . غير أنها عند استيراد السلع تراجع أرصدتها القديمة ، وتحصى موجوداتها فى السوق ، وتنظر فى قدرتها على الإنتاج . فأما عند استيراد المبادئ والنظم والقوانين فلا تصنع شيئا من هذا كله ؛ ولا تتحرج أن تلقى بكل تراثها الروحى ، وكل مقوماتها الفكرية ، وكل الحلول التى يمكن أن يتيحها لها النظر فيما لديها من أسس ومبادئ ونظريات ، لتستجلب المبادئ الديمقراطية ، أو الاشتراكية ، أو الشيوعية ؛ فتكل إليها حل مشكلاتها الاجتماعية ؛ مهما اختلفت أوضاعها ، وظروفها ، وتاريخها ، ومقومات حياتها المادية والفكرية والروحية عن ظروف القوم فيما وراء البحار ، وفيما خلف السهوب !

وهؤلاء الناس يعلنون أن دينهم هو الإسلام . ويزعمون أحيانا أنهم حماة الإسلام ودعاته

ولـكنهم يقصون هذا الدين من حياتهم العملية ، ليبقى فى عزلة وجدانية ، لا يحكم الحياة ؛ ولا يصرّف شؤونها ، ولا يعالج مشكلاتها .. فالدين ـ كما يقال ـ صلة مابين العبد وربه ؛ أما صلات الناس ، وعلاقات المجتمع ، ومشكلات الحياة ، وسياسة الحكم ، وسياسة المال... فلا دخل للدين بها ، ولا دخل لها بالدين .. هذا مايقوله الذين لاينكرون الدين . فأما الآخرون فيقولون : لا تذكروا لنا هذا الدين ؛فالدين إن هو إلا مخدر يستغله الرأسماليون والحكام المستبدون ، لتنويم الطبقات الكادحة ،وتخدير الجماهير المحرومة !

من أين جاء هؤلاء الناس بهذه النظريات الغريبة على طبيعة الإسلام ، وعلى تاريخ الإسلام ؟ . . لقد استوردوها هى الأخرى ـ كما يستوردون كل شىء ـ من خلف السهوب ، ومن وراء البحار !

ذلك أن قصة العزلة بين الدين والدنيا لم تنبت فى العالم الإسلامى؛ ولم يعرفها الإسلام؛ وقصة تخدير الدين للمشاعر لم تكن يوماً وليدة هذا الدين ، ولم تعرفها طبيعته . ولـكنهم يتلقفونها تلقفاً كالببغاء ، ويحاكونها محاكاة كالقردة ، ولا يحاولون أن يفتشوا عن أصلها ونشأتها ، ولا أن يعرفوا مصدرها وموردها .. فلننظر من أين جاءت، وكيف جاءت هذه القولة الغريبة ؟ !

* * *

لقد نشأت المسيحية فى ظل الإمبراطورية الرومانية ؛ وفى وقت تحجرت فيه الديانة اليهودية ؛ واستحالت طقوساً جامدة لا حياة فيها ، ومظاهر خاوية لاروح فيها . وكان للإمبراطورية الرومانية قوانينها المشهورة التى لاتزال ينبوعاً للقوانين الأوربية الحديثة ؛ وكان للمجتمع الرومانى نظمه الوضعية ؛ ومقوماته الاجتماعية ، فلم تكن المسيحية الكنسية كما صاغها «بولس» وقدمها لأوربا ، وفى الظروف التى كانت قائمة يومذاك ، بقادرة على أن تضع للدولة الرومانية الوطيدة ، وللمجتمع الرومانى المعقد ، قوانين ونظما ،وحدوداً للسير

على هداها فى الدولة والمجتمع . بينما بنو إسرائيل الذين أرسل إليهم عيسى عليه السلام والأرض المقدسة كلها مجرد مستعمرة رومانية ! فانصرفت بحكم هذه الظروف إلى التهذيب الروحى ، والتطهير الوجدانى ؛ وعنيت بهذا الجانب بقدر ما كانت معنية بنقد الطقوس الجامدة ، والمظاهر الخاوية فى شعائر اليهودية ، ورد الروح والحياة إلى الضمير الإسرائيلى .

ولقد بلغت المسيحية فى بعض فتراتها مستوى عاليا فى التطهر الروحى ، والتجرد المادى، والسماحة الوجدانية ، وأدت واجبها فى هـذا الجانب من حياة الإنسانية الروحية ، بقدر ماتستطيع تعاليم روحية مجردة من الشريعة أن ترتفع بالروح ، وأن تسمو بالوجدان ، وأن تنظف القلب والضمير ، وأن تـكبت الغرائز ، وتعلو على الضرورات ، وتهدف إلى أشواق مقدسة فى عالم المثال والخيال ، تاركة المجتمع للدولة تنظمه بقوانينها الأرضية فى عالم الظاهر والواقع ، إذ كانت هى معنية بعالم النفس والضمير ؛ وكانت بذلك منطقية مع الصورة التى رسمتها الـكنسة للمسيحية ، ومع نشأتها فى بيئة خاصة ، ومع حاجة الأمة الإسرائيلية بصفة خاصة فى تلك الفترة .

ولما عبرت المسيحية فى صورتها هذه البحر إلى أوربا وجدت الرومان ورثة الحضارة الإغريقية المادية الوثنية ، كما وجدت أقواماً فى أنحاء أوربا حديثى العهد بالبربرية ، يتناحرون بجموعهم الـكثيفة على رقعة من الأرض ضيقة ، ذات طبيعة قاسية وعرة ضنينة شحيحة ، لايملك من يعيش فيها أن يذوق طعم الراحة فترة ، ولا أن يلقى سلاحه لحظة ، ولا أن يركن فى واقع الحياة إلى نظريات المسيحية وتعلقها بملـكوت السماء ، وانعزالها عن الحياة الأرضية الواقعية .

لقد رأى هؤلاء الأقوام أن الدين لايصلح للحياة ، فقالوا : إن الدين صلة ما بين العبد والرب ، وأنه لا بأس عليهم أن يستظلوا بظله فى الـكنيسة ؛ وأن يستروحوا نسماته فى الهيـكل المقدس ؛ وأن يواجهوا صراع الحياة بعد ذلك فى المجتمع بتقاليدهم البربرية ؛ وأن

يدعوا السيف يقضى بحكمه فى إبان همجيتهم ، ويدعوا القانون المدنى يقضى بحكمه بعد أن تحضروا . فأما الدين فقد بقى فى عزلته الوجدانية هناك فى القلوب والضمائر ، وفى الهيكل المقدس وكرسى الاعتراف ! ولم تتمثل المسيحية هنالك قط فى نظام يهيمن على الحياة كلها، ويربط ملكوت الأرض بملكوت السماء .

ومن هنا كانت تلك العزلة بين الدين والدنيا فى حياة الأوربيين . بل كانت الحقيقة الواقعة التى تنطق بها طبائع الأشياء ، وهى أن أوربا لم تكن مسيحية قط فى يوم من الأيام . وقد بقى الدين فى عزلة عن تكييف الحياة وتنظيمها من يوم دخوله إلى يومنا هـذا .

ولكن رجال الدين من القساوسة ، والكرادلة، والبابوات .. لم يكونوا ليستطيعوا أن يضمنوا مصالحهم ، ولا أن يحافظوا على نفوذهم ، إذا بقيت الكنيسة فى عزلة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فلا بد إذن أن تكون الكنيسة سلطة تقابل سلطة الملوك والأمراء ؛ ولابد أن تستغل سلطانها الروحى فى ميدان الحياة العامة . وجاءت عصور كان للكنيسة أملاك وجيوش وسلطان لا تقل عن أملاك الملوك وجيوشهم وسلطانهم . ووقع النزاع ــ كما لا بد أن يقع ــ بين الكنيسة والسلطة ، بين البابوات والأباطرة ؛ وكان الدهماء فى الغالب فى صف الكنيسة . ثم وقع الوفاق ــ كما لابد أن يقع ــ بين هاتين السلطتين ، لالتقاء مصلحتيهما فى تسخير الجماهير ، واستغلال الدهماء ، مادامت مصالح مادية واقتصادية فى حقيقتها ، ومادام النزاع فى أصله على السلطة الزمنية .

وكان هذا . وقيل : إن الدين مسخر لإخضاع الملايين للمستبدين ورجال الدين .لأنه هكذا كان عند الأوربيين !

* * *

وبقيت الكنيسة سلطة مقدسة ، تملك رقاب الناس فى الدنيا، وفى الآخرة كذلك

بقيت تبيع « صكوك الغفران » وتصدر « قرارات الحرمان » ، وظلت تتحكم فى مشاعر الناس وأفكارهم على السواء ؛ ومن خلفها محاكم التفتيش ، تقتل وتحرق كل من يرفع رأسه ، أو يتهم بالزيغ والإلحاد . . حتى جاء عصر الإحياء ، ورأت الكنيسة ما يهدد سلطانها من تفتح الأذهان والمشاعر بعد القرون المظلمة ؛ ولم يكن هينا عليها أن تفقد سلطانها أمام تيار الفكر الحديث والعلم الآخذ فى النماء ؛ فانطلقت تقاوم وتجاهد لتكميم الأفواه الجريئة ، وتعطيل الأفكار المتحررة من الجهل والخرافة ، التى تناقض النظريات البالية العتيقة ؛ فكان العداء الشنيع بين الكنيسة وحرية الفكر منذ ذلك التاريخ . ولما كانت الكنيسة لاتريد أن تكتفى بملكوت السماء ، ولا أن تقنع بالتحكم فى الآخرة ، فقد اصطدمت نظرياتها عن الأرض والأفلاك والمواد بنظريات العلم القائمة على الدراسة الطليقة مما فرضته الكنيسة من مقررات ، لم تقم إلا على علم ناقص من علم البشر ، ولا علاقة لها بالدين فى أصوله . . . فقد نشأت أجيال من العلماء والمفكرين تكره الكنيسة وتحتقرها معا ؛ وتكن فى نفوسها العداوة والاشمئزاز للدين ولرجال الدين .

ومن هنا كانت الجفوة بين الدين والعلم ، وبين الكنيسة والفكر ، فى حياة الأوربيين ! (١)

* * *

ثم سارت الحياة فى طريقها ؛ وآتى العلم الحديث ثمراته ، ونشأ عنه فى عالم الصناعة مايعرف بالإنتاج الكبير ؛ وتضخمت رؤوس الأموال ؛ وأصبح فى ميدان العمل معسكران منفصلان : معسكر أصحاب رؤوس الأموال ، ومعسكر العمال ؛ وانفرجت الهوة بين مصلحة كل من المعسكرين ؛ وانتقلت السلطة الحقيقية من يد الدولة إلى أيدى أصحاب رؤوس

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « الفصام النكد » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

الأموال . ولما لم يكن بدّ للكنيسة أن تنضم للسلطة الحقيقية ، فقد انضمت إلى معسكر رأس المال !

ولا أحب أن أظلم رجال الكنيسة الأوربية جميعاً ؛ فقد يكون منهم المستنفع الذى يدرك مركز القوة فينضم إليه ؛ ويتخذ من الدين مخدراً للطبقات الكادحة ؛ يصدها عن الثورة لحقها ؛ ويخذلها عن طلب النصفة فى الدنيا ، ويمنيها العوض فى الآخرة . ولكن بعضهم لابد أن يكون مخلصاً فى دعوة من هذا القبيل ، حسب فهمه لعقيدته المسيحية كما رسمتها الكنيسة ، فالمسيحية هذه فى جوهرها تزهد ، واحتقار للحياة الظاهرة ، وتطلع إلى ملكوت الرب ، وعالم السماء ، وانفصال كامل بين ملكوت الأرض وملكوت السماء .

وعلى أية حال ، لقد وجدت الطبقات الكادحة التى تريد أن تصارع ، أن الدين لا يغذى رغبتها فى الصراع ؛ وأن الكنيسة تتخذ منه مخدراً للكادحين ؛ فأعلنت ثورتها الكاملة على الدين ؛ وقالت عنه : إنه مخدر الملايين . وسواء كان دعاة المذهب المادى مخلصين فى موقفهم من الكنيسة أم غير مخلصين ، فالحق أن الكنيسة كانت تقف فى غير صف الكادحين !

ومن هنا كان العداء الجاهر الصريح بين الشيوعية والدين [١] !

* * *

ولكن نحن ! نحن الذين نسمى أنفسنا مسلمين ونتسمى بأسماء المسلمين ـ ما بالنا وهذا كله ؟ وظروفنا التاريخية ، وطبيعة الإسلام وظروفه ليست فى شىء من هذا جميعه ! لقد نشأ الإسلام فى أرض لا سلطان لإمبراطورية ولا لملك عليها ؛ ونشأ فى مجتمع بدوى قبلىّ ليست به أوضاع أو قوانين من نوع ما كان فى الإمبراطورية الرومانية . وكان هذا

(١) لا ينبغى أن ننسى ـ مع ذلك ـ أن الشيوعية مؤسسة يهودية كالماسونية ، وأن أولى ركائز الخطة اليهودية فى تدمير العالم ـ غير اليهودى ـ هو سلب الدين منه وإبعاده عن هذا المقوم الأساسى للحياة !

أنسب وضع لهذا الدين فى نشأته الأولى ، ليتولى إنشاء المجتمع الذى يريده بلا عوائق حقيقية ، ويضع له قوانينه ونظمه ؛ ويتولى فى الوقت ذاته ضميره وروحه ، كما يتولى سلوكه ومعاملاته ؛ ويجمع بين الدنيا والدين فى توجيهاته وتشريعاته . . وقد قام على أساس توحيد عالم الأرض وعالم السماء فى نظام واحد ، يعيش فى ضمير الفرد ، كما يعيش فى واقع الجماعة ؛ ولا ينفصل فيه النشاط العملى عن الوازع الدينى ؛ ولا يتعدد جوهره الموحد ، وإن اختلفت مظاهره ومسالكه .

ولم يكن الإسلام – ووظيفته الأولى هى إنشاء صورة جديدة وكاملة للحياة الإنسانية – يستطيع أن ينعزل فى الوجدان البشرى ، بعيداً عن الحياة العملية الواقعة ؛ ولم يكن مضطراً من ناحية نشأته التاريخية كذلك أن يضيق دائرة عمله لحظة واحدة خشية إمبراطورية أو سلطان ؛ فهو سيد نفسه حتى والجاهلية العربية تعارضه . فهى تعارضه بغير أوضاع اجتماعية ذات جذور راسخة وبغير نظام اجتماعى وطيد الأركان كالمجتمع الذى صادفته المسيحية فى أول عهدها . وميدان عمله هو الحياة البشرية كلها ، روحيها وماديها ، دينيها ودنيويها . وقد نشأ فى أنسب بيئة ليزاول طبيعته كاملة ، ويبلور حقيقته فى صورة واقعية منذ اللحظة الأولى . والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد كان من قدر الله لهذا الدين الذى سيبقى إلى آخر الزمان أن يطبق تطبيقا كاملا بلا عوائق منذ مولده لتبقى منه صورة كاملة للأجيال لا غبش فيها ولا شبهة .

ولن يستقيم هذا الدين فى عزلة عن المجتمع ؛ ولن يكون أهله مسلمين ، وهم لا يحكّمونه فى نظامهم الاجتماعى والقانونى والمالى ؛ ولن يكون مجتمعهم إسلامياً ، وأحكام الإسلام وشرائعه منفية من قوانينهم ونظمهم ، وليس لهم من الإسلام إلا شعائر وعبادات ؛ فالإسلام هو العبودية لله وحده ، وإفراده بخصائص الألوهية ، وفى أولها « الحاكمية » ، كما سنفصل فيما بعد :

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[1] » .. « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا[2] » .. « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ[3] » .

ومما يجعل هذا الطريق متعيناً ، أن هــذا الدين كل لا يتجزأ : عباداته ومعاملاته ، شرائعه وتوجيهاته . والشعائر التعبدية ليست منفصلة فى طبيعته وأهدافه عن النظم والمعاملات ، فالصلاة وهى من أخص الشعائر التعبدية تعنى توجه الفرد وتوجه الجماعة إلى إله واحد عزيز قادر ، لاتعنو الجباه إلّا له ، وإلى قبلة واحدة لازيغ عنها ولا فسوق ، كما تعنى المساواة أمام ديان واحد ، الـكل له عبيد ، والـكل أمامه سواء، و « شهادة أن لا إله إلا الله » ـ وهى الركن الاعتقادى الأول فى هذا الدين ـ تعنى منهجا كاملا للحياة يقوم على التحرر المطلق وجدانيا وعمليا من كل عبودية لغير الله . هذا التحرر الذى هو الخطوة الأساسية لتحقيق مجتمع صالح كريم ، الـكل فيه متساوون .

وعلى أية حال فلن يرتاب باحث فى هذا الدين ، فى أن فـكرة المجتمع واضحة بارزة فى شعائره ونظمه على السواء ، وأنها الفـكرة الأولى القوية الشائعة فى كيانه كله . فإذا شاهدنا فى بعض العصور محاولة لتضخيم الجانب « التعبدى » فى هذا الدين وعزله عن الجـانب الاجتماعى ، أو عزل الجانب الاجتماعى عنــه ، فتلك آفة العصر لا آفـة الدين[4] .

وليس هذا الذى نقوله عن الإسلام بدعاً نبتدعه ، ولا تأويلا جديداً لحقيقته ، إنما

---

(١) سورة النساء [٦٥] .   (٢) سورة الحشر [٧] .   (٣) سورة المائدة [٤٤] .

(٤) التعبد فى الإسلام يشمل الشعائر والشرائع والحركة والنشاط الإنسانى كله . ولـكن غلب فى التآليف الفقهية اصطلاح « العبادات » على أحكام الشعائر واصطلاح « المعاملات » على فقه الشرائع . والإسلام وحدة لا تتجزأ . راجع فصل « الشمول » فى كتاب « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » .

هو الإسلام كما أبان عن وجهته ، وكما فهمه صاحبه الأول ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ وكما فهمه أصحابه المخلصون له ، والقريبون من منبعه الأصيل .

جاء في القرآن الكريم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ . ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ(١) » . وكلنا يعلم كم تستغرق الصلاة المفروضة من الزمن في اليوم ، وما بقي فللسعي والعمل ، فوقت الصلاة نسبة ضئيلة في حياة الإنسان ، وللمجتمع والحياة ما تبقّى طوال الليل والنهار . وجاء في موضع آخر : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (٢) » لأن الغالب في النهار هو المعاش لا الشعائر التعبدية .

على أن الإسلام لا يعد العبادة فيه هي مجرد إقامة الشعائر ، إنما هي الحياة كلها خاضعة لشريعة الله ، متوجها بكل نشاط فيها إلى الله . ومن ثم يعد كل خدمة اجتماعية وكل عمل من أعمال الخير فيه عبادة . قال صلى الله عليه وسلم : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار (٣) » .

والحادثتان التاليتان قاطعتان في الدلالة على روح الإسلام ، كما يفهمه صاحبه رسول الله : عن أنس رضي الله عنه قال : كنا مع النبي في سفر ، فمنا الصائم ، ومنا المفطر . قال فنزلنا منزلا في يوم حار ، أكثرنا ظلا صاحبُ الكساء ، فمنا من يتقي الشمس بيده . قال: فسقط الصوّام ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية ، وسقوا الركاب . فقال الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله (٤) » .

وعنه أيضاً أنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة الجمعة [٩-١٠] . (٢) سورة النبأ [١٠-١١] . (٣) الشيخان والترمذي والنسائي
(٤) أخرجه الستة .

يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها ! قالوا : أين نحن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً. وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له . ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى [1] » .

ولم يكن ذلك من محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو أعرف بدينه ، استهانة بأمر الصوم والصلاة ؛ ولكن إدراكاً لحقيقة روح هذا الدين ، الذى يعمل للحياة وهو يعمل للعقيدة ، فيمزج العقيدة بالحياة ، ولايقف بها فى معزل وجدانى فى عالم الضمير .

وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين رأى رجلا يظهر النسك والتماوت ، فخفقه بالدِّرَّة وقال له : « لاتمت علينا ديننا أماتك الله » . أو حين شهد عنده شاهد ، فقال : ائتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل ، فأثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال : كنتَ رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا . قال : أظنك رأيته قائما فى المسجد يهمهم بالقرآن ، يخفض رأسه تارة ويرفعه أخرى ! قال : نعم ! فقال : اذهب فلست تعرفه ! وقال للرجل : اذهب فأتنى بمن يعرفك !

فهذه من عمر رضى الله عنه كتلك من نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - فهم صحيح لحقيقة هذا الدين ، وتصوره للعبادة والسلوك ، وفى العقيدة المستسرة فى الضمير ، والعمل الواضح للعيان : « وَٱبْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا [2] » .

---

(١) الشيخان والنسائى .

(٢) سورة القصص [٧٧] .

« وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً (١) » . «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ؛ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٢) » .. « لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ؛وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ ؛ وَآتَى ٱلْمَالَ – عَلَى حُبِّهِ – ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ ؛ وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَآتَىٰ ٱلزَّكَاةَ ؛ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ .. (٣) » .. « مَن رأى منكم منكراً فليغيره .. (٤) »

فهذا هو قوام الإسلام فى العمل والاعتقاد . ولا عزلة إذن بين الدين والدنيا ، ولا بين العقيدة والاجتماع ، كما كان الحال فى المسيحية التى صاغتها المجامع المقدسة !

* * *

والإسلام لا كهانة فيه ولا وساطة بين الخلق والخالق ، فكل مسلم فى أطراف الأرض ،وفى لجاج البحر ، يستطيع بمفرده أن يتصل بربه ، بلا كاهن ولا قسيس . والإمام المسلم لا يستمد ولايته من « الحق الإلهى » ولا من الوساطة بين الله والناس ، إنما يستمد مباشرته للسلطة من الجماعة الإسلامية ، كما يستمد السلطة ذاتها من تنفيذ الشريعة ، التى يستوى الكل فى فهمها وتطبيقها متى فقهوها ، ويحتكم إليها الكل على السواء .

فليس فى الإسلام « رجل دين » بالمعنى المفهوم فى الديانات التى لا تصح مزاولة الشعائر التعبدية فيها إلا بحضور رجل الدين . إنما فى الاسلام علماء بالدين، وليس للعالم بهذا الدين من حق خاص فى رقاب المسلمين ، وليس للحاكم فى رقابهم إلا تنفيذ الشريعة التى

(١) سورة الحج [٤٠] . (٢) سورة البقرة [١٩٠] . (٣) سورة البقرة [١٧٧] .
(٤) مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

لا يبتدعها هو ، بل يفرضها الله على الجميع . أما فى الآخرة ، فالكل مصيرهم إلى الله : « وكلهم آتيه يوم القيامة فردا[1] » .

فلا صراع إذن بين علماء الدين والسلطان على رقاب العباد ، ولا أموالهم ؛ وليست هنالك مصالح اقتصادية ولا معنوية يتنازعانها ؛ وليست هنالك سلطة روحية وأخرى زمنية فى الإسلام . فلا مجال للصراع عليها ، كما كان الحال بين الأباطرة والبابوات .

والإسلام لا يعادى العلم ولا يكره العلماء ؛ بل يجعل العلم المؤدى إلى معرفة الله ــ وكل علم صحيح يؤدى إلى هذه الغاية ــ فريضة مقدسة داخلةً فى الطاعات الدينية : « طلب العلم فريضة على كل مسلم[2] » . « من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » [3] .

ولم يعرف التاريخ الإسلامى تلك الاضطهادات المنكرة المنظمة لرجال الفكر أو رجال العلم كما عرفتها محاكم التفتيش . والمرات القليلة النادرة التى عوقب فيها رجال على أفكارهم ، تعد شاذة فى تاريخ المسلمين ، وفى الغالب كانت تتلبس بها حالات سياسية ، وتكمن خلفها نزعات حزبية ، وهى على وجه العموم ليست طابعا بارزا للحياة الإسلامية ؛ وقد جاءت على أيدى أناس ينكر عليهم الإسلام أن يكونوا فَهَمَة للإسلام .

وذلك طبيعى فى دين لم يعتمد على الخوارق والمعجزات ؛ إنما قام على التأمل والنظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق :

« إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ، وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ

(١) سورة مريم [٩٥] .
(٢) ابن ماجه .
(٣) مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [1] » . . « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [2] » .

وذلك طبيعى أيضاً فى دين يربط التقوى بالعلم ؛ ويجعل العلم سبيلا إلى معرفة الله وخشيته : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء [3] » . . ويرفع منزلة العلماء على الجهال : «قلْ : هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُون وَالَّذِين لا يَعْلَمُون [4] » .. « فضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب [5] »

فلا جفوة إذن بين الدين والعلم الصحيح المؤدى إلى معرفة الله عن طريق آياته فى الأنفس والآفاق . لا جفوة بين الدين وهذا العلم ، لا فى طبيعة الإسلام ولا فى تاريخه، كالجفوة التى وقعت بين الكنيسة والعلماء فى عصر النهضة وما تلاه .

فأما وقوف « رجال الدين [6] » فى صف السلطان وأصحاب المال وتخديرهم بالدين

(١) سورة البقرة [١٦٤] (٢) سورة الروم [١٩-٢٤] . (٣) سورة فاطر [٢٨] .
(٤) سورة الزمر [٩] . (٥) أبو داود والترمذى وابن حبان والبيهقى .
(٦) نحن نفرق بين اصطلاح رجال الدين واصطلاح « علماء الدين » . . فنى بعض العهود يحاول أصحاب السلطان أن يقيموا فى الإسلام « هيئة دينية » ! يستخدمونها فى تحريف الكلم عن مواضعه ، والإفتاء بما يرضى أصحاب السلطان ، ويصدق أقوالهم وأفعالهم وأوضاعهم التى لا سند لها من الدين ! وهى هيئات تشبه « إكليروس الكنيسة » لا يعرفها الإسلام .

للعاملين والمحرومين ، فلا نكران لوقوعه فى بعض عهود التاريخ الإسلامى . ولكن روح الدين الحقيقية تنكر على هؤلاء موقفهم ؛ والدين يتوعدهم بالعذاب والنكال جزاء ما اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . ولقد حفظ التاريخ بجانب سير هؤلاء سيراً لنماذج من « علماء الدين » الذين لم تأخذهم فى الحق لومة لائم ، والذين جابهوا السلطان وأصحاب المال بحق الفقراء وحق الله ؛ كما حرضوا أصحاب الحقوق على حقوقهم ، وبينوها لهم ، وتعرضوا لظلم الحكام ، وللنفى أحياناً والاضطهاد .

* * *

ليس لدينا إذن سبب واحد لتنحية الإسلام عن المجتمع ، لا من طبيعته الخاصة ، ولا من ظروفه التاريخية ، كالأسباب التى لازمت المسيحية فى أوربا ؛ فعزلت الدنيا عن الدين وتركت للدين تهذيب الضمير وتطهير الوجدان ؛ بينما تركت للقوانين الوضعية تنظيم المجتمع وتسيير الحياة .

كذلك ليست لدينا أسباب حقيقية للعداوة بين الإسلام والكفاح لتحقيق العدالة الاجتماعية ــ فى حدود المنهج الإسلامى والشريعة الإسلامية ــ كالتى لابست العداوة بين المسيحية والشيوعية ؛ فالإسلام يفرض قواعد العدالة الاجتماعية ؛ ويضمن حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء ؛ ويضع للحكم وللمال سياسة عادلة ؛ ولا يحتاج لتخدير المشاعر ، ولا دعوة الناس لترك حقوقهم على الأرض ، وانتظارها فى ملكوت السماء . بل إنه لينذر الذين يتنازلون عن حقوقهم الشرعية ، تحت أى ضغط ، بسوء العذاب فى الآخرة ؛ ويسميهم « ظالمى أنفسهم » : « إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ! قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً [1] » . . ويحرضهم على القتال لحقهم « ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد [2] » .

---

(١) سورة النساء [٩٧] . (٢) رواه النسائى .

فإذا اضطرت أوربا لتنحية الدين عن حياتها العامة ، فلسنا بمضطرين أن نجاريها فى هذا الطريق ؛ وإذا اضطرت الشيوعية أن تعادى الدين لتضمن حقوق الطبقات الكادحة ـ كما تزعم ـ فلسنا كذلك فى حاجة إلى معاداة الدين !

ولكن بعض الناس ـ وفيهم من يزعمون أنهم مسلمون ويتسمون بأسماء المسلمين ـ يقولون : ومن الذى يضمن لنا أن هذا النظام الذى أقامه الإسلام فى عصر تاريخى خاص، لايزال يحمل عناصر النمو والتجدد الكفيلة بأن تجعله صالحا للتطبيق فى عصور تاريخية أخرى ، قد تختلف مقوماتها كثيراً أو قليلاً عن مقومات العصر التاريخى الذى نشأ فيه الإسلام ؟

وهذا الكتاب بجملته هو الإجابة لهؤلاء على مثل هذا السؤال . ولكننا نقول هنا فى إجمال :

إن الإسلام ـ وهو من صنع بارئ هذا الكون ومنشئ نواميسه ، والعالم بما يجدّ فيه وما يتطور ـ كان فى علمه هذا التطور التاريخى ، ومايترتب عليه من تطور اجتماعى واقتصادى وفكرى عام . وإنه لهذا وضع الخطوط الثابتة ، والمبادئ العامة، والقواعد الشاملة التى لا تخرج أطوار الإنسان فى النهاية عن حدودها ؛ وترك التطبيقات لتطور الزمان ، وبروز الحاجات ، فى حدود مبادئه العامة ، وقواعده الشاملة ؛ ولم يُدْل بتفصيلات جزئية مقيدة إلا فى المسائل التى لاتتغير حكمتها ، والتى تؤدى أغراضها كاملة فى كل بيئة ؛ والتى يريد الله تثبيتها فى الحياة البشرية ، لأنها ضمان للخصائص التى يرتضيها لهذه الحياة . وإنه بهذا الشمول وبهذه المرونة ، قد كفل لأحكامه التطبيقية النمو والتجدد على مدى الأزمان .

ولقد بذل فقهاء هذا الدين جهداً ضخما مشكوراً فى التطبيق والقياس والتفريع كفل لأحكام الإسلام أن تلبى حاجات المجتمع المتجددة فى ذلك الزمان ، الذى كان المجتمع فيه

محكوما بشريعة الإسلام .. ثم وقف هذا الجهد عندما تخلى المجتمع عن الإسلام بتخليه عن شريعة الإسلام ، منذ أن غلب الاستعمار الصليبى على دار الإسلام فى كل مكان !

ولم يكن العلاج لتلك الحال أن ندع ديننا الشامل فى عزلة تعبدية ، وننطلق إلى التشريع الفرنسى نستمد منه القانون ، أو إلى النظريات السياسية الغربيــة نستمد منها نظام الحـكم ، أو إلى النظريات المادية نستمد منها نظام المجتمع ، قبل أن نيئس من صلاحية هذه الشريعة لإقامة المجتمع الحديث ! ذلك أن النمو العضوى الطبيعى لأى نظام فى بيئة من البيئات ، يجعله أصلح بالقياس إلى هذه البيئة ــ على الأقل ــ من كل نظام معتسف غريب على طبيعة هذه البيئة ، لم ينم فيها نموه العضوى الرتيب .. وذلك كله فضلا على ماتقتضيه منا دعوى الإسلام التى ندعيها . وهى دعوى لاتقوم إلا على أساس من العبودية لألوهية الله وحده . ولن تتحقق العبودية لألوهية الله وحده إلا فى صورة واحدة : صورة الحـكم بشريعة الله .

ولـكنه الجهل بحقيقة هذا الدين ، وبطبيعة المجتمعات وقوانين الحياة ، والـكسل العقلى والنفسى عن مراجعة الرصيد القديم ، والتقليد المضحك للاتجاه الغربى أو الشرقى فى فصل الدين عن الحياة ، حيث اقتضت ذلك طبيعة نشأة الدين عندهم دون أن تقتضيها طبيعة نشأة الإسلام ، وحيث قامت هنالك الجفوة بين الدين والعلم والدولة لأسباب تاريخية بيّناها ، ولا نظير لها فى تاريخ الإسلام !

وليس معنى هذا أننا ندعو إلى الوقوف بأوضاع المجتمع عند شكل تاريخى معين . فالإسلام منهج وإطار تصاغ منه أشكال متجددة ــ وفى الوقت ذاته قائمة على أصول ثابتة ــ للمجتمع المسلم وفق ظروفه المحيطة . ولـكننا ندعو ــ على الأقل ــ إلى مراجعة الرصيد المذخور ، ومعرفة أسسه العامة ، قبل أن نعمد إلى تقليد مبتسر ، مفقود الأسس التاريخية فى حياتنا ، تضيع فيه شخصيتنا ، ونصبح معه ذيلا للقافلة الإنسانية . وديننا يدعو إلى أن نـكون دائما فى المقدمة:

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ[1] » . . « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [2] » .

وما يُدرى هؤلاء الناس أن لدينا ما نعطيه لهذا العالم البائس المكدود ، الذى دفعته حضارته المادية الخاوية من الروح ، إلى حربين عالميتين فى ربع قرن من الزمان؛ والذى مايزال يتخبط فى طريقه إلى حرب ثالثة تنذر حضارته كلها بالبوار ؟!!

(١) سورة آل عمران [١١٠] . (٢) سورة البقرة [١٤٣] .

طبيعة العدالة الاجتماعية فى الإسلام

لن ندرك طبيعة العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، حتى ندرك مجملا للتصور الإسلامى عن الألوهية والكون والحياة والإنسان . فليست العدالة الاجتماعية إلا فرعاً من ذلك الأصل الكبير الذى ترجع إليه كل تعاليم الإسلام .

إن الإسلام وهو يتولى تنظيم الحياة الإنسانية جميعاً ، لم يعالج نواحيها المختلفة جزافا ، ولم يتناولها أجزاء وتفاريق . ذلك أن له تصورا كليا متكاملا عن الألوهيــة والكون والحياة والإنسان؛ يرد إليه كافة الفروع والتفصيلات؛ ويربط إليه نظرياته جميعاً وتشريعاته وحدوده ، وعباداته ومعاملاته ؛ فيصدر فيها كلها عن هذا التصور الشامل المتكامل ، ولا يرتجل الرأى لكل حالة ؛ ولا يعالج كل مشكلة وحدها فى عزلة عن سائر المشكلات .

ومعرفة هذا التصور الكلى للإسلام تيسر للباحث فيه فهم أصوله وقواعده ؛ وتسهل عليه أن يرد الجزئيات إلى الكليات ؛ وأن يتتبع فى لذة وعمق خطوطه واتجاهاته ، ويلحظ أنها متشابكة متكاملة ، وأنها كل لا يتجزأ ، وأنها لا تعمل عملا مثمراً للحياة إلا وهى متكاملة الأجزاء والاتجاهات .

وطريق الباحث فى الإســلام أن يتبين أولا تصوره الشامل عن الألوهية والكون والحياة والإنسان ، قبل أن يبحث عن رأيه فى الحكم أو رأيه فى المال ، أو رأيه فى علاقات الأمم والأفراد ... فإنما هذه فروع تصدر عن ذلك التصور الكلى ، ولا تفهم بدونه فهماً صحيحاً عميقاً .

والتصور الإسلامى الصحيح لا يلتمس عند ابن سينا أو ابن رشد أو الفارابى وأمثالهم ممن يطلق عليهم وصف « فلاسفة الإسلام » ؛ ففلسفة هؤلاء إنما هى ظلال للفلسفة الإغريقية غريبة فى روحها عن روح الإسلام . وللإسلام تصوره الأصيل الكامل ، يلتمس فى

أصوله الصحيحة : القرآن والحديث ، وفى سيرة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وسننه العملية. وهذه الأصول هى حسبُ أى باحث متعمق ليدرك تصور الإسلام الكلى الذى يصدر عنه فى كل تعاليمه وتشريعاته ومعاملاته .

وقد تناول الإسلام طبيعة العلاقة بين الخالق والخلق ، وطبيعة العلاقة بين الكون والحياة والإنسان ، وطبيعة العلاقة بين الإنسان ونفسه ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الفرد والدولة ، وبين الجماعات الإنسانية كافة ، وبين الجيل والأجيال . ورد ذلك كله إلى تصور كلى جامع ، ملحوظ الخطوط فى سائر الفروع والتفصيلات ..

والبحث المفصل فى هذا التصور ليس مجاله هذا الكتاب ، وهو موضوع بحث مفصل بعنوان « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته »[1] . ولكننى سأشير فقط إلى رؤوس موضوعات عامة ، تمهيداً للحديث فى موضوع العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

* * *

لقد ظلت الإنسانية أدهارا طويلة لا تستقيم على تصور شامل عن الخالق والخلق وعن الكون والحياة والإنسان .

وكانت كلما جاءها رسول من عند الله بصورة منه ، قبلتها منها قلة ، وأعرضت عنها كثرة . ثم عادت بجملتها فارتدت عنه إلى تصورات جاهلية منحرفة مشوهة .. حتى جاء الإسلام بأكمل تصور وأشمل شريعة مقترنين ، وأقام عليهما نظاما واقعيا للحياة يتمثل فيه التصور والشريعة فى صورة عملية .

فأما العلاقة بين الخالق والخلق (الكون والحياة والإنسان) فهى الإرادة المباشرة التى تصدر عنها المخلوقات جميعا : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ[2] » فلا واسطة بين الخلق والخالق من قوة أو مادة . فمن إرادته المطلقة تصدر

(١) صدر القسم الأول منه وهو يعرض « خصائص التصور الإسلامى » . والقسم الثانى تحت الطبع وموضوعه « مقومات التصور الإسلامى » .

(٢) سورة يس [٨٢] .

الموجودات صدوراً مباشراً ؛ وبإرادته المطلقة تحفظ وتنظم وتسير : « يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ (١) » . . « وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ (٢) » . . « لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ، وَلَا ٱللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣) » .. « تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) » .

وهذا الوجود الصادر عن الإرادة المطلقة ، وحدة متكاملة ، كل جزء فيها ملحوظ فيه تناسقه مع سائر الأجزاء ؛ ولكل موجود فيه حكمة تتعلق بهذا التناسق الكامل الملحوظ ؛ « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٥) » . . « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٦) » . : « ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً . مَا تَرَى فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ . هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ؟ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ، يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (٧) » .. « وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا (٨) » .. « ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ، فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٩) » .. وهكذا وهكذا يبدو أن لكل موجود حكمة تتناسق مع غاية الوجود ، وأن الإرادة التي يصدر عنها الوجود أولا ، ويحفظ بها وينتظم ثانيا ، تلاحظ في كل موجود تناسقه ونفعه الكلي للوجود .

ولأن الوجود وحدة متكاملة الأجزاء ، متناسقة الخلقة والنظام والاتجاه ، بحكم صدوره المباشر عن الإرادة الواحدة المطلقة الكاملة ، كان مهيأً وصالحاً ومساعداً لوجود الحياة بصفة عامة ، ولوجود الإنسان ـ أرقى نماذج الحياة ـ بصفة خاصة ؛ فليس الكون عدواً للحياة

(١) سورة الرعد [٢] . (٢) سورة الحج [٦٥] . (٣) سورة يس [٤٠] .
(٤) سورة الملك [١] . (٥) سورة الفرقان [٢] . (٦) سورة القمر [٤٩] .
(٧) سورة الملك [٣،٤] . (٨) سورة فصلت [١٠] . (٩) سورة الروم [٤٨] .

ولا عدواً للإنسان ؛وليست « الطبيعة »ـ بتعبير الجاهلية الحاضرة ـخصما للإنسان يصارعه ويغالبه ، إنما هي من خلق الله ، وهي صديق لا تختلف اتجاهاته عن اتجاهات الحياة والإنسان؛ وليست وظيفة الأحياء أن يصارعوا الطبيعة ، وهم في أحضانها نشأوا ، وهي وهم من ذلك الوجود الواحد الصادر عن الإرادة الواحدة . والإنسان بالذات إنما يعيش في جو صديق وبين أصدقاء من الموجودات : فالله حين خلق الأرض « جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ».. « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ(١) » .. « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ(٢) ».. «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ(٣) » .. « خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً(٤) » .. والسماء بكواكبها جزء من الكون متكامل مع سائر أجزائه ، وكل ما فيها وما في الأرض صديق ومعاون متناسق مع سائر أفراده : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا(٥) » . « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ؛ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ، وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتاً ، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً(٦) » .

وهكذا تقرر العقيدة الإسلامية أن الله رب الإنسان قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقاً مساعداً متعاوناً . أما سبيله إلى كسب هذه الصداقة فهو أن يتأمل هذه القوى ويتعرف إليها ويتعاون معها . وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحيانا ، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ، ولم يعرف الناموس الذي يسيرها .

والخالق ــ مع هذا ــ لا يدع الأحياء والناس لذلك الكون الصديق بلا رعاية

(١) سورة النحل [١٥] . (٢) سورة الرحمن [١٠] . (٣) سورة الملك [١٥] .
(٤) سورة البقرة [٢٩] . (٥) سورة فصلت [١٢] . (٦) سورة النبأ [٦-١٦] .

مباشرة ، وعناية متصلة ؛ فإرادته المباشرة متصلة بالـكون كله ، ومتصلة بكل فرد من موجوداته فى الوقت نفسه : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » .. [1] « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا [2] » .. « وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ [3] » . « وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [4] » .. « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ . نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ [5] »... الخ.

ولأن الوجود الموحد صادر عن إرادة واحدة ؛ ولأن الناس جزء من الـكون متعاون متناسق مع سائر أجزائه ؛ ولأن أفراد الإنسان خلايا متعاونة متناسقة مع الـكون .. لم يكن بد إذن أن تـكون متعاونة متناسقة فيما بينها . لذلك كان تصور الإسلام أن الإنسانية وحدة، تفترق أجزاؤها لتجتمع ؛ وتختلف لتتسق ؛ وتذهب شتى المذاهب لتتعاون فى النهاية بعضها مع بعض ، كى تصبح صالحة لتتعاون مع الوجود الموحـد : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا [6] » .

ونظام الحياة الإنسانية لا يستقيم حتى يتم هذا التعاون والتناسق وفق منهج الله وشرعه . وتحقيقه واجب لصالح الإنسانية كلها ، حتى ليباح استخدام القوة لإرجاع من يشذ عن هذا النهج إليه : « إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ [7] » .. « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ، فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ ٱللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا

(١) سورة فاطر [٤١] . (٢) سورة هود [٦] . (٣) سورة ق [١٦] .
(٤) سورة غافر [٦٠] . (٥) سورة الأنعام [١٥١] . (٦) سورة الحجرات [١٣] .
(٧) سورة المائدة [٣٣] .

بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا[1] ». « وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ[2] ».

فالأصل هو التعاون والتعارف والتناسق فى حدود منهج الله وشرعه ؛ ومن شذ على هذا الأصل ، فليرد إليه بكل طريق ؛ لأن سنة الله فى الكون أولى بالاتباع من أهواء الأفراد والجماعات ؛ والتكافل بين الجميع يتفق مع غاية الكون الواحد ، وغاية خالقه الواحد سبحانه .

فإذا نحن وصلنا إلى الإنسان الجنس ، والإنسان الفرد ، فهو وحدة متكاملة ، وقواه المختلفة الظاهر موحدة الاتجاه فى الحقيقة ، شأنه فى ذلك شأن الكون كله ذى القوة الواحدة المتعددة المظاهر .

ولقد ظلت الإنسانية أدهاراً طويلة لا تهتدى إلى فكرة شاملة عن القوى الكونية والإنسانية . ظلت تفرق بين القوى الروحية والقوى المادية ، تنكر إحداهما لتثبت الاخرى ، أو تعترف بوجودهما فى حالة تعارض وخصام ؛ وتصوغ تعاليمها على أساس أن هناك تعارضاً أساسياً بين هذه القوى وتلك ؛ وأن رجحان إحداهما مرهون بخفة الأخرى ؛ وأنه لا مفر من رجحان كفة وخفة كفة ، لأن التعارض فى نظرها أساسى فى فطرة الكون والناس .

والمسيحية ـ كما صاغتها الكنيسة والمجامع المقدسة ـ من أظهر الأمثال على فكرة هذا التعارض فى الإنسان ؛ وهى متفقة إلى حد ما فى هذه الفكرة مع الهندوكية ، ثم مع البوذية ـ على اختلاف بينهما فيها ـ فخلاص الروح مرهون بكبت الجسد أو بتعذيبه ، أو بإفنائه ، أو على الأقل بإهماله والكف عن لذائذه .

وهذا الأصل الكبير فى المسيحية المحرفة ، وفى الديانات التى تشبهها ، تترتب عليه

(١) سورة الحجرات [٩] . (٢) سورة البقرة [٢٥١] .

تفريعات كثيرة فى النظر إلى الحياة ومتاعها ، وإلى سلوك الفرد وسلوك الجماعة حيالها ، وفى النظر إلى الإنسان وما يضطرب فى كيانه من قوى وطاقات .

وقد ظلت المعركة قائمة بين هذه القوى وتلك ؛ وظل الإنسان ممزقا فى هذه المعركة ، حيران لا يهتدى إلى قرار . . حتى جاء الإسلام ، فإذا هو يعرض صورة كاملة متناسقة ، لا عوج فيها ولا اضطراب ، ولا تعارض فيها ولا خصام . جاء ليوحد القوى والطاقات جميعاً ، ويمزج الأشواق والنزعات والميول ، وينسق بين اتجاهاتها جميعاً ، ويعترف بها وحدة متكاملة فى الكون والحياة والإنسان . جاء ليجمع بين الأرض والسماء فى نظام الكون ؛ والدنيا والآخرة فى نظام الدين ؛ والروح والجسد فى نظام الإنسان ؛ والعبادة والعمل فى نظام الحياة .. ويسلكها جميعاً فى طريق موحد . هو الطريق إلى الله ! ويخضعها كلها لسلطان واحد : هو سلطان الله !

فالكون وحدة ، مركبة من الظاهر المعلوم والمغيب المجهول ، والحياة وحدة مركبة من طاقات مادية وطاقات روحية لا تنفصل أبداً إلا وقع الاختلال بينها والاضطراب ، والإنسان وحدة مركبة من الأشواق المتطلعة إلى السماء والنزعات اللاصقة بالأرض ؛ ولا انفصام بين هذه وتلك فى طبيعة الإنسان ، لأنه لا انفصام بين السماء والأرض أو بين المعلوم والمجهول فى طبيعة الكون ، ولا عزلة بين الدنيا والآخرة أو السلوك والعبادة أو العقيدة والشريعة ، فى طبيعة هذا الدين .

ومن وراء هذا جميعه قوة الأزل والأبد . تلك التى لا أول لها يعرف ، ولا آخر لها يوصف ، تسيطر فى النهاية على الكون والحياة والناس .. إنها قوة الله ..

والفرد الفانى يملك أن يتصل بهذه القوة الأزلية الأبدية ، وهى توجهه فى الحياة وهو يستمدها فى الشدائد . يملك أن يتصل بها وهو فى المحراب يصلى ويتطلع إلى السماء كما يملك أن يتصل بها وهو فى الأرض يعمل مشغولا بمعاشه ومحياه .

والفرد يملك أن يعمل للآخرة ، وهو يصوم فيمنع عن الجسد كل لذائذه ؛ وهو يفطر فيستمتع بكل طيبات الحياة . ما دام يعمل هذا أو ذلك متوجهاً بقلبه إلى الله .

والحياة الدنيا بما فيها من صلاة وعمل ، وبما فيها من متاع وحرمان ، هي وحدها الطريق إلى الآخرة بما فيها من جنة ونار ، ومن عقاب ورضوان .

إنها الوحدة بين أجزاء الكون وقواه ، والوحدة بين كل طاقات الحياة ؛ والوحدة بين الإنسان ونفسه ، وبين واقعه ورؤاه !

إنها الوحدة التي تعقد السلام الدائم بين الكون والحياة ، وبين الحياة والأحياء ، وبين الجماعة والفرد ، وبين أشواق الفرد ونزعاته . وفي النهاية بين الدنيا والدين ، وبين الأرض والسماء .

وهي لا تعقد هذا السلام على حساب الجسد ولا على حساب الروح ، بل تطلق لكل منهما نشاطه ، لتوحد هذا النشاط ، وتتجه به إلى الخير والصلاح والنماء .

ولا تعقده على حساب الفرد أو على حساب الجماعة ، أو لحساب طائفة على طائفة ، أو لحساب جيل على جيل ، فلكل حقوقه ولكل واجباته ، على سنة العدل والمساواة .

والفرد والجماعة والطائفة والأمة والجيل والأجيال كلها يحكمها قانون واحد ، ذو هدف واحد : أن ينطلق نشاط الفرد وأن ينطلق نشاط الجماعة ـ غير متعارضين ـ وأن يعمل الجيل وتعمل الأجيال لبناء الحياة وإنمائها ، والتوجه بها إلى خالق الحياة .

* * *

الإسلام دين الوحدة بين القوى الكونية جميعاً ، فلا جرم هو دين التوحيد : توحيد الإله ، وتوحيد الأديان جميعاً في دين الله ، وتوحيد الرسل في التبشير لهذا الدين الواحد منذ

فجر الحياة[1] : « إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ[2] » .

والإسلام دين الوحدة بين العبادة والمعاملة ، والعقيدة والشريعة ، والروحيات والماديات ، والقيم الاقتصادية والقيم المعنوية ، والدنيا والآخرة ، والأرض والسماء !

وعن تلك الوحدة الكبرى تصدر تشريعاته وفرائضه ، وتوجيهاته وحدوده ، وقواعده في سياسة الحكم وسياسة المال ، وفي توزيع المغانم والمغارم ، وفي الحقوق والواجبات . وفي ذلك الأصل الكبير تنطوي سائر الأجزاء والتفصيلات .

وحين ندرك هذا الشمول في طبيعة النظرة الإسلامية للألوهية والكون والحياة والإنسان ، ندرك معها الخطوط الأساسية للعدالة الاجتماعية في الإسلام .

فهي قبل كل شيء عدالة إنسانية شاملة لكل جوانب الحياة الإنسانية ومقوماتها ، وليست مجرد عدالة اقتصادية محدودة . وهي إذن تتناول جميع مظاهر الحياة وجوانب النشاط فيها ، كما تتناول الشعور والسلوك ، والضمائر والوجدانات . والقيم التي تتناولها هذه العدالة ليست القيم الاقتصادية وحدها ، وليست القيم المادية على وجه العموم . إنما هي هذه ممتزجة بها القيم المعنوية والروحية جميعاً .

وحينما تنظر المسيحية المحرفة للإنسان من خلال أشواقه الروحية وحدها ، وتحاول أن تكبت نزعاته لتطلق أشواقه . وحينما تنظر الشيوعية إلى الإنسان من خلال حاجاته المادية وحدها ؛ وتنظر إلى الإنسانية ، بل إلى الكون كله ، من خلال المادة بمفردها .. ينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه وحدة لا تنفصل أشواقه الروحية من نزعاته الحسية ، ولا تنفك حاجاته المعنوية عن حاجاته المادية ؛ وينظر إلى الكون والحياة هذه النظرة الشاملة التي لا تعدد فيها ولا انفصام .. وهذا هو مفرق الطريق بين الشيوعية والمسيحية

(١) يراجع فصل القصة في القرآن من كتاب « التصوير الفني في القرآن » للمؤلف .
(٢) سورة الأنبياء [٩٢] .

والإسلام ! مفرق الطريق الناشئ من أن الإسلام من صنعة الله الخالصة ، والمسيحية دخل فيها من تحريفات البشر ، والشيوعية من أوهام الإنسان الخالصة !

ثم إن الحياة فى نظر الإسلام تراحم وتواد وتعاون وتكافل محدد الأسس مقرر النظم ، بين المسلمين على وجه خاص ، وبين جميع أفراد الإنسانية على وجه عام . وهى كذلك فى نظر المسيحية ، ولكنها لا تقوم على تشريع واضح مرسوم ولا على واقع محدد معلوم . بينما هى فى نظر الشيوعية تنازع وصراع بين الطبقات ، ينتهى إلى انتصار طبقة على طبقة ، فيتم الحلم الشيوعى الكبير ! ومن هنا يبدو أن المسيحية رؤيا فى عالم المثال المجرد يلوح بها للبشر فى ملكوت السماء ؛ وأن الإسلام هو حلم الإنسانية الخالد ، مجسما فى حقيقة تعيش على الأرض ؛ وأن الشيوعية هى حقد البشرية العارض فى جيل من أجيال الناس !

* * *

على هذين الخطين الكبيرين : الوحدة المطلقة المتعادلة المتناسقة ، والتكافل العام بين الأفراد والجماعات ، يسير الإسلام فى تحقيق العدالة الاجتماعية ، مراعياً العناصر الأساسية فى فطرة الإنسانية ، غير متجاهل كذلك للطاقة البشرية .

يقول القرآن الكريم عن الإنسان : « وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ [(١)] » . . حب الخير لذاته ولما يتصل بذاته . ويقول فى وصف الإنسان بالبخل فطرة وطبعاً : «وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ [(٢)] » . . فهو حاضر فيها أبداً . ووردت فيه صورة فنية معجبة لهذه الفطرة البشرية العجيبة: « قُلْ : لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ، إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ قَتُوراً [(٣)] » .. على حين يقرر أن رحمة الله وسعت كل

---

(١) سورة العاديات [٨] (٢) سورة النساء [١٢٨] . (٣) سورة الإسراء [١٠٠] .

شيء . فيبرز بهذه السعة وبذلك الإمساك مدى الشح فى فطرة الإنسان ، لو ترك بلا تهذيب أو توجيه !

وعند ما يضع الإسلام نظمه وتشريعاته ، وعظاته وتوجيهاته ، لا يغفل ذلك الحب الفطرى للذات ، ولا ينسى ذلك الشح الفطرى العميق ؛ ولكنه يعالج الأثرة ، ويعالج الشح ، بالتوجيه وبالتشريع ، فلا يكلف الإنسان إلا وسعه ، ولا يغفل فى الوقت ذاته حاجات الجماعة ومصالحها وغايات الحياة العليا فى الفرد والجماعة على توالى العصور والأجيال .

وإذا كان من الظلم الاجتماعى الذى يتنافى مع العدالة أن تطغى مطامح الفرد ومطامعه على الجماعة ، فإنه من الظلم كذلك أن تطغى الجماعة على فطرة الفرد وطاقته . إنه من الظلم لا لهذا الفرد وحده ، بل للجماعة ذاتها . فتحطيم نشاط الفرد بتحطيم ميوله ونوازعه لا يقف أثره السيء عند حرمان هذا الفرد ما هو حق له ، بل يتجاوزه إلى حرمان الجماعة أن تنتفع بكامل طاقته . ومتى كفل النظام للجماعة حقها فى جهد الفرد وطاقته ؛ ووضع لحرية الفرد ونوازعه وأطماعه الحدود الكابحة ؛ فلا ينبغى أن يغفل حق الفرد فى انطلاق نشاطه ، فى الحدود التى لا تضارّ بها الجماعة ، ولا يضارّ بها هذا الفرد ذاته ؛ ولا تصطدم بأهداف الحياة العليا . فالحياة تعاون وتكافل فى نَظَر الإسلام ، لا حرب وتنازع وخصام ! كما أنها إطلاق للطاقات الفردية والعامة ؛ وليست كبتاً وحرماناً وسجناً . وكل ما ليس حراماً فهو مباح ؛ والمرء يثاب على كل نشاط حيوى فى حدود منهج الله وشرعه يراعى فيه وجه الله وحده ، ويحقق به الغايات العليا للحياة كما ارتضاها الله .

وانفساح المجال فى نظرة الإسلام إلى الحياة ، وتجاوزه القيم الاقتصادية البحتة إلى سائر القيم التى تقوم الحياة عليها . . يجعله أقدر على إيجاد توازن وتعادل فى المجتمع .

وعلى تحقيق العدالة فى الدائرة الإنسانية كلها ؛ ويعفيه من التفسير الضيق للعدالة كما تفهمها الشيوعية . فالعدالة فى نظر الشيوعية مساواة فى الأجور تمنع التفاوت الاقتصادى ـ وإن كانت حين اصطدمت بالتطبيق العملى لم تستطع تنفيذ هذه المساواة الآلية التحكمية ـ والعدالة فى نظر الإسلام مساواة إنسانية ينظر فيها إلى تعادل جميع القيم ، بما فيها القيمة الاقتصادية البحتة . وهى على وجه الدقة تكافؤ فى الفرص ، وترك المواهب بعد ذلك تعمل فى الحدود التى لا تتعارض مع الأهداف العليا للحياة .

ولأن القيم فى نظر الإسلام كثيرة متازجة كانت العدالة فى مجموعها أيسر ؛ لذلك لم يضطر إلى تحتيم المساواة الاقتصادية بمعناها الحرفى الضيق ، الذى يصطدم بالفطرة ، ويتعارض مع طبيعة المواهب المتفاوتة ، ويعوق الاستعدادات الفائقة ، ويسوى بينها وبين الاستعدادات الضعيفة ، ويمنع أصحاب المواهب من إنفاق مواهبهم لخير أنفسهم ، ولخير الأمة ، فيحرم الأمة ، ويحرم الإنسانية نتاج هذه المواهب .

إنه لا جدوى من المغالطة فى أن استعدادات الأفراد الطبيعية ليست متساوية ؛ فنحن إذا غالطنا فى المواهب الكامنة ـ ولا سبيل للمغالطة فيها عند ما تجرى الحياة العملية مجراها ـ فإننا لا نستطيع أن نغالط فى أن بعض الأفراد يولد باستعدادات فطرية للصحة والاكتمال والاحتمال ، وبعضهم يولد باستعدادات جسدية للمرض والنقص والضعف ، ولا سبيل إلى تسوية جميع الاستعدادات والمواهب ما دامت الآلة لم تستطع بعد صنع الأحياء ، لتصبهم فى قالب واحد ، على نظام الأجهزة والآلات !

إن إنكار الاستعدادات الجسدية والفكرية والروحية الفائقة هو ضرب من العبث لا يستحق المناقشة . فلا بد أن نحسب حسابها ؛ وأن نمنحها الفرصة لتؤتى أقصى ما تستطيع من ثمراتها . ثم نحاول بعد ذلك أن نأخذ من هذه الثمرات ما نراه لازما لمصلحة المجتمع ،

لا أن نقطع الطريق على هذه الاستعدادات فنظلمها بتسويتها بالاستعدادات الضعيفة ، ونغلها عن العمل ، ونبددها على الأمة والإنسانية تبديداً .

ولقد قرر الإسلام مبدأ تكافؤ الفرص ، ومبدأ العدل بين الجميع ؛ ثم ترك الباب مفتوحا للتفاضل بالجهد والعمل؛ ثم جعل القيم الأصيلة فى المجتمع المسلم قيما أخرى غير القيم الاقتصادية : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ (١) » .. « يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (٢) » .. «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٣) » .

وهكذا يبدو أن هناك قيما أخرى غير القيم الاقتصادية البحتة ، يحسب الإسلام حسابها ؛ ويجعلها هى القيم الحقيقية ، ويجعل منها وسيلة للتعادل فى المجتمع حين تتفاوت الأرزاق المالية بين الناس ، بأسباب التفاوت المعقولة القائمة على الجهد والموهبة ، لا على الوسائل المنكرة التى يحرمها الإسلام تحريما (كما سيأتى فى فصل سياسة المال) .

لا يفرض الإسلام إذن المساواة الحرفية فى المال ، لأن تحصيل المال تابع لاستعدادات ليست متساوية . فالعدل المطلق يقتضى أن تتفاوت الأرزاق ، وأن يفضل بعض الناس بعضا فيها ، مع تحقق العدالة الإنسانية : بإتاحة الفرص المتساوية للجميع ؛ فلا يقف أمام فرد حسب ولا نشأة ، ولا أصل ولا جنس ، ولا قيد واحد من القيود التى تغل الجهود . وبإدخال القيم الأصيلة الأخرى فى الحساب . وبتحرير الوجدان البشرى تحريراً كاملا من ضغط القيم الاقتصادية البحتة ؛ ووضع هذه القيم فى مكانها الحقيقى المعقول ؛ وعدم إعطائها قيمة معنوية ضخمة كالتى تعطاها فى المجتمعات البشرية التى تفقد الإحساس بالقيم الإيمانية ، أو تصغر من أهميتها ، وتجعل للمال وحده القيمة الأساسية الكبرى .

وإن الإسلام ليرفض أن يجعل للمال كل هذه القيمة ؛ ويأنف أن تستحيل الحياة لقمة

---

(١) سورة الحجرات [١٣] . (٢) سورة المجادلة [١١] . (٣) سورة الكهف [٤٦] .

خبز ، وشهوة جسد ، ودراهم معدودات . . . ولكنه فى الوقت ذاته يحتم الكفاية لكل فرد ، وأحيانا ما فوق الكفاية، ويفضل أن تكون هذه الكفاية عن طريق الملكية الفردية، أو العمل المنتج بأنواعه ، ليرفع عنه ضغط العوز من ناحية وضغط الجهة التى تملك موارد الرزق من ناحية أخرى .. ويحرم الترف الذى يطلق العنان للمتاع والشهوات ، وينشئ الفوارق فى مستويات الحياة . ويرتب فى الأموال حقوقاً للفقراء بقدر حاجتهم ، وبقدر ما يصلح المجتمع ، ويضمن له التكافؤ والتعادل والنماء . وبذلك لا يغفل جانباً واحداً من جوانب الحياة المادية والشعورية الدينية والدنيوية .. دون مراعاته؛ لتنصهر هذه الجوانب كلها ، وتستحيل وحدة متماسكة ، يصعب إهمال عنصر من عناصرها الممتزجة المتناسقة ؛ ولتتسق وحدتها مع وحدة الكون الكبير ، ووحدة الحياة والإنسان .

يقيم الإسلام هذه العدالة الاجتماعية التى كشفنا عن طبيعتها إجمالا ، على أسس ثابتة؛ ويحدد لبلوغ أهدافها وسائل معينة ؛ فلا يدعها قضية غامضة ، ولا دعوة مجملة ؛ فهو بطبيعته دين تنفيذ وعمل فى واقع الحياة ، لا دين دعوة وإرشاد مجردين فى عالم المثال .

وقد رأينا هناك إجمالا أن للإسلام تصورا أساسيا عن الألوهية والكون والحياة والإنسان؛ وأدركنا أن قاعدة « العدالة الاجتماعية » متأثرة بذلك التصور الأساسى، داخلة فى إطاره العام؛ وأن طبيعة نظرة الإسلام إلى الحياة الإنسانية ، تجعل العدالة الاجتماعية عدالة إنسانية شاملة لكل مقومات الحياة الإنسانية ، ولا تقف عند الماديات والاقتصاديات ، وأن القيم فى هذه الحياة مادية معنوية فى الوقت ذاته ، لا يمكن الفصل بين صفتيها المتحدتين ؛ وأن الإنسانية وحدة متكافلة متناسقة ، لا جماعات متعارضة متنافرة .

وربما بدا فى بعض الأحيان أن الواقع يخالف هذه الفكرة الأساسية للإسلام ، فيجب أن نعرف أولا ما هو هذا الواقع ؟

إن الواقع الذى يعده الإسلام حقيقة ، ليس واقع فرد ، ولا واقع أمة ، ولا واقع جيل.. فهذا إنما هو الواقع الصغير المحدود الموقوت ، الذى تقف عنده مدارك الأفراد البشريين الفانين ، حين يكفون بصيرتهم عن الاستشراف لما هو أكبر وأشمل فى حياة البشرية الكبرى وحياة الكون كله . فأما الإسلام فإنه يمد ببصره إلى جميع الآفاق ؛ ويحسب حسابا لجميع المصالح ؛ ويهدف إلى تحقيق غاية تشمل الإنسانية كلها منذ البدء إلى النهاية . فما يبدو تعارضا فى الواقع المحدود ، قد لا يبدو كذلك حين نتجاوزه إلى الواقع الشامل. واقع الإنسانية كلها ، لا واقع فرد ولا أمة ولا جيل .

وهذه النظرة الكلية البعيدة الأهداف إلى العدالة الاجتماعية ، هى التى تفسر لنا فيما بعد نظما عدة فى الإسلام ، لاتفهم حق الفهم إذا هى أخذت جزئيات وتفاريق ، وإذا حسب فيها حساب الفرد وحده فى جماعة ، أو حساب الجماعة وحدها فى أمة ، أو حساب الأمة وحدها فى جيل ، أو حساب الجيل وحده فى أجيال ... وهى التى تفسر لنا نظام الملكية الفردية ، ونظام الإرث ، ونظام الزكاة ، ونظام الحكم ، ونظام المعاملات . . . إلى آخر مايتضمنه الإسلام من نظم ، تتناول الأفراد والجماعات والأمم والأجيال .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن ذلك كله ،فسنقتصر إذن على تناول الأسس العامةالتى أقام عليها الإسلام بناء العدالة الاجتماعية ، فى حدود فكرته الكلية .وسنرى من طبيعتها أن الإسلام قد نظر إلى وحدة الروح والجسد فى الفرد ، وإلى وحدة المعنويات والماديات فى الحياة . كما نظر إلى وحدة الهدف بين الفرد والجماعة ، ووحدة المصلحة بين الجماعات المختلفة فى الأمة الواحدة، ووحدة الغاية بين الأمم الإنسانية ،ووحدة الصلة بين الأجيال المتعاقبة على اختلاف المصالح القريبة المحدودة .

هذه الأسس التى أقام عليها الإسلام العدالة الاجتماعية هى :

١ ـ التحرر الوجدانى المطلق .

٢ ـ المساواة الإنسانية الكاملة .

٣ ـ التكافل الاجتماعى الوثيق .

فلنفرد لكل أصل من هذه الأصول كلمة تكشف عن طبيعته وغايته .

التحرر الوجدانى

لن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة ، ولن يضمن لها التنفيذ والبقاء ، مالم تستند إلى شعور نفسى باطن باستحقاق الفرد لها ، و بحاجة الجماعة إليها ؛ وبعقيدة فى أنها تؤدى إلى طاعة الله وإلى واقع إنسانى أسمَى . ومالم تستند كذلك إلى واقع مادى يهيئ للفرد أن يتمسك بها ، ويحتمل تكاليفها ويدافع عنها . ولن يستحقها الفرد بالتشريع قبل أن يستحقها بالشعور ، وبالقدرة العملية على استدامة هذا الشعور . ولن تحافظ الجماعة على التشريع إن وجد ، إلا وهناك عقيدة تؤيده من الداخل ، وإمكانيات عملية تؤيده من الخارج .. وهذا ما نظر إليه الإسلام فى توجيهاته وتشريعاته جميعاً .

وتذهب المسيحية ـ كما صورتها الكنيسة والمجامع المقدسة ـ والبوذية كذلك ، إلى أن التحرر الوجدانى من لذائذ الحياة وشهواتها ، والتوجه إلى ملكوت الرب فى السماء ، واحتقار الحياة الدنيا ، كفيل بأن يضمن للإنسان حريته ، وللضمير سعادته . وهذا حق . ولكنه ليس الحق كله . فدوافع الحياة لا تقهر فى جميع الأحوال ، وضروريات الحياة الواقعة لا تغلب أبد الدهر ، ولا بد أن يخضع الإنسان لضغطها فى أكثر الأحيان .

على أن قهر دوافع الحياة وكبتها ليس خيراً دائماً ، فالله خالق الحياة لم يخلقها عبثا ، ولم يخلقها ليعطلها البشر ويقفوا نموها . وإنه لمن الخير أن يسمو الإنسان على ضروراته ، وأن يرتفع على شهواته ؛ ولكنه ليس من الخير أن يعطل الحياة ذاتها بذلك السمو وهذا الارتفاع .

فإذا كان هناك طريق لأن تنطلق القوى المكنونة فى كيان البشرية ؛ وأن يرتفع الإنسان على الخضوع المذل لضروراته ، فذلك هو الطريق الأقوم والأسلم . وهذا ماهدف

إليه الإسلام وهو يوحد ضرورات الجسد وأشواق الروح فى نظام ، ويكفل التحرر الوجدانى بالشعور الباطن والإمكان الواقع ، ولا يغفل عن هذا أو ذاك .

وتذهب الشيوعية إلى أن التحرر الاقتصادى وحده كفيل بالتحرر الوجدانى ؛ وأن الضغط الاقتصادى على الفرد هو الذى يجعله يتخلى عما تكفل له القوانين النظرية أحيانا من عدالة ومساواة . . وهذا حق . ولكنه ليس الحق كله . فالتحرر الاقتصادى ذاته لا يكفل له البقاء فى المجتمع إلا بالتحرر الوجدانى من داخل الضمير . فهو عرضة لضغط آخر : ضغط الضرورات والاستعدادات والميول ، التى لا تكفى التشريعات وحدها لمقاومتها . والفرد الذى تقعد به استعداداته الطبيعية عن مجاراة الآخرين فى الإنتاج ، وعن مجاراتهم فى التطلع والطموح .. هذا الفرد لا بد أن يفقد حرصه على المساواة ، التى قد يكفلها له القانون ، لإحساسه الباطن بأنه أقل من سواه ، ولو تبجح فترة وكابر . والفرد ذو الاستعدادات الفائقة والنتاج الموفور ، لا بد أن يغالب قانون المساواة المطلقة ونظام الملكية العامة الشامل ، فإن لم يستطع حقد عليهما وحنق ؛ فإما أن يتمرد ، وإما أن يخبو ذكاؤه ، وتنكمش استعداداته ، ويقل نتاجه .

فأما حين تستند المساواة إلى تحرر وجدانى عميق ، كما تستند إلى التشريع والتنفيذ ، فإن الشعور بها يكون أقوى عند القوى وعند الضعيف . إنها تستحيل فى الضعيف تساميا ، وفى القوى تواضعاً ؛ وتلتقى فى النفس بالعقيدة فى الله ، وفى وحدة الأمة وتكافلها . . وهذا ماهدف إليه الإسلام حين حرر الوجدان البشرى تحريزاً مطلقاً كاملا ؛ بعد ما كفل فى الوقت ذاته حاجات الجسد ، وضرورات الحياة ، بحكم الأوضاع ، وبحكم القانون ، وبحكم الضمير سواء .

* * *

لقد بدأ الإسلام بتحرير الوجدان البشرى من عبادة أحد غير الله ، ومن الخضوع

لأحد غير الله . فما لأحد عليه غير الله من سلطان ؛ وما من أحد يميته أو يحييه إلا الله ؛ وما من أحد يملك له ضراً ولا نفعاً ؛ وما من أحد يرزقه من شيء في الأرض ولا في السماء ؛ وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع ؛ والله وحده هو الذي يستطيع ، والكل سواه عبيد ، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً .

« قُلْ : هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (١)

وإذا توحد الله توحدت عبادته ، واتجه الجميع إليه فلا عبادة لسواه ، ولا حاكمية لغيره ، كي لا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، ولا يكون لأحد منهم فضل على أحد إلا بعمله وتقواه :

« قُلْ : يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ » (٢) .

ويحرص الإسلام على هذا المعنى حرصاً شديداً ؛ فيتكىء عليه القرآن في مناسبات شتى . ولما كان الأنبياء هم مظنة أن يتجه إليهم الناس بشيء من العبادة ، أو ما في معناها على وجه من الوجوه ، فقد عني الإسلام بتحرير وجدان البشرية من هذه الناحية تحريراً كاملاً .

يقول عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ؟ » (٣) .

ويخاطب هذا النبي في صراحة قوية : « لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ » (٤) كما يخاطبه في موضع آخر بما يشبه التهديد : « وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ

(١) سورة الإخلاص . (٢) سورة آل عمران [٦٤] . (٣) سورة آل عمران [١٤٤] .
(٤) سورة آل عمران [١٢٨] .

إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذَنْ لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ، ثُمَّ لَاتَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً » (١) .

ويأمره أن يجهر بحقيقة موقفه جهراً : « قُلْ : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً . قُلْ : إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَداً . قُلْ : إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً » (٢) .

ويتحدث عمن ألهوا عيسى ابن مريم ، فيصمهم بالكفر والسخف : « لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ . قُلْ : فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ؟ ! (٣) » .

ويقول عن المسيح فى موضع آخر : « إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » (٤) .

ويعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة يستجوب فيه عيسى ابن مريم عما زعمه بعض الناس عنه من ألوهية ؛ ويثبت براءة عيسى من هـذا الزعم الذى لا يد له فيه ، فى أسلوب قوى أخاذ : « وَإِذْ قَالَ اللهُ : يَاعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ ! مَايَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَافِي نَفْسِي وَلَاأَعْلَمُ مَافِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ؛ مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ؛ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » (٥) .

---

(١) سورة الإسراء [٧٤، ٧٥] (٢) سورة الجن [٢٠-٢٢]
(٣) سورة المائدة [١٧] . (٤) سورة الزخرف [٥٩] .
(٥) سورة المائدة [١١٦ – ١١٨] .

كما يعرض صورة من تأليه العباد للعباد لا تتمثل فى اعتقادهم بألوهيتهم ، ولكن تتمثل فى تلقى الشرائع منهم ، وجعلهم بذلك أربابا ولو لم يعتقدوا بألوهيتهم أو يقدموا لهم شعائر العبادة : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰها واحدا لا إلٰه إلا هو ، سبحانه عما يشركون »(١) .

وهكذا . وهكذا يستمر القرآن فى توكيد هذه العقيدة وتثبيتها وتوضيحها، ليصل إلى تحرير الوجدان البشرى من كل شبهة شرك فى ألوهية أو ربوبية ، قد تضغط هذا الوجدان، وتخضعه لمخلوق من عباد الله ، إن يكن نبياً أو رسولا ، فإنه عبد من عباده لا إلٰه !

فإذا انتفى أن يكون عبد بذاته أميز عند الله من عبد بذاته ، انتفت الوسائط بين الله وعباده جميعا ؛ فلا كهانة ولا وساطة ، بل يتصل كل فرد صلة مباشرة بخالقه ؛ يتصل شخصه الضعيف الفانى بقوة الأزل والأبد ، يستمد منها القوة والعزة والشجاعة ، ويشعر برحمة الله وعنايته وعطفه ، فيشتد إيمانه وتقوى معنويته .

والإسلام حريص كل الحرص على تقوية هـذه الصلة ، وإشعار الفرد أنه يملك الاستعانة بتلك القوة الكبرى آناء الليل وأطراف النهار : « ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ »(٢) . « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى، وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ »(٣) .. « وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ »(٤) .. « قُلْ : يَاعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً »(٥) .

وقد شرع الإسلام خمس صلوات ، يقف فيها العبد كل يوم أمام ربه ، ويتصل فيها

---

(١) سورة التوبة [٣١]
(٢) سورة الشورى : [١٩] .
(٣) سورة البقرة : [١٨٦] .
(٤) سورة يوسف : [٨٧] .
(٥) سورة الزمر : [٥٣] .

بالمخلوق بخالقه ، فى أوقات منظمة ، غير ما يعن له هو أن يقف أمام إلهه ، أو يتصل به فى توجهه ودعائه .

وليس الغرض من الصلاة أو الدعاء ألفاظا وحركات، بل القصد هو التوجه الكامل بالقلب والفكر والجسد فى وقت واحد إلى الله ، تمشياً مع تصور الإسلام الكلى عن وحدة الإنسان فى تكوينه ، ووحدة الخالق فى ألوهيته : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » (١) ..

* * *

فإذا تحرر الوجدان من شعور العبادة والخضوع لعبد من عباد الله، وامتلأ بالشعور بأنه على اتصال كامل بالله، لم يتأثر بشعور الخوف على الحياة أو الخوف على الرزق، أو الخوف على المكانة ... وهو شعور خبيث يغض من إحساس الفرد بنفسه، وقد يدعوه إلى قبول الذل ، وإلى التنازل عن كثير من كرامته ، وكثير من حقوقه . ولكن الإسلام لشدة حرصه على أن يحقق للناس العزة والكرامة، وأن يبث فى نفوسهم الاعتزاز بالحق، والمحافظة على العدل ؛ وأن يضمن بذلك كله ــ علاوة على التشريع ــ عدالة اجتماعية مطلقة، لا يفرط فيها إنسان .. لهذا كله يعنى عناية خاصة بأن يقاوم الشعور بالخوف على الحياة وعلى الرزق وعلى المكانة، فالحياة بيد الله، وليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة ، كذلك ليس له أن يخدشها خدشاً خفيفاً بضرر خفيف :

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، كِتَابًا مُؤَجَّلًا » (٢) .. « قُلْ: لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا » (٣) .. « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » (٤) .

---

(١) سورة الماعون : [٤ـ٥] .
(٢) سورة آل عمران : [١٤٥] .
(٣) سورة التوبة [٥١] .
(٤) سورة يونس : [٤٩] .

وإذن فلا كان الجبن والجبناء ، والحياة والأجل ، والنفع والضر بيد الله دون سواه :
« قُلْ : أَغَيْرَ ٱللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ » [(١)] .. « ٱللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » [(٢)] .. « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » [(٣)] .. « قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ؟ أَمْ مَن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ؟ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ ٱللهُ » [(٤)] .. « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ؟ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ؟ » [(٥)] .. « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » [(٦)] .. « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ » [(٧)] .

ويقرر القرآن أن خوف الفقر إنما هو من إيحاء الشيطان ، ليضعف النفس، ويصدها عن الثقة فى الله ، وعن الثقة فى الخير : « ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَٱللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » [(٨)] .

وإذن فلا يجوز أن يُذل الاسترزاق رقاب الناس، فإنما رزقهم بيد الله؛ وبيد الله وحده؛ ولن يملك أحد من عباده الضعفاء أن يقطع رزق إنسان، ولا أن يضيق عليه فى الرزق شيئاً. وهـذا لا ينفى الأسباب والعمل ، ولـكنه يقوى القلب ويشجع الضمير ، ويجعل الفقير المسترزق يواجه من يظن أن بيده رزقه بكل قوة وبكل شجاعة ، فلا يقعده شعور الخوف عن المطالبة بحقه ، وعن الاعتزاز بنفسه ، ويدعوه إلى ترك بعض أجره أو بعض دينه أو

---

(١) سورة الأنعام : [١٤] .
(٢) سورة الرعد : [٢٦] .
(٣) سورة العنكبوت : [٦٠] .
(٤) سورة يونس : [٣١] .
(٥) سورة فاطر : [٣] .
(٦) سورة الأنعام : [١٥١] .
(٧) سورة التوبة : [٢٨] .
(٨) سورة البقرة [٢٦٨] .

بعض عزته احتفاظاً برزقه. وعلى هذا النحو يجب أن نفهم توجيه القرآن واتجاه الإسلام، فهذا هو الفهم الحق الذي يتمشى مع منهجه العام في التوجيه والتشريع.

والخوف على المركز والمكانة قد يكون عدلا للخوف من الموت والأذى، والخوف من الفقر والعيلة. والإسلام يحرص على أن يتحرر الفرد من هذا الخوف أيضاً، فلن يملك مخلوق لمخلوق في هذا الأمر شيئاً:

« قُلِ: ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ، تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » [1].. « قُلْ: مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ. قُلْ: فَأَنَّى تُسْحَرُونَ » [2].. « إِن يَنْصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ » [3].. « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً [4] ».. « وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ [5] »..

وإذن فلا خوف من هذه الناحية أيضا، فإن القدرة لله وحده، وإن العزة لله جميعاً: « وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ » [6]..

***

ولكن النفس البشرية قد تتحرر من عبودية القداسة، ومن عبودية الخوف على الحياة أو الرزق أو المكانة؛ ثم تتأثر بعبودية القيم الاجتماعية. قيم المال والجاه والحسب والنسب، ولو لم ينلها منها نفع ولا ضر. فإذا استشعر الوجدان عبودية معنوية لأية قيمة من هذه القيم، فلن يملك حريته كاملة إزاءها، ولن يشعر بالمساواة الحقة مع أصحابها. وهنا يتصدى الإسلام لهذه القيم جميعاً، فيضعها في موضعها الحقيقي بلا إغفال ولا مغالاة، ويرد القيم الحقيقية إلى

(١) سورة آل عمران [٢٦].
(٢) سورة المؤمنون: [٨٨-٨٩].
(٣) سورة آل عمران [١٦٠].
(٤) سورة فاطر: [١٠].
(٥) سورة المنافقون: [٨].
(٦) سورة الأنعام: [١٨].

اعتبارات معنوية ذاتية ، كامنة فى نفس الفرد ، أو واضحة فى عمله . وبذلك يضعف تأثير تلك القيم المادية ، وتضؤل آثارها النفسية ؛ فيكون هذا ـ بجانب ما يكفله الإسلام من ضمانات معيشية وقانونية ـ وسيلة للتحرر الوجدانى الكامل :

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ »(١) .. والكريم عندالله هو الكريم حقاً وصدقاً.

« وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَاداً ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. قل : إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ؛ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً، فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا، وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » (٢) ..

فليكونوا أكثر أموالا وأكثر أولاداً، فما لهذا من قيمة تجعل لهم ميزة أو استعلاء، « إلا من آمن وعمل صالحاً » . فالإيمان ، وهو قيمة مكنونة فى الضمير، والعمل الصالح وهو قيمة بارزة فى الحياة ، هما القيمتان الحقيقيتان اللتان لهما كل الاعتبار .

والإسلام لا يغضُّ مع هذا من قيمة المال ولا من قيمة الأبناء : « المَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .. زينة ولكنهما ليسا قيمة من قيمها التى ترفع وتخفض : « والباقياتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً » (٣) ..

ويضرب القرآن للقيم المادية والقيم المعنوية مثلاً فى نَفْسَىْ رجلين ، لا يدع مجالاً للشك فى إيثار إحداهما على الأخرى ، فى الوقت الذى يرسم صورة واضحة قوية للنفس المؤمنة ، وحقيقة القيم فيها :

« وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ، وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً . كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا، وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً، وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا

(١) سورة الحجرات : [١٣] .
(٢) سورة سبأ : [٣٥ــ ٣٧] .
(٣) سورة الكهف : [٤٦] .

نَهَراً . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ـ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ـ قَالَ : مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ؟ لٰكِنَّ هُوَ اللهُ رَبِّي ، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : مَاشَاءَ اللهُ ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ . إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا ، فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ ، وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ؛ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ، فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ـ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ـ وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً » (1) .

وهكذا يبرز اعتزاز المؤمن بإيمانه ، واستهانته بتلك القيم التي اعتز بها صاحبه وهو يحاوره . ومما يلفت النظر أن صاحبه هذا المعتز بجنته لم يظهر الشرك بالله ، ولكن القرآن عدّه مشركاً ، وجعله يعترف بإشراكه في النهاية . ذلك أنه أشرك قيمةمادية صرفة،وجعل لها هذا الاعتبار في وجدانه . والمؤمن الحق لا يشرك بالله شيئا .

وفي قصة « قارون » يعرض صورتين نفسيتين بإزاء فتنة المال والثراء:صورة لنفوس تزدهيها هذه القيم فتضعف وتتضاءل ، وتحس بالصغر أمام الأغنياء؛وصورة لنفوس مؤمنة تعتز وتقوى ولاتصغر أو تضعف أبدا : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : لَا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ؛ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ؛ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ

(1) سورة الكهف : [٣٢-٤٣] .

الْمُفْسِدِينَ . قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي . أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ؟ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ. قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ . إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ :وَيْلَكُمْ ! ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ،فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ؛وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْ ! كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ. لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا . وَيْ ! كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » (١) .

ويرتب الإسلام على نظرته هذه نتائجها ، فينهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعطى قيمة لما يتمتع به بعضهم من متاع خلاب ، فإنما هو فتنة واختبار وابتلاء :

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » (٢) .

ويفهم بعضهم أن هذه الآية ونظائرها إنما تدعو إلى ترك الأغنياء يعتنون كما يشاءون، ورضى الفقراء بحرمانهم حقوقهم التى يكفلها الإسلام لهم . وهو فهم خاطىء لا يلتفت إلى التصور الإسلامى العام . وهو تفسير المحترفين من « رجال الدين » فى عصور الاستبداد لتنويم الشعور العام ، وكفه عن المطالبة بالعدالة الاجتماعية . وعليهم وزرهم ، والإسلام من تأويلهم برىء . فإنما جاءت هـذه الآية وأمثالها لرد اعتبار القيم الإنسانية ؛ ولإنقاذ أنفس الفقراء مما يلحقها من ضعف أو انكسار أمام القيم المادية البحتة من مال ومتاع .

ومما يؤيد اتجاهنا هذا أمر الله ــ سبحانه ــ لنبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بألا يقيم وزناً لهذه القيم ؛ وألا يرتب اعتبارات الناس عليها :

(١) سورة القصص : [٧٦-٨٢] . (٢) سورة طه : [١٣١] .

« وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ، تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(١) »..« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ(٢) » .

وفى هذا المجال تعرض قصة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الرجل الأعمى الفقير « ابن أم مكتوم » ومع « الوليد ابن المغيرة » سيد قومه . تلك القصة التى عتب الله فيها على نبيه عتبا شديدا :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ؟ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ! كَلَّا ! إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ(٣) » .

لقد كانت لحظة حرص بشرىّ ساورت محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ طمعا فى أن يهدى الله الوليد إلى الإسلام ؛ وكان بأمره مشغولا حينما جاءه ابن أم مكتوم يطلب شيئا من القرآن ، ويدعو مرة ومرة ، وهو بأمر الوليد مشغول ؛ فتضايق منه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعبس فى وجهه ؛ فعاتبه ربه هذا العتاب الشديد ، الذى كاد يبلغ حد التأنيب ؛ تصحيحاً للقيم التى يعتز بها الإسلام ، وتحقيقاً لمنهجه الصحيح ، واتجاهه القويم ، فى تحرير الوجدان .

* * *

وأخيراً فقد تتحرر النفس البشرية من عبودية القداسة ؛ ومن خوف الموت والأذى والفقر والهوان ؛ ومن كل الاعتبارات الخارجية والقيم الاجتماعية ؛ ثم تبقى مستذلة لذاتها ، مستذلة للذاتها وشهواتها ، مستذلة لمطامعها وأهوائها ؛ فيأتى لها القيد من داخل حين تنفلت منه

---

(١) سورة الكهف : [٢٨] . (٢) سورة التوبة : [٥٥] .
(٣) سورة عبس : [١-١٢] .

من خارج ؛ فلا تبلغ التحرر الوجدانى الكامل الذى يريده الإسلام لها ، ليحقق لها العدالة الاجتماعية الإنسانية الكبرى .

والإسلام لا يغفل هذا الخطر الكامن على التحرر الواجدانى ، فيلقى إليه التفاتة عميقة ، تشهد بعنايته بدخائل النفس البشرية وأغوارها ؛ وتدل على رعايته لكل استعداداتها وملابساتها ؛ ويلم بما تلم به المسيحية وتجعله غاية غاياتها :

«قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ، وَأَبْنَاؤُكُمْ ،وَإِخْوَانُكُمْ، وَأَزْوَاجُكُمْ، وَعَشِيرَتُكُمْ؛ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ . فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ»(١) .

وهكذا يجمع فى آية واحدة جميع اللذائذ والمطامح والرغائب ونقط الضعف فى نفس الإنسان ، ليضعها فى كفة ، ويضع فى الكفة الأخرى حب الله ورسوله ، وحب الجهاد فى سبيله ، لتكون التضحية كاملة ، والتخلص من أوهاق الشهوات كاملا . فالنفس التى تتحرر من هذا كله هى النفس التى يتطلبها الإسلام ، ويدعو إلى تكوينها لتستعلى على الضراوة المذلة ، وتملك قياد أمرها ، وتنزع إلى ما هو أكبر وأبعد مدى من الرغبات الوقتية الصغيرة .

أو يقول : «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ : مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ، وَالْأَنْعَامِ ، وَالْحَرْثِ . ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؛ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا ؛ وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٢)» .

(١) سورة التوبة : [٢٤] . (٢) سورة آل عمران : [١٤-١٥].

وما كان هذا تخديرا ولا دعوة إلى الزهد وترك طيبات الحياة كما يحلو لبعضهم أن يفسر القرآن، أو كما يحلو لبعضهم أن يتهم الإسلام؛ إنما كان دعوة للتحرر والانطلاق من ضعف الشهوات والغرائز، ثم لا ضرر بعد ذلك من الاستمتاع بالحياة حين يملكها الإنسان ولا تملكه: «قُلْ: مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ!»(١) «وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا»(٢).

وفى هذا الاتجاه نفسه كانت فريضة الصوم لترتفع النفس على ضرورات الفطرة القوية فترة من الوقت، تقوى بها إرادتها وتستعلى، ويسمو بها الإنسان على ذاته حين يرتفع على ضروراته.

ويسلك القرآن إلى هذه الغاية شتى السبل؛ ومن بينها التحذير الإيحائى من فتنة الأموال والأولاد حين يقول: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ»(٣).. وبذلك يثير عامل الحذر من الاندفاع وراء الضعف البشرى بإزاء الأموال والأولاد. فكثيراً ما يؤتى المرء من ناحية حرصه على ماله أو بنيه، فيقبل مالم يكن ليقبل، ويخضع لما لم يكن ليخضع، ويرتكب مالم يكن ليرتكب. وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو محتضن أحد ابنى بنته فاطمة رضى عنها وهو يقول: «إِنَّكُمْ لَتُبَخِّلُونَ وَتُجَبِّنُونَ وَتُجَهِّلُونَ(٤)».

وبعد، فلقد يتحرر المرء من كل ما يغض شعوريا من كرامته، ولكنه يحتاج. يحتاج إلى اللقمة فيذل، فليس أشد من الحاجة إذلالا؛ والبطن الجائعة لا تعرف المعانى العالية. ولقد يضطر للاستجداء فتذهب كرامته كلها ضياعا. هنا يتولى الإسلام الأمر بالتشريع لمنع

---

(١) سورة الأعراف: [٣٢]. (٢) سورة القصص: [٧٧] (٣) سورة التغابن: [١٥].
(٤) الترمذى.

أسباب الحاجة ؛ ولإزالتها حين توجد : فيجعل للفرد حقه فى الكفاية مفروضاً على الدولة وعلى القادرين فى الأمة ، فرضاً يعاقب عليه فى الآخرة ويقاتل عليه فى الدنيا (وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام على التكافل الاجتماعى فى الإسلام) . ثم ينهى عن الاستجداء فيصف جماعة من المسلمين الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ؛ وصف استحسان بأنهم : « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا »[1] . والنبى صلى الله عليه وسلم يعطى سائلا درهماً ثم يقول : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه[2] » ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى »[3] .فيحض على الاستغناء بوسائل أخرى غير وسيلة الاستجداء التى يراها الإسلام ضرورة مكروهة . أما أموال الزكاة فهى حق : حق يؤخذ ، لا فضل يعطى : « وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » .[4] . حق تأخذه الدولة فتملكه لأصحابه ، وتنفق منه فى مصالح المسلمين بما يدفع حاجة الجسد ، ويحفظ كرامة النفس ، ويصون عزة الوجدان . فإن لم يكف شرعت من الفرائض والوظائف فى أموال القادرين والأغنياء بقدر ما يسد حاجة الضعفاء والفقراء (وسيأتى بيان هذا فى فصل سياسة المال) .

* * *

وكذلك يأخذ الإسلام الأمر من وجوهه كلها ، ومن مناحيه جميعاً ، فيكفل التحرر الوجدانى تحرراً مطلقاً ، لا يقوم على المعنويات وحدها ، ولا على الاقتصاديات وحدها ، ولكن يقوم عليهما جميعا . فيعرف للحياة واقعها ، وللنفس طاقتها ؛ ويستثير فى الطبيعة البشرية غاية أشواقها وأعلى طاقاتها ؛ ويدفع بها إلى التحرر الوجدانى كاملا صريحاً .فبغير

---

(١) سورة البقرة : [٢٧٣] .
(٢) الشيخان واللفظ للبخارى .
(٣) الشيخان .
(٤) سورة الذاريات : [١٩] .

التحرر الكامل لن تقوى على عوامل الضعف والخضوع والعبودية ؛ ولن تتطلب نصيبها من العدالة الاجتماعية ؛ ولن تصبر على تكاليف العدالة حين تعطاها .

وهذا التحرر هو أحد الأسس الركينة لبناء العدالة الاجتماعية فى الإسلام . بل هو الركن الأول الذى تقوم عليه الأركان .

المساواة الإنسانية

إذا استشعر الضمير كل هذا التحرر الوجدانى ؛ تخلص من كل ظل للعبودية إلا لله ، وأمن الموت والأذى والفقر والذل إلا بإذن الله ؛ وانفلت من ضغط القيم الاجتماعية والمالية ؛ ونجا من ذل الحاجة والمسألة ؛ وتسامى على شهواته ومطامعه ؛ وتوجه إلى الخالق الواحد الأحد الذى يتوجه له الجميع بلا استثناء ولا استعلاء ؛ ووجد بعد ذلك كله كفايته من ضرورات الحياة مكفولة له بحكم التشريع والنظام . .

إذا استشعر الضمير البشرى هذ كله ووجد من الضمانات الواقعية والقانونية مايؤكد فى نفسه هذا الشعور ، فلن يكون فى حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظاً وقد استشعرها فى أعماقه معنى ، ووجدها فى حياته واقعاً ؛ بل لن يصبر على التفاوت القائم على تلك القيم إطلاقاً . سيطلب حقه فى المساواة ؛ وسيجاهد لتقرير هذا الحق ، وسيحتفظ به حين يناله ؛ ولن يقبل منه بديلا ؛ وسيصبر على تكاليف الاحتفاظ به ، والذياد عنه ، مهما بذل فى ذلك من جهد وتضحية .

ولن يكون الفقير والضعيف وحدهما الحريصين على مبدأ المساواة النابع من الضمير ، المصون بالتشريع ، المكفول بالاكتفاء وحرية النشاط والارتزاق ؛ بل إن الغنى والقوى سينزلان عنده بحكم استشعار ضميرهما تلك المعانى ،التى حرص الإسلام على تقريرها وتثبيتها

فيما أسلفنا . . وذلك ماوقع بالفعل فى المجتمع الإسلامى قبل أربعة عشر قرناً ؛ مما سيأتى فى موضعه فى هذا الكتاب .

ولكن الإسلام مع ذلك لم يكتف بالمفهومات الضمنية المستفادة من التحرر الوجدانى، فقرر مبدأ المساواة باللفظ والنص ، ليكون كل شيء واضحاً مقرراً منطوقاً . وفى الوقت الذى كان بعضهم يَدَّعى ويُصَدَّق أنه من نسل الآلهة ، وبعضهم يدعى ويُصدَّق أن الدماء التى تجرى فى عروقه ليست من نوع دماء العامة ، إنما هو الدم الأزرق الملوكى النبيل ! وفى الوقت الذى كانت بعض الملل والنحل تفرق الشعوب إلى طبقات خلق بعضها من رأس الإله فهى مقدسة ، وخلق بعضها من قدميه فهى منبوذة ! وفى الوقت الذى كان الجدل يدور حول المرأة : أهى ذات روح أم لا روح فيها ! وفى الوقت الذى كان يباح فيه للسيد أن يقتل عبيده ويعذبهم ، لأنهم من نوع آخر غير نوع السادة ...

فى هذا الوقت جاء الإسلام ليقرر وحدة الجنس البشرى فى المنشأ والمصير ، فى المحيا والممات ، فى الحقوق والواجبات ، أمام القانون وأمام الله ، فى الدنيا وفى الآخرة ، لا فضل إلا للعمل الصالح ، ولا كرامة إلا للأتقى .

لقد كانت وثبة بالإنسانية لم يعرف التاريخ لها نظيراً ؛ ولا تزال إلى هذه اللحظة قمة لم يرتفع إليها البشر أبداً . بل لقد كانت نشأة أخرى للبشرية يولد فيها «الإنسان» الأسمى! الأمر الذى تراجعت عنه البشرية ، ولم تبلغ إليه أبدا إلا فى ظل هذا المنهج الربانى .

كلا لم ينسل الإله أحداً : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصمدُ ، لم يلدْ ولم يُولَدْ ، ولم يَكُنْ لهُ كُفواً أحد » .. « وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحمَانُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْه ؛ وَتنشَقُّ الأَرْضُ، وَتَخِرُّ الجبَالُ هَدّا : أَنْ دَعَوْا للرحمَانِ وَلداً. وَمَا يَنْبَغِى للرَّحمَانِ أَنْ يَتخذ وَلداً . إنْ كلُّ مَنْ فِى السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إلَّا آتِى الرَّحمَانِ

عَبْداً . لَقَدْ أَحْصَاهُم وعدَّهم عَدًّا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً [1] » .

ثم كلا ! ليس هنالك من دم أزرق ، ودم عادى ؛ وما خلق أحد من رأس وخلق آخر من قدم : « أَلَم نَخْلُقْكُمْ من مَاءٍ مَهِينٍ فجعلناهُ فى قَرَارٍ مَكِينٍ . إلى قَدَرٍ معلومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ [2] ؟ » . « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ [3] » . « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً . وَمَا تَحْمِلُ مِن أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ؛ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ . إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [4] » .. « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ؛ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [5] » .

ويمضى القرآن يكرر هذا المعنى فى مواضع كثيرة ، ليقر فى خلد « الإنسان » وحدة أصله ونشأته : الجنس كله من تراب ، والفرد ـ كل فرد ـ من ماء مهين ، ويكرر النبى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى فى أحاديثه : أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب [6] » كما يزيد استقرارا فى المشاعر والأخلاد .

فإذا انتفى أن يكون فرد أفضل بطبيعته من فرد ؛ فليس هنالك من جنس وليس هنالك من شعب ، هو بنشأته وعنصره أفضل ـ كما لا يزال بعض الأجناس إلى هذه اللحظة يتشدق ـ كلا . « يا أَيُّهَا الناسُ اتَّقُوا ربَّكم الذى خَلَقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها

---

(١) سورة مريم : [٨٨ـ٩٥] .
(٢) سورة المرسلات : [٢٠ـ٢٣] .
(٣) سورة الطارق : [٥ـ٧] .
(٤) سورة فاطر : [١١] .
(٥) سورة المؤمنون : [١٢ـ١٤] .
(٦) مسلم وأبو داود .

زوجَها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً [1] » . . فهى نفس واحدة وزوجها منها ، ومنهما انبث الرجال والنساء . فهم من أصل واحد ، وهم إخوة فى النسب ، وهم متساوون فى الأصل والنشأة : « ياأيهَا النَّاسُ إنّا خَلَقْنَا كُمْ من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أَتْقَا كُمْ [2] » .. فليست هذه الشعوب والقبائل لتتفاخر أو تتناكر ، بل لتتعارف وتتآلف . وكلها عند الله سواء ، لا تتفاضل إلا بالتقوى . وتلك مسألة أخرى لا علاقة لها بالأصل والنشأة ، ذلك أن الناس كلهم سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . . وأول التقوى الإسلام لله وحده . وإلا فلا تقوى ولا صلاح أصلا .

ولقد برئ الإسلام من العصبية القبلية والعنصرية ـ إلى جانب براءته من عصبية النسب والأسرة . فبلغ بذلك مستوى لم تصل إليه « الحضارة » الغربية إلى يومنا هذا . الحضارة التى تبيح للضمير الأمريكى إفناء عنصر الهنود الحمر إفناء منظماً تحت سمع الدول وبصرها ، كما تبيح له تلك التفرقة النكدة بين البيض والسود ، وتلك الوحشية البشعة . والتى تبيح لحكومة جنوب إفريقيا أن تجهر بالقوانين العنصرية ضد الملونين ، وتبيح لحكومات روسيا والصين والهند والحبشة ويوغسلافيا وغيرها إفناء المسلمين بالجملة !

* * *

ويتعقب الإسلام مظان التفاوت والتفاضل ـ إلا بالتقوى والعمل الصالح ـ فى كل صورها وملابساتها وأسبابها ، ليقضى عليها جميعاً . فهذا النبى محمد ، ما يفتأ القرآن يذكر الناس أنه بشر كسائر البشر ، وما يفتأ محمد ذاته يكرر هذا المعنى ، أن كان نبياً محبوباً من قومه مبجلا ، نخيف أن ينقلب ذلك الحب وهذا التبجيل إلى تأليه أو قدسية

---

(١) سورة النساء : [١] .
(٢) سورة الحجرات : [١٣] .

لا تكون إلا لله . فها هو ذا يقول لقومه : « لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله[1] » ويقول وقد خرج على جماعة فوقفوا له تبجيلاً « من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار[2] » .

ولما كان أهل محمد مظنة أن يقدسوا نبهم النبيّ صلى الله عليه وسلّم إلى أنه لا يملك لهم من الله شيئاً : « يا معشر قريش لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً . ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً . وياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . . .[3] » .

وحين أصابت محمداً الإنسان لحظة حرص بشرى ، فانصرف عن الرجل الفقير ابن أم مكتوم إلى الوليد بن المغيرة سيد قومه ، عاجله العتاب الشديد الذى يشبه التأنيب ، ليرد للمساواة المطلقة معاييرها الكاملة .

وحين كان بعض ذوى الثراء والأنساب يأنف أن يزوّج أو يتزوّج من الفقراء والفقيرات جاء أمر الله : « وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى منكُمْ ، والصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وإمائِكم إن يكونوا فقراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ منْ فَضلِهِ ، واللهُ وَاسعٌ عَليمٌ »[4] . .

* * *

فأما بين الجنسين فقد كفل للمرأة مساواة تامة مع الرجل من حيث الجنس والحقوق الإنسانية ؛ ولم يقرّر التفاضل إلا فى بعض الملابسات المتعلقة بالاستعداد أو الدربة أو التبعة ، مما لا يؤثر على حقيقة الوضع الإنسانى للجنسين ؛ فحيثما تساوى الاستعداد والدربة والتبعة تساويا ، وحيثما اختلف شيء من ذلك كان التفاوت بحسبه .

(١) البخارى .
(٢) أبو داود والترمذى .
(٣) متفق عليه .
(٤) سورة النور [٣٢] .

فنى الناحية الدينية والروحية يتساويان : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهوَ مُؤْمِنٌ ، فأُولئك يدخلونَ الجنَّةَ ولا يُظْلمون نقيرا[1] » . . . « من عملَ صالحًا من ذكرٍ أَوْ أُنثى وهو مؤمن ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طيِّبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أجرهم بأَحسن ما كانوا يعملونَ[2] » . . « فاستجاب لهم ربهم أَنِّى لا أُضيعُ عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أُنثى ؛ بعضُكم من بعض[3] » .

وفى ناحية الأهلية للملك والتصرف الاقتصادى يتساويان : « للرِّجال نصيبٌ مِمَّا ترك الوالِدَانِ والأقربون ، وللنِّسَاءِ نصيبٌ مِمَّا ترك الوالِدَانِ والأقربون[4] » . . « للرِّجال نصيبٌ مِمَّا اكتسبوا وللنِّساءِ نصيبٌ مِمَّا اكتسبن[5] » ..

فأما إيثار الرجل بضعف نصيب المرأة فى الميراث ، فمردُّهُ إلى التبعة التى يضطلع بها الرجل فى الحياة ؛ فهو يتزوج امرأة يكلف إعالتها ، وإعالة أبنائهما ، وبناء الأسرة كله هو مكلف به وعليه وحده تبعة الديات والتعويضات . فمن حقه أن يكون له مثل حظ الأنثيين لهذا السبب وحده . بينما هى مكفولة الرزق إن تزوجت ، بما يعولها الرجل ، ومكفولة الرزق إن عنست أو ترملت ، بما ورثت من مال ، أو بكفالة قرابتها من الرجال . فالمسألة هنا مسألة تفاوت فى التبعة اقتضى تفاوتًا فى الإرث .

وأما أن الرجل قوام عليها : « الرِّجالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بما فضَّلَ الله بعضهم عَلَى بعض وبما أَنفقُوا منْ أموالهم[6] » فوجه التفضيل هو الاستعداد والدربة والمرانة فيما يختص بالقوامة . فالرجل بحكم تخلصه من تكاليف الأمومة يواجه أمور المجتمع فترة أطول ، ويتهيأ لها بقواه الفكرية جميعًا ، بينما تحتجز هذه التكاليف المرأة معظم أيامها ؛

(١) سورة النساء : [١٢٤] .
(٢) سورة النحل : [٩٧] .
(٣) سورة آل عمران : [١٩٥] .
(٤) سورة النساء : [٧] .
(٥) سورة النساء : [٣٢] .
(٦) سورة النساء : [٣٤] .

فوق أن تكاليف الأمومة تنمى فى المرأة جانب العواطف والانفعالات ، بقدر ما ينمو فى الرجل جانب التأمل والتفكير ، فإذا جعلت له القوامة على المرأة فبحكم الاستعداد والدربة لهذه الوظيفة ، فوق أنه المكلف بالإنفاق ؛ وللناحية المالية صلة قوية بالقوامة ؛ فهو حق مقابل تكليف ، ينتهى فى حقيقته بالمساواة بين الحقوق والتكاليف فى محيط الجنسين ومحيط الحياة .

فأما حين يرد الأمر إلى الدائرة الإنسانية المجردة من ملابسات الوظائف العملية ، فللمرأة من حق الرعاية أكثر مما للرجل . وهو الحق الذى يقابل حق القوامة : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من؟ قال : أمك . قال : ثم من؟ قال : أمك . قال : ثم من؟ قال : أبوك[1] » .

ولقد يبدو أن هناك تفضيلا آخر فى مسألة الشهادة : « واسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رجالكم ، فإنْ لم يكُونا رجُلَيْنِ فرجلٌ وامْرأتان ممّن تَرْضَوْنَ من الشُّهداء ، أن تضِلَّ إحداهما فتُذَكِّرَ إحداهما الأخرى[2] » . . وفى الآية نفسها بيان العلة . فالمرأة بطبيعة وظائف الأمومة ينمو فى نفسها جانب العواطف والانفعالات بقدر ما ينمو فى الرجل جانب التأمل والتفكير كما أسلفنا . فإذا نسيت أو جرفها انفعال ، كانت الثانية مذكرة لها . فالمسألة هنا مسألة ملابسة عملية فى الحياة ، لا مسألة إيثار جنس لذاته على جنس وعدم مساواة .

وحسب الإسلام ما كفل للمرأة من مساواة دينية ، ومن مساواة فى التملك والكسب؛ وما حقق لها من ضمانات فى الزواج بإذنها ورضاها ، دون إكراه ولا إهمال : «لا تنكح الثيب حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها الصموت »[3] . وفى مهرها : «فآتُوهُنَّ

(١) الشيخان . (٢) سورة البقرة : [٢٨٢] . (٣) الشيخان .

أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً » (١) .. وفى سائر حقوقها الزوجية ، زوجة أو مطلقة : « فأمسكُوهُنَّ بمعروفٍ أو سَرِّحُوهُنَّ بمعروفٍ ، ولا تمسكوهُنَّ ضِرارا لِتَعْتَدُوا » (٢) .. « وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » (٣) .

ويجب أن نذكر أن الإسلام ضمن للمرأة هذه الحقوق ، ووفر لها كل هذه الضمانات بروح تكريمية خالصة ، ليست مشوبة بضغط الاقتصاديات والماديات . فلقد حارب فكرة أن المرأة عالة يحسن التخلص منها وهى وليدة ؛ فحارب عادة الوأد التى كانت معروفة فى حياة بعض القبائل العربية حربا لا هوادة فيها ؛ وعالج هذه العادة بنفس الروح التكريمية الخالصة التى ينظر بها إلى البشر ، فنهى نهى تحريم عن القتل عامة لم يستثن : « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حرَّم اللهُ إلَّا بالحقِّ (٤) » .. ونهى بالتخصيص عن قتل الأولاد ــ وما كان يقتل من الأولاد سوى الإناث : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خشيةَ إِمْلَاقٍ . نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ (٥) » .. وقدم رزق الأولاد فى هذه الآية لأنهم سبب الخشية من الإملاق ، ليملأ صدور الآباء ثقة برزق الله وكفالته للأولاد قبل الآباء ! ثم استجاش وجدان العدل والرحمة وهو يقول عن يوم القيامة : « وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ : بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ (٦) » .. فجعل هذا موضع سؤال استنكارى بارز ظاهر فى ذلك اليوم الرهيب .

فالإسلام إذن حين منح المرأة حقوقها الروحية والمادية كان ينظر إلى صفتها الإنسانية ، ويسير مع نظرته إلى وحدة الإنسان : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا (٧) » .. وكان يريد رفعها إلى حيث يجب أن يكون شطر « النفس » الواحدة .

---

(١) سورة النساء : [٢٤] . (٢) سورة البقرة : [٢٣١] . (٣) سورة النساء : [١٩] .
(٤) سورة الأنعام : [١٥١] . (٥) سورة الإسراء : [٣١] . (٦) سورة التكوير : [٨-٩] .
(٧) سورة الأعراف [١٨٩] .

ويجب إذ نذكر هـذا للإسلام ، أن نذكر بجانبه أن الحرية التى منحها الغرب المـادى للمرأة لم تفض من هذا النبع الـكريم ولم تـكن دوافعها هى دوافع الإسلام البريئـة .

ويحسن ألا ننسى التاريخ ؛ وألا نفتن بالقشور الخادعة التى تعاصرنا اليوم . يحسن أن نذكر أن الغرب أخرج المرأة من البيت تعمل ، لأن الرجل هناك نكل عن كفالتها وإعالتها ، إلا أن يقتضيها الثمن من عفتها وكرامتها !

عندئذ فقط اضطرت المرأة أن تعمل !

ويحسن أن نذكر أنها حين خرجت للعمل انتهز الغرب المـادىّ حاجتها ؛ واستغل فرصة زيادة العرض ليرخص من أجرها ؛ واستغنى أصحاب الأعمال بالمرأة الرخيصة الأجر عن العامل الذى بدأ يرفع رأسه ويطالب بأجر كريم !

وحين طالبت المرأة هناك بالمساواة ، كانت تعنى أولا وبالذات المساواة فى الأجور لتأكل وتعيش ! فلما لم تستطع هذه المساواة طالبت بحق الانتخاب ليـكون لها صوت يحسب حسابه ؛ ثم طالبت بدخول البرلمانات ليـكون لها صوت إيجابى فى تقرير تلك المساواة ! لأن القوانين التى تحـكم المجتمع يسنها الرجل وحده ؛ وليست — كما هى فى الإسلام — من شرع الله ، الذى يعدل بين عباده رجالا ونساء .

ويحسن ألا ننسى أن فرنسا ظلت إلى عهد الجمهورية الرابعة بعد الحرب الأخيرة لا تمنح المرأة حق التصرف فى مالها — كما يمنحها الإسلام ذلك — إلا بإذن وليها ، على حين منحتها حق الدعارة كاملا بصفة علنية أو سرية ! وهذا الحق الأخير هو الحق الوحيد الذى حرمه الإسلام المرأة ! لأنه حرمه للرجـل كذلك ، رعاية لـكرامة الإنسان وشعوره ، ورفعاً لمستوى العلاقات الجنسية أن تـكون علاقة أجساد لا تربطها رابطة من بيت ولا أسرة .

ويجب حين نرى الغرب المادى يقدم المرأة اليوم فى بعض الأعمال على الرجل، وبخاصة فى المتاجر والسفارات والقنصليات وفى الأعمال الإخبارية كالصحافة ونحوها .. يجب ألا نغفل عن المعنى الكريه الخبيث فى هذا التقديم . إنه معنى النخاسة والرقيق فى جو من دخان العنبر والأفيون ! إنه استغلال للحاسة الجنسية فى نفوس « الزّبائن » . فصاحب المتجر ، كالدولة التى تعين النساء فى السفارات والقنصليات ، كشركة السياحة التى تعين مضيفات ، كصاحب الجريدة الذى يدفع بالمرأة إلى التقاط الأحاديث والأخبار ، كل منهم يدرك فيم يستخدم المرأة ؛ ويعرف كيف تحصل المرأة على النجاح فى هذه الميادين ؛ ويعلم ماذا تبذل للحصول على هذا النجاح ! فإن لم تبذل هى شيئاً — وهو فرض بعيد — فهو يدرك أن شهوات جائعة ، وعيوناً خائنة ، ترف حول جسدها وحول حديثها ؛ وهو يستغل ذلك الجوع للكسب المادى والنجاح الصغير ! لأن المعانى الإنسانية الكريمة منه بعيد بعيد !

فأما الشيوعية فذات دعوى عريضة فى مساواة المرأة بالرجل ، وتحطيم الأغلال التى تقيد المرأة ! والمساواة هى المساواة فى العمل والأجر . ومتى استوى العمل والأجر ، فقد تحررت المرأة وأصبح لها حق الإباحية كما هو حق للرجل ! لأن المسألة فى عرف الشيوعية لا تعدو الاقتصاد . فكل الدوافع البشرية ، وكل المعانى الإنسانية ، كامنة فى هذا العنصر وحده من عناصر الحياة !

والحقيقة فى صميمها هى نكول الرجل عن إعالة المرأة ، واضطرارها أن تعمل مثله وفى دائرته لتعيش ، فالشيوعية — بهذا — هى التكملة الطبيعية لروح الغرب المادية ، الفاقدة للمعانى الروحية فى حياة البشرية .

يجب أن نذكر هذا كله قبل أن يخدع أبصارنا الوهج الزائف . فالإسلام قد منح

المرأة من الحقوق منذ أربعة عشر قرناً ما لم تمنحه إياها « الحضارة » الغربية حتى اليوم .

وهو قد منحها - عند الحاجة - حق العمل وحق الكسب ؛ ولكنه أبقى لها حق الرعاية في الأسرة ، لأن الحياة عنده أكبر من المال والجسد ، وأهدافها أعلى من مجرد الطعام والشراب ؛ ولأنه ينظر إلى الحياة من جوانبها المتعددة ، ويرى لأفرادها وظائف مختلفة ، ولكنها متكافلة متناسقة . وبهذه النظرة يرى وظيفة الرجل ووظيفة المرأة ؛ فيوجب على كل منهما أن يؤدى وظيفته أولا لتنمية الحياة ودفعها إلى الأمام ؛ ويفرض لكل منهما الحقوق الضامنة لتحقيق هذا الهدف الإنسانى العام .

* * *

وأخيراً فإن للجنس البشرى كله كرامته ، التى لا يجوز أن تستذل : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً[1] » .. كرمناهم بجنسهم ، لا بأشخاصهم ولا بعناصرهم ولا بقبائلهم . فالكرامة للجميع على سبيل المساواة المطلقة ، فكلهم لآدم . وإذا كان آدم من تراب ، وإذا كان آدم قد كرم ، فأبناؤه جميعا سواء فى هذا وفى ذاك !

وللناس جميعاً - فى المجتمع المسلم - كراماتهم التى لا يجوز أن تلمز ، ولا أن يسخر منها أحد : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ، عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ . بِئْسَ الاسْمُ : الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »[2] .. والتعبير العميق الجميل : « ولا تلمزوا أنفسكم » . ذو دلالة عجيبة ، فلمز المؤمن للمؤمن هو لمزه لنفسه ، لأنهم كلهم من نفس واحدة !

---

(1) سورة الإسراء : [٧٠] . (٢) سورة الحجرات : [١١] .

وللناس جميعاً فى المجتمع المسلم حرماتهم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ؛ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (١) » .. « وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً (٢) » .

وقيمة هذا الإجراء هو إشعار كل فرد بأن له حرمة لا يجوز أن ينتهكها عليه الآخرون؛ ولا تقل حرمة أحد عن حرمة أحد ؛ فهم فيها سواء ، وهم جميعاً مؤمّنون ، فى المجتمع المسلم الذى يقوم على منهج الله وشرعه . فيكفل للناس فيه هذه الكرامة ، ويصون منهم هذه الحرمات .

* * *

وهكذا يتتبع الإسلام كل ناحية من حياة الناس الوجدانية والاجتماعية ، ليؤكد فيها معنى المساواة توكيداً . وما كان فى حاجة كما قلنا الآن يتحدث عن المساواة لفظاً وصورة، بعد ماحققها معنى وروحاً ،بالتحرر الوجدانى الكامل من جميع القيم ، وجميع الملابسات ،وجميع الضرورات، وكفل لها فى عالم الواقع كل الضمانات . ولكنه يحرص على المساواة حرصاً شديداً ، ويريدها إنسانية كاملة غير محدودة بعنصر ولا قبيلة ولا بيت ولا مركز ؛ كما يريدها أبعد مدى من دائرة الاقتصاديات وحدها ، مما وقفت عنده المذاهب المادية « العلمية » !

التكافل الاجتماعى

لا تستقيم حياة يذهب فيها كل فرد إلى الاستمتاع بحريته المطلقة إلى غير حد ولا مدى ، يغذيها شعوره بالتحرر الوجدانى المطلق من كل ضغط ، وبالمساواة المطلقة التى لا يحدها قيد ولا شرط ؛ فإن الشعور على هذا النحو كفيل بأن يحطم المجتمع كما يحطم الفرد ذاته.

---

(١) سورة النور : [٢٧-٢٨] . (٢) سورة الحجرات: [١٢].

فالمجتمع مصلحة عليا لا بد أن تنتهى عندها حرية الأفراد ؛ وللفرد ذاته مصلحة خاصة فى أن يقف عند حدود معينة فى استمتاعه بحريته ؛لـكى لا يذهب مع غرائزه وشهواته ولذائذه إلى الحد المردى ؛ ثم لـكى لا تصطدم حريته بحرية الآخرين ، فتقوم المنازعات التى لا تنتهى، وتستحيل الحرية جحيما ونكالا ؛ ويقف نمو الحياة وكمالها عند حدود المصالح الفردية القريبة الآماد . وذلك كالذى حدث فى « حرية » النظام الرأسمالى ، وما صاحبه من نظريات الحرية الحيوانية للشهوات !

والإسلام يمنح الحرية الفردية فى أجمل صورها ، والمساواة الإنسانيـة فى أدق معانيها ، ولـكنه لا يتركهما فوضى ، فللمجتمع حسابه ، وللإنسانيـة اعتبارها ، وللأهداف العليا للدين قيمتها . لذلك يقرر مبدأ التبعة الفردية ، فى مقابل الحرية الفردية، ويقرر إلى جانبها التبعة الجماعية التى تشمل الفرد والجماعة بتـكاليفها . وهـذا ما ندعوه بالتـكافل الاجتماعى .

والإسلام يقرر مبدأ التـكافل فى كل صوره وأشكاله . فهناك التـكافل بين الفرد وذاته ، وبين الفرد وأسرته القريبة ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الأمة والأمم ، وبين الجيل والأجيال المتعاقبة أيضا .

هناك تـكافل بين الفرد وذاته ، فهو مـكلف أن ينهى نفسه عن شهواتها ؛ وأن يزكيها ويطهرها ؛ وأن يسلك بها طريق الصلاح والنجاة ؛وألا يُلقى بها إلى التهلـكة : « فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا ، فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ، وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ[1] » .. « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا[2] » .

(١) سورة النازعات : [٣٧-٤١] . (٢) سورة الشمس : [٧-١٠] .

« وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »(1) وهو مكلف فى الوقت ذاته أن يمتع نفسه فى الحدود التى لاتفسد فطرتها ، وأن يمنحها حقها من العمل والراحة فلا ينهكها ويضعفها : « وابتغ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا(2) ».. « يا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(3) » .

والتبعة الفردية كاملة ، فكل إنسان وعمله ، وكل إنسان وما يكسب لنفسه من خير أو شر ، ومن حسنة أو سيئة ، ولن يجزى عنه أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(4) » .. « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى؛ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى(5) » .. « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ(6) ». « فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ،وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ »(7). « وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ(8) » .

وبذلك كله يقف الإنسان من نفسه موقف الرقيب ، يهديها إن ضلت ، ويمنحها حقوقها المشروعة ؛ ويحاسبها إن أخطأت ، ويحتمل تبعة إهماله لها . وبذلك يقيم الإسلام من كل فرد شخصيتين ، تتراقبان وتتلاحظان ، وتتكافلان فيما بينهما فى الخير والشر ، فى مقابل منح هذا الفرد التحرر الوجدانى الكامل ، والمساواة الإنسانية التامة . فالحرية والتبعة تتكافآن وتتكافلان .

* * *

---

(1) سورة البقرة : [١٩٥] .
(2) سورة القصص : [٧٧] .
(3) سورة الأعراف : [٣١] .
(4) سورة المدثر : [٣٨] .
(5) سورة النجم : [٣٦-٤١] .
(6) سورة البقرة : [٢٨٦] .
(7) سوررة الزمر : [٤١] .
(8) سورة النساء : [١١١] .

وهناك تكافل بين الفرد وأسرته القريبة : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ، وَلَا تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ : رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا [(1)] » « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ »[(2)] . « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ »[(3)] . . « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ، لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ [(4)] » .

وقيمة هذا التكافل فى محيط الأسرة أنه قوامها الذى يمسكها ؛ والأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، ولامفر من الاعتراف بقيمتها ؛ وهى تقوم على الميول الثابتة فى الفطرة الإنسانية ، وعلى عواطف الرحمة والمودة ، ومقتضيات الضرورة والمصلحة ؛ كما أنها العش الذى تنشأ فيه وحوله مجموعة الآداب والأخلاق الخاصة بالجنس ، وهى فى صميمها آداب المجتمع الذى ارتفع عن الإباحية الحيوانية والفوضى الهمجية .

ولقد حاولت الشيوعية أن تقضى على الأسرة بحجة أنها تنمى أحاسيس الأثرة الذاتية ، وحب التملك ؛ وتمنع شيوعية الثروة ، وشيوعية ملكية الدولة للأفراد . . . ولكنها فيما يبدو قد فشلت فى هذا فشلا تاما ، فالشعب الروسى شعب عائلى ، وللعائلة مكانها فى نفسه وفى تاريخه ، فوق أن الأسرة نظام بيولوجى ونفسى لا نظام اجتماعى فحسب ، فتخصيص امرأة لرجل أصلح بيولوجيا وأفلح لإنجاب الأطفال . وقد لوحظ أن المرأة التى يتداولها عدة رجال تعقم بعد فترة معينة أو لا يصح نسلها . أما من الوجهة النفسية فمشاعر المودة والرحمة

(1) سورة الإسراء : [٢٣-٢٤] .
(2) سورة لقمان : [١٤] .
(3) سورة الأحزاب : [٦] .
(4) سورة البقرة : [٢٣٣] .

تنمو فى جو الأسرة خيراً مماتنمو فى أى نظام آخر ،وتـكوين الشخصية يتم فى هذا المحيط خيراً مما يتم فى أى نظام آخر . وقد أثبتت تجارب الحرب الأخيرة بين أطفال المحاضن، أن الطفل الذى تتناوب تربيته عدة حاضنات تختل شخصيته وتتفكك ، ولا تنمو فيه مشاعر الحب والتعاون ؛ كما أن الطفل الذى لا والد له يعانى مركب النقص ، ويهرب من هذا الواقع بتخيل والد لاوجود له ،يتصل به فى الخيال ، ويصوره فى شتى الصور والأشكال(١) .

وليست العوامل البيولوجية والنفسية وحدها ، فهناك مقتضيات الضرورة والمصلحة التى تربط بين رجل وامرأة لتكوين بيت ورعاية أطفال ، ثم العلاقات التى تربط بين أفراد الأسرة الواحدة ، وتجعل منهم وحدة اجتماعية متعاونة فى الخير والشر ، متكافلة فى الجهد والجزاء، جيلا بعد جيل .

ومن مظاهر التـكافل العائلى فى الإسلام ذلك التوارث المادى للثروة المفصل فى الآيات التاليات : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ . إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ ، وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ . آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا . فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ،وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ . مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ (٢) ».

---

(١) عن « أطفال بلا أسر » : تأليف أنا فرويد ودرثى برلنجهام وترجمة الأستاذين محمد بدران ورمزى يسى .

(٢) سورة النساء : [١١-١٢] .

« يَسْتَفْتُونَكَ . قُلِ : ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَالَةِ : إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ؛ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ . يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ »[1] ..

أما الوصية التى أشير إليها فى الآيتين الأوليين فهى لا تتجاوز الثلث بعد وفاء الدين ولا تكون لوارث، لحديث : « لا وصية لوارث[2] » . إنما شرعت لتدارك بعض الحالات التى لا يرث فيها من توجب الصلة العائلية أن يصله المورّث ويبره ؛ ولتكون مجالا لإنفاق شىء من التركة فى وجوه البر والخير .

هذا النظام الذى شرعه الإسلام مظهر من مظاهر التكافل بين أفراد الأسرة الواحدة ، وبين الأجيال المتتابعة ــ فوق أنه وسيلة من وسائل تفتيت الثروة لئلا تتضخم تضخما يؤذى المجتمع (وسنتحدث عن هذا فى فصل « سياسة المال ») أما هنا فنكتفى بالقول بأن فى نظام الإرث الإسلامى عدلا بين الجهد والجزاء ، وبين المغانم والمغارم فى جو الأسرة . فالوالد الذى يعمل ــ وفى شعوره أن ثمرة جهوده لن تقف عند حياته القصيرة المحدودة ، بل ستمتد لينتفع بها أبناؤه وحفدته ، وهم امتداده الطبيعى فى الحياة ــ هذا الوالد يبذل أقصى جهده ، وينتج أعظم نتاجه ؛ وفى هذا مصلحة له وللدولة وللإنسانية، كما أن فيه تعادلا بين الجهد الذى يبذله والجزاء الذى يلقاه . فأبناؤه جزء منه يشعر فيهم بالامتداد والحياة .

أما الأبناء فعدل أن ينتفعوا بجهود آبائهم وأمهاتهم ، إذ الصلة بين الوالدين والأبناء لا تنقطع لو قطعت صلة الميراث المالى ؛ فالآباء والأمهات يورثونهم صفات واستعدادات

---

(١) سورة النساء : [١٧٦] (٢) رواه صاحب مصابيح السنة وقال : إنه حسن .

فى تكوينهم الجثمانى ، والعقلى ؛ وهذه الاستعدادات تلازمهم فى حياتهم ، وتفرض عليهم كثيراً من أوضاع مستقبلهم ـ إن خيراً وإن شراً ـ دون أن تكون لهم يد فى رد هذه الوراثة أو تعديلها . ومهما جاهدت الدولة أو جاهد المجتمع فلن يهب طفلا وجهاً جميلا إذا ورّثه أبواه وجهاً قبيحاً ؛ ولن يمنحه سلامة أعصاب ، واعتدال مزاج ، إذا ورثاه اختلالا واضطراباً ؛ ولن يعطيه عمراً طويلا وصحة موفورة ، إذا وَرَّثاه استعدادات للبلى السريع والمرض الملازم . . . فإذا كان عليه أن يرث هذا كله غير مخيَّر ، فإنه من العدل الاجتماعى أن يرث جهود أبويه المادية أيضا ، ليكون هناك شىء من التعادل بين المغانم والمغارم !

وقد ضرب القرآن مثلاً للتكافل بين الآباء والأبناء فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع عبدالله الصالح الذى قال الله عنه : «فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رَحْمَة من عندنا وعلّمناه من لَدُنَّا عِلْماً » .. « فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ » . وقد قال له موسى : « لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً »[1] . مادام أهل القرية لم يطعموهما . فكشف له عن السرّ فى تقويمه للجدار فقال : « أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي »[2] .

وهكذا انتفع الولدان بصلاح الوالد ، وورثا ما خلفه لهما من مال وصلاح . وهذا عدل وحق لا شك فيه .

فأما حين يخشى من حبس المال فى محيط خاص ، فالوسيلة موجودة فى يد الإمام

(١) سورة الكهف : [٧٧] . (٢) سورة الكهف : [٨٢] .

المسلم الحاكم بشريعة الله لتعديل الأوضاع ؛ والإسلام يكفل هذا التعديل بوسائله الخاصة كما سيجيء فى فصل « سياسة المال » .

* * *

وهناك تكافل بين الفرد والجماعة ، وبين الجماعة والفرد ، يوجب على كل منهما تبعات ؛ ويرتب لكل منهما حقوقا . والإسلام يبلغ فى هذا التكافل حد التوحيد بين المصلحتين ، وحد الجزاء والعقاب على تقصير أيهما فى النهوض بتبعاته فى شتى مناحى الحياة المعنوية والمادية على السواء .

فكل فرد مكلف أولا أن يحسن عمله الخاص . وإحسان العمل عبادة لله ، لأن ثمرة العمل الخاص ملك للجماعة وعائدة عليها فى النهاية : « وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ [1] » .

وكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة كأنه حارس لها ، موكل بها . والحياة سفينة فى خضم ، والراكبون فيها جميعاً مسؤولون عن سلامتها ؛ وليس لأحد منهم أن يخرق موضعه منها باسم الحرية الفردية : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا مرّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » [2] .

وهو تصوير بديع لتشابك المصالح وتوحدها ، بإزاء التفكير الفردى الذى يأخذ بظاهر المعانى النظرية ، ولا يفكر فى آثار الوقائع العملية ؛ ورسم دقيق لواجب الفرد وواجب الجماعة فى مثل هذه الأحوال .

---

(١) سورة التوبة : [١٠٥] .　　(٢) البخارى والترمذى واللفظ للبخارى .

وليس هنالك فرد معفى من رعاية المصالح العامّة ، فكل فرد راعٍ ورعية فى المجتمع : « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته »[(١)] .

والتعاون بين جميع الأفراد واجب لمصلحة الجماعة فى حدود البرّ والمعروف : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ »[(٢)] .. « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ[(٣)] » .

وكل فرد مسؤول بذاته عن الأمر بالمعروف ، فإن لم يفعل فهو آثم وهو معاقب بإثمه : « خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ؛ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ ٱلْعَظِيمِ ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ، فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ؛ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَاطِئُونَ »[(٤)] . وعدم الحض على طعام المسكين يُعَدُّ علامةً من علامات الكفر والتكذيب بالدين : « أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ؟ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ[(٥)] » .

وكل فرد مكلف أن يزيل المنكر الذى يراه : « مَن رأى منكم مُنْكَراً فليغيِّرْه بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أَضعَف الإيمان »[(٦)] . وهكذا يصبح كل فرد مسؤولا عن كل منكر يقع فى الأمة ولو لم يكن شريكا فيه ، فالأمة وحدة ، والمنكر يؤذيها ، وعلى كل فرد أن يذود عنها ويحميها .

والأمة كلها تؤاخَذ وينالها الأذى والعقاب فى الدنيا والآخرة إذا سكتت عن وقوع المنكر فيها من بعض بنيها ، فهى مكلفة أن تكون قوّامة على كل فرد فيها : « وَإِذَا أَرَدْنَا

---

(١) الشيخان .
(٢) سورة المائدة : [٢] .
(٣) سورة آل عمران : [١٠٤] .
(٤) سورة الحاقة : [٣٠-٣٧] .
(٥) سورة الماعون : [١-٣] .
(٦) مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً »[1]
ولو كان فيها الكثيرون لم يفسقوا ، ولكن سكوتهم على الفسق جعلهم مستحقين للتدمير « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »[2] .. وما فى هذا ظلم ، فالأمة التى تشيع فيها الفاحشة ، ويجهر فيها بالمنكر فلا تغيره ، أمة منحلة متهافتة ، صائرة إلى الزوال ؛ والدمار الذى يصيبها أمر طبيعى ، ونتيجة لازمة .

ولقد استحق بنو إسرائيل اللعنة على لسان أنبيائهم ، ودالت دولتهم ، وذهبت ريحهم ، لأنهم لم يكونوا يغيرون المنكر ولم يكونوا يتناهون عنه : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[3] » . وفى الحديث : « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ؛ فجالسوهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ؛ ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم (ثم جلس وكان متكئاً فقال) : « لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً[4] » . فأما المؤمنون حقاً فهم الذين يقول عنهم القرآن : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ[5] » .

وقد فهم بعضهم من آية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ[6] » .. أنها تجيز السكوت عن رد المنكر وتغييره ، فنبههم أبو بكر رضى الله عنه إلى سوء فهمهم لها قال :

« يا أيها النَّاسُ إنكم تقرأون هذه الآية . . . وإنكم تضعونها على غير موضعها ،

---

(١) سورة الإسراء : [١٦] .
(٢) سورة الأنفال : [٢٥] .
(٣) سورة المائدة : [٧٨-٧٩] .
(٤) أبو داود والترمذى .
(٥) سورة التوبة [٧١] .
(٦) سورة المائدة : [١٠٥] .

وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » . وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما مِن قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب[1] » .

وهذا هو التفسير الصحيح الذى ينطبق على منهج الإسلام . والذى يجعل من الأمة المسلمة وحدة واحـدة ، متكافلة فيما بينها ؛ لا يضرها أن يضل الناس إذا استقامت هى على الهدى ؛ ما أدت واجبها فى دفع المنكر وتغييره جهد طاقتها .

والأمة مسئولة عن حمـاية الضعفاء فيها ؛ ورعاية مصالحهم وصيانتها ، فعليهـا أن تقاتل عند اللزوم لحمايتهم: « وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ؟[2] ».. وعليها أن تحفظ لهم أموالهم حتى يرشدوا : « وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا . وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ . فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً[3] » . . وفى الحديث : « السَّاعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، أو القائم الليل ، الصَّائم النهار »[4] :

وهى مسئولة عن فقرائها ومعوزيها أن ترزقهم بما فيه الكفاية ؛ فتتقاضى أموال الزكاة وتنفقها فى مصارفها ؛ فإذا لم تكف فرضت على القادرين بقدر ما يسد عوز المحتاجين ، بلا قيد ولا شرط إلا هذه الكفاية . فإذا بات فرد واحد جائعاً فالأمة كلها تبيت آثمة ما لم تتحاض على إطعامه : « كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ

(١) أبو داود والترمذى . (٢) سورة النساء : [٧٥] . (٣) سورة النساء : [٦] .
(٤) الشيخان والترمذى والنسائى .

ٱلْمِسْكِينِ ، وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا ، وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا . كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ، وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ . . يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ، يَقُولُ:يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي !فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ[1] » .. وفى الحديث « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى »[2] و « من كان معه فضلُ ظَهْرٍ فليعُدْ به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له »[3] . و « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ... وإن أربع فخامس أو سادس »[4] .

والأمة المسلمة كلها جسد واحد ، يحس إحساساً واحداً ، وما يصيب عضواً منه يشتكى له سائر الأعضاء . وهى صورة جميلة أخاذة يرسمها الرسول الكريم فيقول : « مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[5] . كما رسم للتعاون والتكافل بين المؤمن والمؤمن صورة أخرى معبرة دقيقة : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً[6] » . وذلك أسمى ما يتصوره الخيال للتعاون والتكافل فى الحياة .

وعلى هذا الأساس وضعت الحدود فى الجرائم الاجتماعية ،وشددت تشديداً. لأن التعاون لا يقوم إلا على أساس صيانة حياة كل فرد فى دار الإسلام وماله وحرماته : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله »[7] . . . لذلك شرع القصاص فى القتل والجروح جزاء وفاقا . وجعل جريمة القتل كجريمة الكفر فى العقوبة : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا[8] » . . « وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ

---

(١) سورة الفجر : [١٧-٢٦] .
(٢) المسند للامام أحمد بن حنبل نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر حديث رقم : [٤٨٨٠] .
(٣) مسلم وأبو داود . (٤) متفق عليه . (٥) متفق عليه . (٦) الشيخان .
(٧) الشيخان . (٨) سورة النساء : [٩٣] .

إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً » (١) . « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ » (٢) . . وحث على القصاص فجعله حياة للأمة : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (٣) . وإنه لحياة لما فيه من ضمان الحياة بالكف عن القتل ، وبما فيه من حفظ كيان الجماعة وحيويتها وتماسكها بوقف الثأر .

وشدد عقوبة الزنا لما فيه من اعتداء على العرض ، وعبث بالحرمة ، ونشر للفاحشة فى الجماعة ، ينشأ عنه تفككها بعد فترة ؛ وتدليس فى الأنساب ، وسرقة لعواطف الآباء بالبنوة المزورة !

شدد هذه العقوبة فجعلها للمحصن والمحصنة الرجم ، ولغير المحصنين والمحصنات الجلد ، وهو متلف فى أحيان كثيرة : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ » (٤) .

وجعل العقوبة ثمانين جلدة للذين يرمون المحصنات المؤمنات الغافلات ويفترون عليهن ، ويلوثون أعراضهن كذباً ، لأن جريمة الإفك هنا قريبة من جريمة الزنا ، فهى اعتداء على السمعة والعرض ، ومثار للعداوة والبغضاء ، وإشاعة للفاحشة بالسماع : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً (٥) » .

وشدد عقوبة السرقة لما فيها من اعتداء على أمن الناس ـ فى دار الإسلام ـ وطمأنينتهم والثقة المتبادلة بينهم ؛ فجعلها قطع اليد : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ (٦) » .

(١) سورة الإسراء : [٣٣] .
(٢) سورة المائدة [٤٥] .
(٣) سورة البقرة : [١٧٩] .
(٤) سورة النور : [٢] .
(٥) سورة النور : [٤] .
(٦) سورة المائدة : [٣٨] .

ولقد يستفظع بعضهم هذه العقوبة اليوم حين يقيسها إلى سرقة مال من فرد ؛ ولكن الإسلام إنما نظر فيها إلى أمن الجماعة وسلامتها وتضامنها ؛ كما نظر إلى طبيعة ظروفها وإلى الغرض منها ؛ فهي جريمة تتم في الخفاء ، وجرائم الخفاء في حاجة إلى تشديد العقوبة ليعدل عنها مرتكبها ، أو ليترك من اضطرابه وخوفه من العقوبة دليلا عليه وعليها . وهي جريمة يرتكبها صاحبها ليزيد كسبه من الحرام ؛ فلوحظ أن تكون العقوبة ــ وهي قطع اليد ــ من شأنها تعجيزه عن الكسب الذي يزيده بهذه الوسائل المحرمة .

على أن هذه العقوبة الحازمة لا تنفذ إذا كانت السرقة اضطرارية لدفع غائلة الجوع عن النفس أو الأولاد . فالقاعدة العامة : أن لا حرج على المضطر : « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلَا عادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ [1] » والحد يدرأ بالشبهة : « ادرأوا الحدود بالشبهات »[2] والجوع شبهة ؛ وعلى هذا جرى عمر في خلافته كما سيجيء[3] .

أما الذين يهددون أمن الجماعة العام ــ في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ــ فجزاؤهم التقتيل أو التصليب أو تقطيع الأيدي والأرجل أو النفي من الأرض : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ [4] » . لأن الائتمار والاجتماع على الإفساد والفتنة جريمة أكبر من الجرائم الفردية ، وأحق بالحسم وقسوة العقوبة .

* * *

وهكذا يفرض الإسلام التكافل الاجتماعي في كل صوره وأشكاله ، تمشيا مع نظرته

---

(١) سورة البقرة [١٧٣] .
(٢) رواه عبد الله بن عباس (كتاب الكامل لابن عدى) . وفي مسند أبي حنيفة للحارثي .
(٣) يراجع فصل الجريمة والعقاب في كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .
(٤) سورة المائدة : [٣٣] .

الأساسية إلى وحدة الأهداف الكلية للفرد والجماعة ؛ وفى تناسق الحياة وتكاملها . فيدع للفرد حريته كاملة فى الحدود التى لا تؤذيه ، ولا تأخذ على الجماعة الطريق ؛ ويجعل للجماعة حقوقها ، ويكلفها من التبعات فى الوقت ذاته كفاء هذه الحقوق ؛ لتسير الحياة فى طريقها السوى القويم ، وتصل إلى أهدافها العليا التى يخدمها الفرد وتخدمها الجماعة سواء .

* * *

وعلى تلك الأسس الثلاثة : التحرر الوجدانى المطلق ، والمساواة الإنسانية الكاملة ، والتكافل الاجتماعى الوثيق ، تقوم العدالة الاجتماعية ، وتتحقق العدالة الإنسانية .

من داخل النفس يعمل الإسلام ، ومن أعماق الضمير يحاول الإصلاح ؛ ولكنه لا يغفل أبدا عن الواقع العملى فى محيط الحياة ؛ ولا عن حقيقة النفس البشرية، ومايعتورها من ارتفاع وهبوط ، وتطلع وانكماش ، وأشواق طائرة وضرورات مقيدة ، وطاقة محدودة ، على كل حال ، دون الكمال المطلق فى جميع الأحوال .

وعلى قدر علمه العميق بأغوار النفس البشرية يشرع ويوجه ؛ ويصوغ أوامره ونواهيه ؛ويضع حدوده وينفذها ، ثم يهتف للضمير البشرى أن يتسامى فوق التكاليف المفروضة ما استطاع .

والحياة تصبح ممكنة وصالحة إذا نحن نفذنا التكاليف المفروضة فى هذا الدين ؛ولكن النفس المسلمة تظل تعرج فى معارج الكمال بما يوجه إليه الضمير البشرى من تسامح وارتفاع وتسام ؛ فالتوجيه الوجدانى فى هذا الدين هو الجزء المكمل للتكليف المفروض فيه ؛ ثم هو الكفيل بتنفيذ هذا التكليف عن طواعية ورضى وإقبال ، وبمنح الحياة البشرية قيمتها الإنسانية الكريمة المترفعة عن القيود والضرورات، وعن ضغط القانون ، ودفع التكليف أيضا .

وحينما حاول الإسلام أن يحقق العدالة الاجتماعية كاملة ارتفع بها عن أن تكون عدالة اقتصادية محدودة ، وأن يكون التكليف وحده هو الذى يكفلها ؛ فجعلها عدالة إنسانية شاملة ، وأقامها على ركنين قويين : الضمير البشرى من داخل النفس والتكليف القانونى فى محيط المجتمع ، وزاوج بين هذه القوة وتلك ، مثيراً فى الوجدان الإنسانى أعمق انفعالاته،

غير غافل عن ضعف الإنسان وحاجته إلى الوازع الخارجى كما يقول عثمان بن عفان : يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .

وكل من ينظر فى هذا الدين نظرة فاحصة منصفة يدرك الجهد الضخم الذى بذله لتهذيب النفس البشرية من جميع جوانبها وفى جميع اتجاهاتها وملابساتها . فهذا الدين هو الذى يجعل أقصى الثناء على نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يقول : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »[1] . فالخلق هو الدعامة الأولى لبناء المجتمع المتماسك الركين ، ولاتصال الأرض بالسماء ، والفناء بالخلود ، فى ضمير الإنسان الفانى المحدود .

ولم يبخل الإسلام بثقته على الضمير البشرى بعد تهذيبه؛ فأقامه حارساً على التشريعات ينفذها ويرعاها ؛ وجعل تنفيذ الكثير منها فى ضمانته ؛ فالشهادة هى أساس إقامة الحدود فى أحوال كثيرة ، وفى إثبات الحقوق كذلك . والشهادة مسألة مردها إلى الضمير الفردى ، وإلى رقابة الله على هذا الضمير : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »[2] . . « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ، فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[3] .. وحتى عندما يأمر بالكتابة يجعل الشهادة واجبة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ؛ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ

(١) سورة القلم : [٤] . (٢) سورة النور : [٤] .
(٣) سورة النور : [٦–٩] .

وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ، أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى »[1] .

والشهادة واجب وتكليف فى البدء : « وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا »[2] وهى واجب وتكليف عند التقاضى : « وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ »[3].. وهكذا يمنح الثقة للضمير البشرى فى الحدود التى قد تصل إلى الجلد والرجم، وفى الحقوق المالية على السواء . وهى ثقة لابد منها لتكريم الإنسان ورفعه إلى مستواه المرموق المطلوب .

ولكن الإسلام لم يدع هذا الضمير لذاته ، وهو ينوط به هذه الشؤون الخطيرة ، ويقيمه حارساً على تنفيذ التشريع والتكليف ، ويدعوه إلى السمو فوق مايوجبه التشريع والتكليف . . لقد أقام عليه رقيباً من خشية الله ، وصوّر له رقابة الله فى صور فريدة رائعة مؤثرة : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ؛ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ؛ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »[4] . . « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »[5] « فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى »[6] .

ولقد بشره وأنذره ، وجعل كل عمل من أعماله محسوباً عليه فى الدنيا والآخرة لامفر من عاقبته ، ولا فكاك من جزائه : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ

(١) سورة البقرة : [٢٨٢] . (٢) سورة البقرة : [٢٨٢] . (٣) سورة البقرة : [٢٨٣] .
(٤) سورة المجادلة : [٧] . (٥) سورة ق : [١٦-١٨] . (٦) سوة طه : [٧] .

نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ[1] »
« إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ ٱلْإِنْسَانُ مَالَهَا ؟ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا. يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[2] .. وهكذا وهكذا مما يقيم على هذا الضمير رقابة من الخشية والتقوى ، ويجعله أداة صالحة لرقابة التنفيذ فى كل ماشرع الدين من حدود وتكاليف .

* * *

على هذا الضمير الذى رباه الإسلام ، وعلى التشريع الذى جاءت به شريعته ، اعتمد فى إرساء قواعد العدالة الاجتماعية . وبهذه الوسيلة المزدوجة نجح فى إنشاء مجتمع إنسانى متوازن متناسق ، سنعرض صوراً منه فى فصل آت . أما الآن فنكتفى باستعراض نموذج من تلك الطريقة فى التشريع والتوجيه ، ونختار موضوع الزكاة والصدقة لعلاقته القوية بموضوع هذا الكتاب .

فرض الإسلام الزكاة حقاً فى أموال القادرين للمحرومين . حقًّا تتقاضاه الدولة المسلمة بحكم الشريعة وبقوة السلطان . ولكنه راح يحفز الوجدان على أداء هذا الحق ، حتى يجعل أداءه رغبة ذاتية من القادرين على الأداء .

فالزكاة ركن من أركان الإسلام ، وضرورة من ضرورات الإيمان : « قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ، ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ »[3] .. « تِلْكَ آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ. هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ. ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »[4] .

---

(١) سورة الأنبياء [٤٧] .
(٢) سورة الزلزلة : [١ ــ ٨] .
(٣) سورة المؤمنون : [١ ــ ٤] .
(٤) سورة النمل : [١ ــ ٣] .

والمشركون الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤدون الزكاة : « وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » (١) .

وأداء الزكاة وسيلة من وسائل الحصول على رحمة الله : « وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ ، وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ، وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (٢) .

والنصر من عند الله لمن يؤدون هذا الحق، ويقومون بواجبهم للمجتمع ، فيستحقون التمكين لهم فى الأرض: « وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ (٣) » .

والزكاة شريعة إنسانية خالدة تضمنتها أوامر الأنبياء قبل الإسلام ؛ فلا دين بغير هذا الواجب الاجتماعى العريق. يقول عن إسماعيل: « وَاذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا ، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَٱلزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٤) » .. ويقول عن إبراهيم : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٥) » .

والويل لمن لا يؤدى هـذا الواجب المفروض . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ، يطوّقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهْزمتيه ـ يعنى شدقيه ـ يقول : أنا مالك ، أنا كنزك »(٦) . وهى صورة مفزعة مروعة مخيفة .

هذه الزكاة حق مفروض بقوة الشريعة، مقدر فى المال بحساب معلوم. وبجانبها الصدقة؛

---

(١) سورة فصلت : [٦ ـ ٧] .
(٢) سورة النور : [٥٦] :
(٣) سورة الحج : [٤٠ـ٤١] .
(٤) سورة مريم : [٥٤ـ٥٥] .
(٥) سورة الأنبياء : [٧٢ـ٧٣] .
(٦) البخارى والنسائى .

وهى موكولة لضمير الفرد بلا حساب؛ وهى وحى الوجدان والشعور، وثمرة التراحم والإخاء اللذين عنى بهما الإسلام كل العناية ، تحقيقاً للترابط الإنسانى والتكافل الاجتماعى ، عن طريق الشعور الشخصى بالواجب ، والإحساس النفسى بالرحمة ، ليبلغ بذلك هدفين : التهذيب الوجدانى العميق ، والتضامن الإنسانى الوثيق . وإن الإسلام ليجعل هذا التراحم إنسانياً خالصاً لاتقف حدوده عند الأخوة الدينية ؛ فيقول القرآن: « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ »(١) .. ويقول الرسول : « ارحموا أهل الأرض يرحمكم من فى السماء » (٢) . فيضرب المثل العالى فى التراحم الإنسانى ، الخالص حتى من عصبية الدين .

ثم يخطو الخطوة الكبرى فيشمل بالرحمة كل من تنبض فيه الحياة . قال نبى الإسلام الكريم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً ؛ فنزل فيها فشرب، ثم خرج وإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ؛ فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى . فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقىَ ، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له ». قالوا يارسول الله: وإن لنا فى البهائم لأجراً ؟ فقال : « نعم ، فى كل كبد رطبة أجر »(٣) . وقال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » (٤) .

فالرحمة فى الإسلام أساس الإيمان وعلامته ، لأنها دليل تأثر الضمير بهذا الدين ، وتغلغله فيه .

وعلى هذا الأساس يوجه الإسلام إلى الصدقة والبر ، ويحبب فى الإنفاق طوعاً

---

(١) سورة الممتحنة : [٨] .
(٢) أبو داود والترمذى .
(٣) الشيخان .
(٤) البخارى .

واحتساباً ، وانتظاراً لرضاء الله وعوضه فى الدنيا ، ولثوابه فى الآخرة ، واجتناباً لغضبه ونقمته وعذابه .

فالبشرى للمخبتين الطائعين لله الذين ينفقون من أموالهم لرضاه : « وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ، ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَٱلصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَاةِ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١) » . . وهى صورة مؤثرة فى الوجدان حقا ، يعيد رسمها فى مناسبة أخرى فيقول: « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) » .

كما يصور الإيثار صورة جميلة رقيقة فى نفوس أهل المدينة الذين استقبلوا المهاجرين فآووهم وشاركوهم مالهم وبيوتهم فى رحابة صدر وسماحة نفس : « وَٱلَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ـ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ـ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٣) » .

وهى صورة للإنسانية العليا فى أجمل صورها وأبدعها . وهناك صورة لا تقل عنها جمالا ورقة وانعطافاً لجماعة من عباد الله ، تذكر بعض المراجع أنهم علىّ وزوجه فاطمة بنت الرسول وأهل بيتهما : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ ـ عَلَى حُبِّهِ ـ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً . إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً .

(١) سورة الحج : [٣٤ ـ ٣٥]
(٢) سورة السجدة : [١٥ ـ ١٧] .
(٣) سورة الحشر : [٩] .

فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ، وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ، وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ، قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً ، عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً ، وَإِذَا رَأَيْتَ ، ثَمَّ ، رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ، عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ، وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً . إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً [1] » .

والصدقة قرض لله مضمون الوفاء : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ [2] .. « إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ [3] » ...

أو هي تجارة رابحة مجزية: « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [4] » .

وعلى أية حال فهي مُخلَفة وليس فيها خسارة ولا ظلم: « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ [5] » .

والجنة في الآخرة جزاء كريم للمنفقين : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

---

(1) سورة الدهر : [٧-٢٢] .
(2) سورة الحديد : [١١] .
(3) سورة الحديد : [١٨] .
(4) سورة فاطر : [٢٩-٣٠] .
(5) سورة البقرة : [٢٧٢] .

عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ : ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ ، وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ . وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١) » .

والصدقة تطهير للنفس والمال ، وقد أمر الرسول أن يأخذ من قوم أذنبوا واعترفوا بذنوبهم قسطاً من مالهم ينفق فى الخير تطهيراً وتزكية لهم : « وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا . عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ ، وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٢) » .

والإنفاق يتسق مع الوفاء بعهد الله والخشية منه والخوف من سوء الحساب ؛ ويدل على العقل والتبصر . والكف عنه قطع لما أمر الله به أن يوصل ؛ ونوع من نقض العهد والإفساد فى الأرض : « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ : ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ ، وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ ، وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَٱلْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ . وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ » (٣) .

والامتناع عن الإنفاق فى سبيل الله هلكة : « وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ » .. (٤) التهلكة الفردية بتعريض النفس للعذاب فى الآخرة من

(١) سورة آل عمران : [١٣٣ــ١٣٤] .
(٢) سورة التوبة : [١٠٢ــ١٠٤] .
(٣) سورة الرعد : [١٩ ــ ٢٥] .
(٤) سورة البقرة : [١٩٥] .

الله ، والنقمة فى الدنيا من الناس ؛ والتهلكة الجماعية بما يشيعه عدم الإنفاق فى المجتمع من تفاوت وظلم ، وفتن وأحقادٍ ، وضعف وانحلال .

ومنع الخير اعتداء : « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ »(١) . . « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ »(٢) .. معتد على حق الله ، وحق الجماعة ، وحق نفسه كعضو فى الجماعة :

والبرُّ يؤدى إلى الجنة ويجتاز بالبارّ العقبة إليها . والعقبة هى فك الرقاب ، وإطعام الطعام يوم الجوع والمتربة : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ »(٣) .

والكف عن البر يؤدى إلى النار ، ويسلك صاحبه مع الكفار : « مَاسَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ »(٤) . « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ،سَيُطَوَّقُونَ مَابَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٥) . . « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ »(٦) .

* * *

وليس الكنز هناهو مجرد الامتناع عن الزكاة،فالصدقة والإنفاق كثيرا مايذكران

---

(١) سورة ق : [٢٤-٢٥] .
(٢) سورة القلم : [١٠-١٢] .
(٣) سورة البلد : [١٢-١٦] .
(٤) سورة المدثر : [٤٢-٤٧] .
(٥) سورة آل عمران [١٨٠] .
(٦) سورة التوبة : [٣٤-٣٥] .

بعد أو قبل ذكر الزكاة ، مما يدل على أن الزكاة شيء مفروض محدد ، والصدقة والإنفاق مطلقان غير محددين بنصاب .. عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك » [1] .

وعن بلال رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مارزقت فلا تخبأ ، وما سئلت فلا تمنع . فقلت : يارسول الله وكيف لي بذلك ؟ قال : هو ذاك أو النار » [2] .

لا بل إن العقاب قد يحلّ بالباخلين في الدنيا جزاء مابخلوا ومنعوا الخير ؛ ويضرب القرآن الكريم مثلاً في قصة قصيرة ، قصة جماعة كانت لهم حديقة يطعمون من ثمرها الفقراء ، ثم خطر لهم أن يبخلوا ويمنعوا ، فدارت الدائرة على الحديقة ، وذهب الله بثمرها ، فأصبحوا نادمين : « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ، وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ، فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ، أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ، فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَلَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا : إِنَّا لَضَالُّونَ ! بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ! قَالُوا : سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ . قَالُوا : يَاوَيْلَنَا ! إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » [3]

لذلك يدعو القرآن الكريم الناس للبذل قبل فوات الأوان : « قُلْ لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ

---

(١) مسلم والترمذي .
(٢) رواه الطبراني في الكبير وأبو الشيخ بن حبان في كتاب الثواب ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .
(٣) سورة القلم : [١٧ – ٣٣] .

آمَنُوا : يُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ »[1] . « وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ، فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ! وَلَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْساً إِذا جَاءَ أَجَلُهَا »[2] .

ويحذرهم الشح ليقوا أنفسهم منه ، فلا يدفعهم حرصهم على الأموال والأولاد إليه، فإنما هذه فتنة لهم واختبار : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَٱللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ، فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ، وَٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، وَأَنفِقُوا خَيْراً لِأَنفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »[3] .

والنبي يوجب الصدقة على كل مسلم ولو كان لا يجد ، وتفسير ذلك قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « على كل مسلم صدقة . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يستطع أن يفعل ؟ قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يفعل؟قال فيمسك عن الشر فإنه له صدقة[4] »..وهكذا يستوى الناس جميعاً فى البذل، كل بقدر مايملك ، وكل بقدر مايستطيع .

* * *

وأبواب الإنفاق تدور مع الحاجة ومواضعها ؛ فالأقربون أولى بالمعروف ؛ ولكن سواهم موصولون بهم يذكرون فى معرض الحض على البر جنباً لجنب مع الأقربين ؛ فالبر عاطفة إنسانية قبل أن تكون وجدان قرابة ؛ وذكر البر موصول غالباً بذكر الإيمان ، إذ كان دليل الإيمان كما أسلفنا : « وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ؛ وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ ، وَٱلْيَتَامَىٰ ، وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ ، وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ، وَابْنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . إِنَّ

(١) سورة إبراهيم : [٣١].
(٢) سورة المنافقون : [١٠-١١] .
(٣) سورة التغابن : [١٥-١٦] .
(٤) الشيخان واللفظ للبخارى .

ٱللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُوراً ، ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَيَكْتُمُونَ مَاآتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً[(١)] » . «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ : مَاأَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ،وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ . وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ »[(٢)] .

وهكذا يتصل الجار والصاحب بالوالدين والأقربين ، كما يتصل بالجميع اليتامى والمساكين وابن السبيل . كلهم سواء ، حتى الذين تقع منهم مساءة ، كالتى وقعت من « مسطح » قريب أبى بكر ، الذى اشترك فى حديث الإفك عن ابنة أبى بكر ، عائشة زوج النبى.فإن الإسلام يدعو للصفح عنهم ، وينهى عن حرمانهم.فلما حلف أبو بكر وهو فى ثورةغضبه على عرضه المنهوك كذباً ، أن يحرم مسطحاً ما كان يبره به ، نزلت الآية : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُو ٱلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ »[(٣)] ؟

وهكذا يرتفع بالشعور الإنسانى فى هذا المجال إلى مستوى رفيع كريم ، تشرف به الإنسانية فى أعصارها جميعاً ؛ وتفخر به فى الماضى والحاضر والمستقبل إلى ماشاء الله .

ثم يرتفع بالبر ذاته ، فيجعله براً بالله سبحانه ، ويرسم له هـذه الصورة المبدعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : ياابن آدم مرضت فلم تعدنى ! قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لوعدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى! قال يارب : وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ ياابن آدم استسقيتك فلم

---

(١) سورة النساء : [٣٦ـ٣٧] . (٢) سورة البقرة : [٢١٥] .
(٣) سورة النور : [٢٢] .

تسقني ! قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته لوجدتَ ذلك عندى [1] » .

ثم يجعل للصدقة آداباً ترفعها عن أن تكون تفضلا واستعلاء من الواجد على المحروم، أو أن تكون رياء صادراً عن شعور غير كريم ؛ لأن الصدقة إن هبطت دوافعها، أو تبعها المن على آخذها ، استحالت عملا خسيساً يؤذى النفس والخلق والضمير ، ويؤذى المجتمع كذلك فى أفراده وفى روابطه. وليس كالمن بالإحسان شىء يمض النفس ويذلها ، أو يصرفها عن قبول الإحسان ؛ وليس كالرياء بالصدقة مفسد للضمير حقير فى عرف الأخلاق . والإسلام يعمل على رفع نفوس المعطين والآخذين جميعاً؛ ويحرص على ذلك حرصاً شديداً: « مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ، وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ، ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَى، كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ . وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ، أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ ، وَأَصَابَهُ

---

(١) رواه مسلم .

ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ؟ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (١) ».

ولهذا يستحسن إخفاء الصدقة ودفعها سراً للمعوزين . حفظاً لكرامتهم من جهة ؛ ومنعاً للاختيال والفخر من جهة أخرى: « إِنْ تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ؛ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » (٢) . . ويتحدث النبي صلى الله عليه وسلم مثنياً على الرجل « تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه » (٣) وهو تصوير بارع جميل لكتمان البر واحتسابه فى غير مفخرة ولا إعلان .

* * *

والإسلام يقدر غريزة حب الذات وحب المال ؛ ويقرر أن الشح حاضر فى النفس الإنسانية لايغيب : « وأُحضرتِ الأنفُسُ الشُّحَّ » (٤) فيعالج هذا كله علاجاً نفسياً بما تقدم من الترغيب والتحذير والحض والتصوير ، حتى ليتم له مايريد ، وحتى ليطلب إلى هذه النفس الشحيحة أن تجود بما هو حبيب إليها عزيز عليها : « لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » .. (٥) فتستجيب إليه ، وتتلمس الطيب تجود به ، وبذلك يصل إلى غاية البذل وأصعب الجود وأكرم العطاء ، النابع من أعماق الشعور ؛ ويرفع الإنسان على نفسه ؛ ويغلب جانب التسامى فيه على جانب الضرورة ، وجانب الوجدان على جانب الغريزة ؛ وذلك فى ذاته هدف إنسانى رفيع يستحق الجهد فيه ، فكيف وهو هدف اجتماعى ، لإيجاد التوازن ، ومكافحة الحرمان ، وتحقيق التكافل بين القادرين والعاجزين ، وتكوين مجتمع متناسق متعاون سليم ؟

* * *

(١) سورة البقرة : [٢٦١-٢٦٦] . (٢) سورة البقرة : [٢٧١] .
(٣) الشيخان . (٤) سورة النساء : [١٢٨] . (٥) سورة آل عمران : [٩٢] .

على هذا النهج ـ الذى توسعنا فى عرض نموذج منه ـ يسير الإسلام ، فيهتم بالإقناع الوجدانى كلما شرع تكليفاً ؛ ويقف بالتكاليف عند الحد الضرورى لسلامة المجتمع ، وفى حدود الطاقة العامة لجماهير الناس ؛ ثم يخاطب الوجدان للإقناع بالتكاليف ، وللسمو فوقه ما استطاع ؛ ليرتفع بالحياة الإنسانية ويجذبها دائماً بخيط الصعود ؛ ويدع المجال فسيحاً بين الحد الأدنى المطلوب والحد الأعلى المرغوب ، تتسابق فيه الأفراد والأجيال ، على مدى الأزمان والقرون .

وعلى هذا النهج قد سار فى تحقيق العدالة الاجتماعية .. وفى الفصلين التاليين من هذا الكتاب حديث مفصل عن « سياسة الحكم » و « سياسة المال » وفيهما يتجلى اعتماد الإسلام على وسيلتيه الأساسيتين : التشريع والتوجيه فى تحقيق العدالة الكبرى فى كل حقل من حقول الحياة .

ولقد آتى هذا النهج ثمراته كاملة فى فجر الإسلام ، وظل يؤتيها فى فترات القرون الأربعة عشر التى تلت . وإنه لقادر على أن يعيدها فى الحاضر والمستقبل ، حين يُفهم على حقيقته ، وحين يوجه وجهته ، وحين يسلك الناس طريقه الحق القويم .

سياسة الحكم في الإسلام

كل حديث عن « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » لا بد أن يلم بالحديث عن « سياسة الحكم فى الإسلام » تبعاً للقاعدة التى أسلفنا عند الحديث على « طبيعة العدالة الاجتماعية » فيه ؛ وأنها تتناول جميع مظاهر الحياة ، وجميع ألوان النشاط ؛ كما تتناول القيم المعنوية والمادية متمازجة متناسقة .

وسياسة الحكم ذات علاقة بهذا كله ؛ فضلا على أنها المنوط بها فى النهاية تنفيذ التشريع ؛ وتعهد المجتمع من كل جوانبه ؛ وتحقيق العدالة والتوازن فيه ؛ وتوزيع المال حسب القواعد التى سنها الإسلام .

والكلام عن « سياسة الحكم فى الإسلام » يطول ويحتاج إلى مبحث خاص ؛ ولما كان قصدنا فى هذا الكتاب بيان ما يختص بالعدالة الاجتماعية من هذه السياسة ، فسنحاول بقدر الإمكان أن نتناول هذا الجانب وحده ؛ وإن كانت الصعوبة فى دراسة الإسلام أن الباحث يجد كل جوانبه متماسكة ؛ وليس هناك انعزال بين هذه الجوانب . فهذا الدين كله وحدة : العبادات والمعاملات . سياسة الحكم وسياسة المال . التشريعات والتوجيهات . العقيدة والسلوك . الدنيا والآخرة .. كلها أجزاء منسقة فى جهاز متكامل ؛ يصعب إفراد جزء منها بالحديث ، دون التطرق إلى بقية الأجزاء . ولكن سنحاول بقدر الإمكان !

* * *

بعض من يتحدثون عن النظام الإسلامى ـ سواء النظام الاجتماعى أم نظام الحكم وشكل الحكم ـ يجتهدون فى أن يعقدوا الصلات والمشابه بينه وبين أنواع النظم التى عرفتها

البشرية قديماً وحديثاً ، قبل الإسلام وبعده . ويعتقد بعضهم أنه يجد للإسلام سنداً قوياً حين يعقد الصلة بينه وبين نظام آخر من النظم العالمية القديمة أو الحديثة .

إن هذه المحاولة إن هي إلا إحساس داخلي بالهزيمة أمام النظم البشرية التي صاغها البشر لأنفسهم في معزل عن الله . فما يعتز الإسلام بأن يكون بينه وبين هـذه النظم مشابه ؛ وما يضيره ألا تـكون . فالإسلام يقدم للبشرية نموذجاً من النظام المتكامل لا تجد مثله في أي نظام عرفته الأرض ، من قبل الإسلام ومن بعده سواء . والإسلام لا يحاول ولم يحاول أن يقلد نظاماً من النظم ، أو أن يعقد بينه وبينها صلة أو مشابهة ؛ بل اختار طريقه متفرداً فذاً ، وقدم للإنسانية علاجاً كاملا لمشكلاتها جميعاً .

ولقد يحدث في تطور النظم البشرية أن تلتقي بالإسلام تارة ، وأن تفترق عنه تارة . ولـكنه هو نظام مستقل متكامل ، لا علاقة له بتلك النظم ؛ لا حين تلتقي معه ، ولا حين تفترق عنه . فهذا الافتراق وذلك الالتقاء عرضيان ، وفي أجزاء متفرقة ؛ ولا عبرة بالاتفاق أو الاختلاف في الجزئيات والعرضيات ، إنما المعول عليه هو النظرة الأساسية ، والتصور الخاص . وللإسلام نظرته الأساسـية وتصوره الخاص ، وعنه تتفرع الجزئيات ، فتلتقي أو تفترق عن جزئيات في النظم الأخرى ، ثم يمضي الإسلام في طريقه المتفرد بعد كل اتفاق أو اختلاف .

إن القاعدة التي يقوم عليها النظام الإسلامي تختلف عن القواعد التي تقوم عليها الأنظمة البشرية جميعا .. إنه يقوم على أساس أن الحاكمية لله وحده . فهو الذي يشرع وحده . وسائر الأنظمة تقوم على أساس أن الحاكمية للإنسان ، فهو الذي يشرع لنفسه .. وهما قاعدتان لا تلتقيان . ومن ثم فالنظام الإسلامي لا يلتقي مع أي نظام . ولا يجوز وصفه بغير صفة الإسلام ..

وليست وظيفة الباحث الإسلامي حين يعرض للحديث عن النظام الإسلامي أن يلتمس

له المشابه والموافقات مع أى نظام آخر قديم أو حديث ، فهذه المشابه والموافقات ــ فضلا على أنها سطحية وجزئية ، ووليدة مصادفات فى الجزئيات ، لا فى التصور العام والنظرة الأساسية ــ لا تكسب الإسلام قوة كما يظن بعض المهزومين ! وطريقهم الصحيح أن يعرضوا أسس دينهم لذاتها ، وبإيمان كامل بأنها أسس كاملة ، سواء وافقت جميع النظم الأخرى أو خالفتها جميعاً ، ومجرد تطلب التأييد لنظم الإسلام من مشابه وموافقات مع النظم الأخرى ، هو إحساس بالهزيمة كما قلنا ، لا يقدم عليه باحث مسلم، يعرف هذا الدين حق معرفته ، ويبحثه حق بحثه .

لقد عرف العالم فى نشأته وتطوره نظما عدة . وليس النظام الإسلامى واحداً من هذه النظم ، وليس خليطاً منها ، وليس مستمداً من مجموعها .. إنما هو نظام قائم بذاته مستقل بفكرته متفرد بوسائله ، وعلينا أن نعرضه مستقلا ، لأنه نشأ مستقلا ، وسار فى طريقه مستقلا .

لهذه الاعتبارات لم استسغ تعبير الدكتور هيكل عن العالم الإسلامى بأنه « الإمبراطورية الإسلامية » ، ولا قوله : « إن الإسلام إمبراطورى ». فليس أبعد عن فهم روح الإسلام الحقيقية من القول بأنه إمبراطورى ، مهما فرقنا بين مدلول الإمبراطورية الإسلامية ومدلول الإمبراطورية المعروف ؛ وليس أبعد من فهم حقيقة الصلات فى العالم الإسلامى من القول بأنه إمبراطورية إسلامية !

ومن الغريب أن الدكتور هيكل فى حديثه عن حكم الإسلام فى « حياة محمد » أو « الصديق أبو بكر » أو « الفاروق عمر » يلمس الخلاف الحقيقى الداخلى بين طبيعة الإسلام ، وطبيعة سائر النظم التى عرفها العالم ، ولكنه ينساق إلى هذين التعبيرين انسياقاً، بحكم قوة إيحاء المظاهر الأجنبية ! ثم تشابه بعض المظاهر بين الإسلام والإمبراطورية .

وبحكم أنه لم يلحظ ذلك الافتراق الأصيل بين نظام يقوم على حاكمية الله وحده ، ونظام آخر يقوم على حاكمية الإنسان !

ولعل المظهر الشكلي هو تكوّن العالم الإسلامي من عدة أقاليم متباينة الأجناس والثقافات ، يرجع أمر الحكم فيها إلى مركز واحد . وهذا هو مظهر الإمبراطورية اولكنه مجرد مظهر ، والمعول عليه هو طبيعة نظر هذا المركز إلى الأقاليم ؛ وطبيعة العلاقات بينه وبينها .

كل متتبع لروح الإسلام ولطريقته في الحكم ، يجزم بأنها أبعد ما تكون عن الإمبراطوريات المعروفة . فالإسلام يسوى بين المسلمين فى جميع أجزاء العالم ؛ وينكر العصبيات الجنسية والقومية والإقليمية . وتبعاً لهذه الروح لا يجعل الأقاليم مستعمرات ولا مواضع استغلال ، ولا منابع تصب فى المركز لفائدته وحده . فكل إقليم هو بضعة من جسم العالم الإسلامى ، ولأهله سائر الحقوق التى لأهل المركز . وإذا كان بعض الأقاليم يحكمها وال من قِبَل المركز الإسلامى ، فإنما يحكمها بوصفه رجلا مسلماً صالحاًللولاية ، لا بوصفه حاكما مستعمراً ؛ على أن كثيراً من هذه الأقاليم المفتوحة كان يحكمها واحد من أهلها ، ولكن بصفته مسلماً صالحاً لهذه الولاية . وكذلك كان مايجبى من أموال الأقاليم ينفق فيها أولا ، فإن فضل منه شئ رد إلى بيت مال المسلمين ، لينفق على المسلمين كافة عند الحاجة ، لا ليخصص لأهل المركز الإسلامى ولو افتقرت الأقاليم ، كما هو العهد فى الإمبراطوريات .

وكل هذا يجعل المسافة بعيدة بين العالم الإسلامى ، أو الأمة الإسلامية بتعبير أدق ، وبين الإمبراطورية ، ويكون القول بأن الإسلام « إمبراطورى » انزلاقاً مع اصطلاح غريب على روح الإسلام وعلى تاريخه سواء ، والأولى أن نقول : إنه كان عالمى النزعة ،

لما فيه من فكرة قوية عن وحدة العالم ، ولما يرمى إليه من ضم البشرية كلها إلى لوائه متساوية متآخية .

لقد كان الدكتور طه حسين أدق فى تعبيره وهو يتحدث فى مقدمة كتابه «الفتنة الكبرى. عثمان » عن نظام الحكم الإسلامى ، بالقياس إلى جميع النظم الأخرى ، فيرى أنه يختلف فى طبيعته الأصيلة عن سائرها ؛ فذلك هو الحق عند النظر إلى روح الحكم وطبيعته ، لا إلى مظاهره وجزئياته . وإن كان الدكتور طه حسين يجعل تقريره هذا مقدمة لنتيجة أخرى خطيرة وهى أن الإسلام بصورته التى تحقق بها على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والشيخين بعده إنما كان فلتة فى الزمان ، لا تملك البشرية أن تزاولها طويلا ! وهذه هى النغمة التى يجعلها المستشرقون وتلاميذهم فى البلاد الإسلامية مقدمة للقول بعدم صلاحية الإسلام لأن يكون نظام حكم فى هذه الأيام !

كذلك لم أستسغ حديث من يتحدثون عن « اشتراكية الإسلام » و « ديمقراطية الإسلام » .. وما إلى ذلك من الخلط بين نظام من صنع الله ـ سبحانه ـ وأنظمة من صنع البشر ، تحمل طابع البشر وخصائص البشر من النقص والكمال ، والخطأ والصواب ، والضعف والقوة ، والهوى والحق . . بينما نظام الإسلام الربانى برىء من هذه الخصائص ، كامل شامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

إن الإسلام يقدم حلولا مستقلة لمشكلات الإنسانية ، يستمدها من تصوره الخاص ، ومن منهجه الذاتى ، ومن أسسه الأصيلة ، ومن وسائله المتميزة ؛ وعلينا حين نناقشه ألا نكله إلى مذاهب ونظريات أخرى تفسره ، أو تضيف إليه ؛ فهو منهج متكامل ، ووحدة متجانسة ؛ وإدخال أى عنصر غريب فيه كفيل بأن يفسده ، كالجهاز الدقيق الكامل ، أية قطعة غريبة عنه تعطل الجهاز كله ، وتظهر كأنها رقعة فيه !

وأنا أدلى بهذه الكلمة المجملة هنا ، لأن كثيراً ممن اندست فى ثقافتهم وأفكارهم قطع

غريبة من أجهزة النظم الأجنبية ، يحسبون أنهم يكسبون الإسلام قوة جـديدة ، إذا هم طعموه بتلك النظم . وهو وهم خاطىء يفسد الإسلام ؛ ويعطل روحه عن العمل ؛ وهو فى الوقت ذاته إحساس خفى بالهزيمة ، ولو لم يعترفوا صراحة بالهزيمة !

* * *

يقوم النظام الإسلامى على فـكرتين أساسيتين مستمدتين من تصوره الـكلى للألوهية والـكون والحياة والإنسان: فـكرة وحدة الإنسانية فى الجنس ، والطبيعة، والنشأة. وفـكرة أن الإسلام هو النظام العالمى العام ، الذى لا يقبل الله من أحد نظاما غيره . لأنه لا يقبل من أحد دينا إلا الإسلام . والدين – فى المفهوم الإسلامى – هو النظام العام الذى يحكم الحياة .

فأما فـكرة وحدة الإنسانية جنسا وطبيعة ونشأة ، فقد تحدثنا عنها من قبل بالتفصيل عند الـكلام على « أسس العدالة الاجتماعية فى الإسلام »

وأما فـكرة أن الإسلام هو النظام العالمى العام ، الذى لا يقبل الله من أحد نظاما غيره فهى مستمدة من أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – هو رسول الله إلى الناس كافة ، وأنه خاتم النبيين ، وأن دينه أقوم دين : « وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِلنَّاسِ » (١) . . « وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ (٢) » .. « ... رَسُولَ ٱللهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ » (٣) .. « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا» (٤) .. « إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » (٥) ..

« والدين » فى المفهوم الإسلامى هو المرادف لـكلمة « النظام » فى الاصطلاحات الحديثة ! مع شمول المدلول للعقيدة فى الضمير ، والخلق فى السلوك ، والشريعة فى المجتمع ..

(١) سورة سبأ : [٢٨] .
(٢) سورة الأنبياء : [١٠٧] .
(٣) سورة الأحزاب : [٤٠] .
(٤) سورة المائدة : [٣]
(٥) سورة الإسراء : [٩] .

فكلها داخلة فى مفهوم « الدين » فى الإسلام . ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك نظام يقبله الله ويقره الإسلام ، ما لم يكن هذا النظام مستمداً من التصور الإسلامى الاعتقادى ، ومتمثلا فى تنظيمات وتشريعات مستمدة من الشريعة الإسلامية دون سواها . . وأهم من هذا كله أن يذعن أصحاب هذا النظام لألوهية الله وربوبيته ، فلا يدعون لأنفسهم حق إصدار الشرائع والأنظمة لأن هذا الحق لله وحده فى الإسلام . وهنا يفترق النظام الإسلامى عن كل الأنظمة البشرية الافتراق الأساسى .

ولكن الإسلام مع هذا لا يقسر الآخرين على اعتناقه : « لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ »(١) . . بل يدع لهم أقصى الحرّية والحماية فى مزاولة شعائرهم الدينية . ويبلغ من دقة حسه بهذه الحرية أن يفرض على المسلمين وحدهم « الزكاة » والجهاد ويأخذ فى مقابلها من أهل الذمة « الجزية » إذ هم شركاء فى حماية الدولة الإسلامية لهم ، وعليهم جميعاً نفقاتها ، ولكنه لا يجعلها على أهل الذمة « زكاة » ــ كما أنه لا يفرض عليهم الجهاد ــ إلا إذا ارتضوا هم وقبلوا ، لأن الزكاة فريضة إسلامية وعبادة خاصة بالمسلمين، وكذلك الجهاد، وهو لا يريد أن يقسر أهل الذمة على عبادة من عبادات المسلمين ، فيأخذ المال منهم بصفته المالية وحدها ؛ وينفى عنه الصفة التعبدية الملحوظة فى فريضة الزكاة ! كما يعفيهم من الجهاد لحماية دار الإسلام التى يتمتعون بأمنها ورخائها . وهذا منتهى دقة الحساسية بالعدل فى معاملة الآخرين .

والإسلام إذ يدع للآخرين حريتهم فى هذه الحدود يتأثر بروحه العالمية العامة ؛وهو على ثقة بأنهم متى أتيح لهم أن ينظروا فى الإسلام نظر تدبر وإمعان ، دون حيلولة من قوة مادية ، أو جهالة فكرية ، فإنهم بفطرتهم يفيئون إلى الإسلام الذى يحقق التوازن

(١) سورة البقرة : [٢٥٦] .

الكامل بين جميع الأهداف التى رمت إليها الديانات من قبله ، وبين جميع النزعات والأشواق فى الفطرة البشرية ؛ ويضمن للجميع المساواة المطلقة والتكافل التام ؛ ويرمى إلى تحقيق الوحدة الإنسانية فى دائرة التصور ودائرة النظام .

وقيام النظام الإسلامى على هاتين الفكرتين كان ذا أثر فى كيانه واتجاهه ، جعله يلحظ فى التشريعات والتوجيهات ، وفى سياسة الحكم ، وسياسة المال ، وسائر النظم التى تضمنها ، أنه لا يشرع لجنس ، ولا لجيل ؛ إنما للأجناس جميعاً ، وللأجيال جميعاً ؛ فاتبع الأسس الإنسانية الشاملة فى كل تشريعاته ونظمه ؛ ووضع القواعد العامة ، والمبادئ الواسعة ؛ وترك الكثير من التطبيقات لتطوّر الزمان وبروز الحاجات .

وهذا الاتجاه إلى القواعد الكلية واضح فى « سياسة الحكم » التى نعقد لها هذا الفصل بصفة خاصة .

* * *

تقوم نظرية الحكم فى الإسلام على أساس شهادة أن لا إله إلا الله . ومتى تقرر أن الألوهية لله وحده بهذه الشهادة تقرر بها أن الحاكمية فى حياة البشر لله وحده . والله سبحانه يتولى الحاكمية فى حياة البشر عن طريق تصريف أمرهم بمشيئته وقدره من جانب ، وعن طريق تنظيم أوضاعهم وحياتهم وحقوقهم وواجباتهم ، وعلاقاتهم وارتباطاتهم بشريعته ومنهجه من جانب آخر . وفى النظام الإسلامى لا يشارك الله سبحانه أحد ، لا فى مشيئته وقدره ، ولا فى منهجه وشريعته .. وإلا فهو الشرك أو الكفر ! وبناء على هذه القاعدة لا يمكن أن يقوم البشر بوضع أنظمة الحكم وشرائعه وقوانينه من عند أنفسهم ؛ لأن هذا معناه رفض ألوهية الله ، وادعاء خصائص الألوهية فى الوقت ذاته . . وهذا هو الكفر الصراح .

وفى هذه القاعدة يختلف نظام الحكم الإسلامى فى أساسه عن كل الأنظمة التى وضعها البشر سواء فى ذلك نظام الحكم أو النظام الاجتماعى كله. وهذا هو الذى لا يجعل من المستساغ أن يخلط بين الإسلام وأنظمة البشر فى الأسماء!

وتقوم «سياسة الحكم فى الإسلام» بعد التسليم بقاعدة الألوهية الواحدة والحاكمية الواحدة ـ على أساس العدل من الحكام، والطاعة من المحكومين، والشورى بين الحاكم والمحكوم ... وهى خطوط أساسية كبيرة، تتفرّع منها سائر الخطوط التى ترسم شكل الحكم وصورته. بعد أن ترسم القاعدة السابقة طبيعته وحقيقته:

(١) العدل من الحكام: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ»[١] .. «وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ»[٢] .. «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ»[٣] «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ»[٤].

«إنّ أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً: إمام عادل؛ وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدّهم عذاباً: إمام جائر»[٥] ..

فهو العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه الحب والبغض؛ ولا تغير قواعده المودة والشنآن. العدل الذى لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد، ولا بالتباغض بين الأقوام، فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعاً، لا يفرق بينهم حسب ولا نسب، ولا مال ولا جاه؛ كما تتمتع به الأقوام الأخرى، ولو كان بينها وبين المسلمين شنآن، وتلك قمة فى العدل لا يبلغها أى قانون دولى إلى هذه اللحظة، ولا أى قانون داخلى. بل لا يقاربها كذلك!

والذين يمارون فى هذا عليهم أن يراجعوا عدالة الأقوياء والضعفاء بين الأمم؛ وعدالة المتحاربين بعضهم بالقياس إلى بعض. ثم عليهم أن يراجعوا عدالة البيض للحمر والسود

(١) سورة النحل: [٩٠]. (٢) سورة النساء: [٥٨] (٣) سورة الأنعام [١٥٢].
(٤) سورة المائدة: [٨]. (٥) الشيخان والترمذى.

فى الولايات المتحدة ؛ وعدالة البيض للملونين فى جنوب إفريقية ؛ وعدالة الشيوعيين والوثنيين والصليبيين المسلمين فى روسيا والصين ويوغوسلافيا والهند والحبشة[١] وفى الإشارة ما يغنى . فهى أحوال معاصرة يعلمها كل إنسان .

والمهم فى عدالة الإسلام أنها لم تكن مجرد نظريات ؛ بل أخذت طريقها إلى واقع الحياة ، فحفظ « الواقع التاريخى » منها أمثلة متواترة ، وسيأتى تفصيلها فى موضعها الخاص . إذ نحن هنا بصدد عرض « المبادئ » الإسلامية مجردة كما تدل عليها النصوص .

(ب) والطاعة من المحكومين : « يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ[٢] » . وللجمع فى الآية بين الله والرسول وأولى الأمر معناه فى بيان طبيعة هذه الطاعة وحدودها ؛ فالطاعة لولى الأمر مستمدة من طاعة الله والرسول ، لأن ولى الأمر فى الإسلام لا يطاع لذاته . وإنما يطاع لإذعانه هو لسلطان الله واعترافه له بالحاكمية ، ثم لقيامه على شريعة الله ورسوله . ومن اعترافه بحاكمية الله وحده ، ثم تنفيذه لهذه الشريعة يستمد حق الطاعة ، فإذا انحرف عن هذه أو تلك سقطت طاعته ، ولم يجب لأمره النفاذ . يقول صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ،إلا أن يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة[٣] » . ويقول : « اسمعوا وأطيعوا — وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ــ ماأقام فيكم كتاب الله تعالى[٤] » . وواضح فى هذا الحديث توقيت السمع والطاعة بإقامة كتاب الله تعالى . فليست هى الطاعة المطلقة لأوامر الحاكم ، وليست هى الطاعة الدائمة ولو ترك شريعة الله ورسوله .

---

(١) تراجع فصول « المسلمون متعصبون ! » فى كتاب « دراسات إسلامية » للمؤلف .
(٢) سورة النساء : [٥٩] . (٣) الشيخان . (٤) البخارى .

ويجب أن نفرق بين قيام الحاكم بتنفيذ الشريعة الدينية ، وبين استمداده السلطان من صفة دينية لشخصه . فليست للحاكم سلطة دينية يتلقاها مباشرة من السماء ، كما كان لبعض الحكام فى القديم فى نوع الحكم المسمى : « ثيوقراطية » . إنما هو يصبح حاكما باختيار المسلمين الكامل وحريتهم المطلقة ، لايقيدهم عهد من حاكم قبله ، ولا وراثة كذلك فى أسرة . ثم يستمد سلطته بعد ذلك من قيامه بتنفيذ شريعة الله دون أن يدعى لنفسه حق التشريع ابتداء بسلطان ذاتى له . فإذا لم يرضه المسلمون لم تقم له ولاية ؛ وإذا رضوه ثم ترك شريعة الله لم تكن له طاعة .

ومن هنا ندرك حكمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أنه لم يعين خليفته من بعده . إذ كان هذا مظنة أن يستمد خليفته سلطة دينية ذاتية من استخلاف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ له .

إن الإسلام لا يعرف هيئة « دينية » مثل « هيئة الإكليروس » فى الكنيسة المسيحية . والحكم الإسلامى ليس هو الذى تقوم به هيئة معينة ؛ ولكنه كل حكم تنفذ فيه الشريعة الإسلامية إقرارا من الحاكم بأن الحاكمية لله وحده ، وأن مهمته هو لا تتعدى تنفيذ الشريعة . فإذا كان معنى « الحكومة الدينية » فى أية ديانة أن طائفة معينة هى التى تتولى الحكم ، فإن هذا المعنى ينتفى فى الإسلام انتفاء كاملا ؛ وليس هناك مبرر لأن يفهم أحد أن الحكم فى الإسلام يحتاج إلى أكثر من تنفيذ الشريعة الإسلامية ، بعد إفراد الله سبحانه بحق الحاكمية .

كل حكم يقوم على قاعدة أن الحاكمية لله وحده ، ثم تنفذ فيه الشريعة الإسلامية ، هو حكم إسلامى . وكل حكم لا يقوم على أساس إفراد الله سبحانه بالحاكمية ، ولا تنفذ فيه هذه الشريعة ، لا يعترف به الإسلام ، ولو قامت عليه هيئة دينية ، أو حمل عنواناً إسلامياً !

والطاعة من المحكومين منوطة وموقوتة فقط باعتراف الحاكم بأن الحكم لله وحده، ثم تنفيذه لشريعة الله، بلا شرط آخر غير العدل فى الحكم وطاعة الله.

(د) والمشورة بين الحكام والمحكومين: « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [1] » .. « وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ [2] » .. فالشورى أصل من أصول الحياة فى الإسلام، وهى أوسع مدى من دائرة الحكم، لأنها قاعدة حياة الأمة المسلمة كما تدل الآية. أما طريقة الشورى، فلم يحدد لها نظاماً خاصاً، وتطبيقها إذن متروك للظروف والمقتضيات. فقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستشير المسلمين - فيما لم يرد فيه وحى - ويأخذ برأيهم فيما هم أعرف به من شؤون دنياهم، كمواقع الحرب وخططها.. سمع لرأيهم فى غزوة بدر، فنزل على ماء بدر بعد أن كان قد نزل على مبعدة منه؛ وسمع لرأيهم فى حفر الخندق؛ وسمع لهم فى الأسرى مخالفاً رأى عمر، حتى نزل الوحى بتأييد عمر.. أما ما كان فيه وحى، فلا مجال فيه للشورى بطبيعة الحال، فهو مقرر من مقررات الدين.

وكذلك سار الخلفاء فى استشارة المسلمين: استشار أبو بكر فى شأن مانعى الزكاة وأنفذ رأيه فى محاربتهم؛ وكان عمر يعارض أولا؛ ولكنه فاء إلى رأى أبى بكر اقتناعاً به، بعد ما فتح الله قلبه له، وهو يرى أبا بكر يصر عليه؛ واستشار أهل مكة فى حرب الشام على رغم معارضة عمر.. واستشار عمر فى دخول الأرض الموبوءة وانتهى إلى رأى، ثم وجد نصًّا من السنة يؤيده فالتزمه... وهكذا كانت الشورى لا على نظام مقرر مرسوم؛ لأن الظروف الواقعية كانت تعين أهل الشورى فى كل فترة بحيث لا يلتبس الأمر فى شأنهم. ولكن عمومية الأمر تدع المجال مفتوحاً لأشكال متعددة من النظم والطرق لا يحددها الإسلام، اكتفاء بتقرير المبدأ العام.

---

(١) سورة آل عمران: [١٥٩]. (٢) سورة الشورى: [٣٨].

على أن الحركة الإسلامية فى كل فترة تعين هى بطبيعتها أهل الشورى من أهل البلاء والسبق والرأى ؛ فى يسر لا تعرفه الأنظمة البشرية (١) .

* * *

ليس للحاكم إذن ـ فيما عدا الطاعة لأمره ، والنصح له والمعونة على إقامة الشريعة ـ حقوق أخرى ليست لأى فرد من عامة المسلمين .

ومع أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن حاكما فحسب ، بل كان صاحب الشريعة ، فقد سن للحاكم حدوده فى دائرة مايمنحه الإسلام من حقوق ؛ وسار خلفاؤه على هداه ـ كما سيجىء فى فصل الواقع التاريخى ـ فكان يُقِص من نفسه إلا أن يعفو صاحب الحق عنه ؛ وجاءه صاحب دين فأغلظ عليه ، فهمّ المسلمون به فأشار عليهم أن يدعوه ، لأن لصاحب الحق مقالا ! وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يحل لى من غنائمكم هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم (٢) » .

وقال لعشيرته وأهله الأقربين : « يامعشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً . ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً . وياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . ويا فاطمة بنت محمد سلينى ماشئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً (٣) » . وقال لعلى وفاطمة ، أحب الناس إليه : « لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تَلَوّى بطونهم من الجوع » وقال لهما فى مرة : « لا أخدمكما وأدع أهل الصفة تطوى (٤) » . وقال : « إن بنى إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه . لو كانت فاطمة لقطعت يدها (٥) » .

---

(١) تفصيل هذا الإجمال فى فصل : « مجتمع شورى » فى كتاب : « نحو مجتمع إسلامى » .
(٢) أبو داود والنسائى . (٣) متفق عليه .
(٤) حديث رقم ٥٩٦ من المسند نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر . (٥) رواه الجماعة .

فليس للحاكم إذن حق زائد فى الحدود ، ولا فى الأموال ؛ وليس لأهله حق فيها غير ما لرجل من عامة المسلمين .

وليس للحاكم أن يعتدى على أرواح الناس وأجسادهم، ولا حرماتهم أو أموالهم .فإذا هو أقام الحدود ، ونفذ الفرائض ، فقد انتهى إلى آخر حدوده ؛ وانقطعت سلطته على الناس ، وعصمهم الله من سلطانه : أرواحاً وأجساداً وحرمات وأموالا . . .

ولقد ضمن الإسلام ، فى أوامر صريحة عامة ، تلك الأرواح والأجساد والحرمات والأموال ، بصورة لاتدع مجالا للشك فى مدى حرصه على ضمانة الأمن والسلام والكرامة للجميع :

« يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا [(١)] » .. « وَلَا تَجَسَّسُوا [(٢)] » . والحديث : « كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله » [(٣)] . . والنفس بالنفس . . والجروح قصاص .

* * *

وحين يضيق الإسلام سلطة الإمام فيما يختص بشخصه ، يوسع له إلى أقصى الحدود فى رعاية المصالح المرسلة للجماعة ، تلك المصالح التى لم يرد فيها نص والتى تتجدد بتجدد الزمان والأحوال . فالقاعدة العامة : أن للإمام المسلم القائم على شريعة الله أن يحدث من الأقضية بقدر مايجد من مشكلات ، تنفيذاً لقوله تعالى : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » .. [(٤)] وتحقيقاً لأهداف الدين العامة ، فى إصلاح حال الفرد وحال الجماعة ، وحال

---

(١) سورة النور : [٢٧] .
(٢) سورة الحجرات : [١٢] .
(٣) الشيخان .
(٤) سورة الحج : [٧٨] .

الإنسانية كلها ، فى حدود المبادئ المقررة فى الإسلام ، وبشرط العدل الذى يجب توافره فى الإمام .

فكل مايوقع بالأمة ضرراً من أى نوع ، على الإمام أن يزيله ؛ وكل ما يحقق للأمة نفعاً من أى نوع ، عليه أن يقوم به ، على ألا يخالف نصا من نصوص الدين .

وهى سلطات واسعة تتناول جوانب الحياة كلها . وتحقيق العدالة الاجتماعية بكل ملابساتها داخل فى هذه السلطات . فله أن يتجاوز فى الناحية المالية مثلا ، فريضة الزكاة إلى ضرائب أخرى يتحقق بها التعادل والتوازن ، وتزول بها الأحقاد والضغائن ؛ وترتفع بها عن الأمة مضار الترف ، ومضار الشظف ، ومضار احتباس المال فى أيدى قلة من الناس ، ولكن دون أن يخل بنص أو بقاعدة أساسية من قواعد الحياة الإسلامية . فليس له أن يحفى الناس ، فيأخذ كل مالهم ويدعهم فقراء ؛ أو يجعل موارد رزقهم كلها فى يديه يستذل أعناقهم بها ويجعلهم عبيدا له ؛ ويفقدهم القدرة على أن يقوموا بواجبهم فى النصيحة الحرة والرقابة الواعية ، وتغيير المنكر أيا كان مصدره . فإن هذا كله لا يتأتى للأفراد قط ما لم تكن لهم موارد رزق خاصة لا يتحكم فيها الإمام والولاة . فالذى يملك موارد الرزق تذل له رقاب العباد !

والواقع التاريخى فى حياة الأمة الإسلامية قد حوى نماذج كثيرة من رعاية المصالح المرسلة — دون إخلال بقواعد الحياة الإسلامية التى أشرنا إليها — وهناك تطبيقات مستطاعة فى كل وقت ، فالإسلام ليس نظاماً متحجراً ؛ وتطبيقاته التفصيلية لا تقف عند عصر من العصور ، ولا بيئة من البيئات . وكل ما يريد الإسلام تثبيته هو القواعد الأساسية التى تحدد ملامحه الربانية ، وتحفظه المجتمع المسلم من الذوبان فى المجتمعات الجاهلية ، أو تحرمه القدرة على قيادة هذه المجتمعات التى جاء لقيادتها .

* * *

وبعد فهذا حديث عن الناحية « الرسمية » فى « سياسة الحكم فى الإسلام » ووراءها ناحية « التطوع » التى يتجاوز بها « التوجيه » مايفرضه « التشريع » على طريقة الإسلام فى كل تكاليفه ونظمه .

فسياسة الحكم فى الإسلام تقوم على أساس من الضمير ، فوق قيامها على أساس من التشريع . تقوم على أساس أن الله حاضر فى كل لحظة مع الحاكم والمحكوم ، رقيب على هذا وذاك : « مامن عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة »(١). « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢) » ..

فالراعى والرعية مطالبان كلاهما برعاية الله فى كل تصرف ، وخشية الله هى الضمانة الأخيرة فى تحقيق العدالة . وقد مربنا أن الإسلام ينوط بالضمير البشرى بعد تهذيبه أموراً كباراً فى الحدود وفى الأموال . فإذا لم تكن خشية الله فى هذا الضمير ، فلا ضمان ، لأن التشريع يمكن الاحتيال عليه ، والتستر دونه ، وغش الحاكم والقاضى والناس .

ولايفهم من هذا أن النظام الإسلامى الاجتماعى قائم على هذا الضمير وحده . ولكن الذى ينبغى أن يفهم هو أن فى الإسلام ضمانة أخرى غير مجرد التشريع . وهى تحسب له ــ من ناحية القدرة على التحقق ــ ميزة على النظم التى تعتمد على التشريع وحده، بلا تحرج من ضمير ، ولا حساسية فى الشعور .

وسنرى فيما بعد أن هذا الضمير الذى رباه الإسلام وهذبه ، قام بأدوار خطيرة ،وجاء بما يشبه المعجزات والخوارق فى حياة المسلمين على مر العصور .

---

(١) الشيخان. (٢) سورة البقرة : [١٨٨] .

سياسة المال في الإسلام

لعل الحديث عن سياسة المال هو أدخل شيء فى الحديث عن « العدالة الاجتماعية».

ولعل الكثيرين من القراء قد استبطأوا موعده فى هذا الكتاب ، وهم يقرأون الفصول الأولىمنه إلى هذا الموضع .ولكننى كنتأتعمد هذا الإبطاء بهتعمداً ؛ فالعدالة الاجتماعية فى الإسلام شيء أكبر من سياسة المال ـ كما عرفنا ـ وكان من الواجب أن نكشف عن نظرة الإسلام الكاملة إلى هذه العدالة . وأن نستعرض طبيعتها وأسسها ووسائلها فى محيطها الواسع ، قبل أن نستعرضها فى مجال المال وحده ، كما تصنع المبادئ المادية ، التى ترخص من قيم الحياة كلها عدا قيمة المال .

والإسلام يسير فى « سياسة المال » على هدى نظريته العامة ، وفكرته الشاملة ؛ يلاحظ أولا فى هذه السياسة ـ سياسة المال ـ تحقيق معنى العبودية لله وحده ، بأن يخضع تداول المال لشرع الله . وهذا الشرع يحقق مصلحة الفرد ويحقق مصلحة الجماعة ، ويقف بين ذلك قواما لايضار الفرد ولايضار الجماعة ؛ ولا يقف فى وجه الفطرة ، ولا يعوق سنن الحياة الأصيلة ، وغاياتها العليا البعيدة .

وهو يتبع فى تحقيق هذه السياسة وسيلتيه الأساسيتين : التشريع والتوجيه . فيبلغ بالتشريع الأهداف العملية الكفيلة بتكوين مجتمع صالح قابل للرقى والنماء ، ويرمى بالتوجيه إلى التسامى على الضرورات ، والتطلع إلى حياة أرفع ، والرقى بالحياة إلى عالم المثل ، الذى لا يملك الجميع أن يرتفعوا إليه فى جميع الأحوال ، ويدع الباب دائما مفتوحاً للرقى والكمال .

ونضرب هنا مثالا واحداً بشأن المال ، قبل أن نتحدث بالتفصيل عن « سياسة المال » .

لقد جعل الإسلام حق المال هو الزكاة ، وهو مايقاتل عليه الإمام الناس إن امتنعوا عنه ، وما يفرضه عليهم بحق التشريع ، وبقــدر معين معلوم ؛ ثم جعل للإمام الحق فى أن يأخـذ بعد الزكاة مايمنع به الضرر ، ويرفع به الحرج ، ويصون به المصلحة لجماعة المسلمين؛ وهوحق كحق الزكاة ،عند الحاجة إليه ، موكول إلى مصلحة الأمة وعدالة الإمام ، وقواعد النظام الإسلامى العام.

هــذا فى حدود التشريع ، أما التوجيه فقد حبب إلى الناس أن ينسلخوا من كل مالهم ، وينفقوه كله فى سبيل الله . فهذا أبو ذر الغفارى رضى الله عنه يروى عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً نحو أحد وأنا معه ، فقال : « ياأبا ذر » فقلت : لبيك يارسول الله . فقال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا وكذا ــ عن يمينه وشماله وقدّامه وخلفه ــ وقليل ماهم » . ثم قــال : « ياأبا ذر » فقلت : نعم يارســول الله بأبى أنت وأمى . قال : « مايسرنى أن لى مثل أحد ، أنفقه فى سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين » . قلت : أو قنطارين يارسول الله . قال : « بل قيراطين » ثم قال : « ياأبا ذر ، أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل » [1] .

* * *

ذلك هو التشريع ، وهذا هو التوجيه . وهما معاً قوام « سياسة المال » كما أنهما قوام كل سياسة فى الإسلام .

وبعد فلنأخذ فى التفصيل والبيان .

---

(١) الشيخان والترمذى والنسائى .

الملكية الفردية

حق الملكية الفردية

يقرر الإسلام حق الملكية الفردية للمال ـ بوسائل التملك المشروعة التي سيرد بيانها بعد قليل ـ ويجعلها هي قاعدة نظامه ، ويرتب على هذا التقرير نتائجه الطبيعية في حفظ هذا الحق لصاحبه وصيانته له عن السرقة أو النهب أو السلب أو الاختلاس بأية طريقة من الطرق ؛ أو المصادرة بدون ضرورة عامة مع التعويض المجزى الذى لاغبن فيه . ويضع الحدود الرادعة لكفالة هذا كله ، فوق مايضع من التوجيهات التهذيبية لكف النفوس عن التطلع إلى ماليس لها ، وما هو داخل في ملك الآخرين ، كما يرتب عليه نتائجه الأخرى ،وهي حق التصرف في هذا المال بالبيع والإجارة والرهن والهبة والوصية... إلى آخر حقوق التصرف الحلال ، وفي نطاق الحدود التي سنها للتصرفات .

ولا شبهة في تقرير هذا الحق الواضح الصريح في الإسلام ولا شبهة كذلك في أنه قاعدة الحياة الإسلامية وقاعدة الاقتصاد الإسلامي .القاعدة التي لاتخالف إلا لضرورة.وبقدر هذه الضرورة : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ »(١) .. « وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ »(٢)..« وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا،وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ »(٣).. وقد جاء في الحديث : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ »(٤) .

---

(١) سورة النساء : [٣٢] .
(٢) سورة النساء : [٢] .
(٣) سورة الكهف : [٨٢] .
(٤) أخرجه الشيخان .

وعقوبة السرقة الصارمة دليل على احترام هذا الحق وصيانته ، ومنع الاعتداء عليه :
« وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ ٱللَّهِ »[1] ..

أما الغصب فهو محرم ملعون من يجترحه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من ظلم من الأرض شيئاً طُوِّقه من سبع أرضين[2] » . « من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان »[3] .

وكحق الملكية حق الإرث والتوريث : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ . وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ » . . « يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ »..« يَسْتَفْتُونَكَ . قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ... الخ » .

وتقرير حق الملكية الفردية يحقق العدالة بين الجهد والجزاء، فوق مسايرته للفطرة، واتفاقه مع الميول الأصيلة في النفس البشرية ، تلك الميول التي يحسب الإسلام حسابها في إقامة نظام المجتمع ؛ وفي الوقت ذاته يتفق مع مصلحة الجماعة بإغراء الفرد على بذل أقصى جهد في طوقه لتنمية الحياة . فوق ما يحقق من العزة والكرامة والاستقلال ونمو الشخصية للأفراد بحيث يصلحون أن يكونوا أمناء على هذا الدين ؛ يقفون في وجه المنكر، ويحاسبون الحاكم وينصحونه . دون خوف من انقطاع أرزاقهم لو كانت في يديه !

فالفرد مخلوق بفطرة حب الخير لذاته : « وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » مفطور على حب الحيازة والضن بما يملك : « قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ، إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنْفَاقِ »..« وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنْفُسُ ٱلشُّحَّ »..مفطور كذلك على حب ذريته والرغبة في أن يورثهم نتاج كده ، والمال الذي يدخره لهم إن هو إلا عمل مختزن في

(١) سورة المائدة : [٣٨] .
(٢) الشيخان واللفظ للبخاري . (٣) حديث رقم ٣٩٤٦ مسند الإمام أحمد نشر الأستاذ أحمد شاكر .

صورة مال . يؤثر به الرجل ذريته على متاعه الخاص فى حياته . ولا ضير من مجاراة هذه الميول الفطرية ، ليبذل الفرد أقصى طاقته ،وهو نشيط مقبل على العمل والإنتاج ، لأنه يلبي أشواقه وحاجات نفسه ، ولا يحس أنه مسخر للعمل ، ولا يبذل جهده كارهاً ولا يائساً . والجماعة هى التى تفيد بعد ذلك من جهده هذا وكده ؛ والإسلام يضع القواعد التى تتيح للجماعة هذه الفائدة ، وتضمن كف الأذى من إطلاق حرية الفرد ، وتقرير حق الملكية الفردية له .

والعدالة تقتضى أن يلبي النظام أشواق الفرد ويرضى ميوله — فى الحدود التى لا تضر الجماعة — جزاء ما بذل هـذا الفرد من طاقته وجهده ، وعرق جبينه ، وكدح فكره ، وكد أعصابه ـ والعدل أكبر قواعد الإسلام . والعدالة الاجتماعية لا تكون دائما على حساب الفرد . فهى للفرد ، كما هى للجماعة . متى شئنا أن نسلك طريقاً وسطاً ، ونحقق العدالة فى جميع صورها وأشكالها فى الحياة .

وفضلا على هذا كله فإن أحداً لا يجزم بأن تحطيم الحوافز الطبيعية المعقولة ينتج خيراً للفرد أو للجماعة ؛ وسوء الظن بالفطرة هو الذى يعين طريقاً واحداً للعدالة ، بتحطيم هذه الحوافز والوقوف فى وجهها ؛ كما أن النظريات الخيالية التى لا تعترف بالواقع ، هى التى تفترض أن هذه الحوافز يمكن القضاء عليها من الخارج بالنظم والتشريعات فى جيل أو عدة أجيال. والإسلام لا يسوء ظنه بالفطرة إلى هذا الحد ؛ كما أنه لا يعمد إلى إقامة بنيانه على الخيال، متجاهلا كل الواقع العميق !

كذلك يمكن القول بأن احترام الإنسانية يقتضى أن ننظر إليها نظرة أعمق وأكثر إدراكا لعمق طبيعتها ، وأصالة فطرتها ، وتأصل جذورها ، فنكون أكثر تعقلا ، وأشد تحرجاً ، وأدق تفكيراً فى محاولة توجيهها ، وإقامة نظمها ؛ فدلائل ملايين السنين التى

عاشتها البشرية لايجوز أن تذهب سدى ، لنفترض نظريات عن ميولها وفطرتها وسلوكها، ثم نطبق هذه النظريات غصباً وقسراً !

أما تقرير حق الإرث والتوريث فقد سبق الحديث عن علته فى فصل « التكافل الاجتماعى » وهو يتمشى مع الفطرة التى تحدثنا عنها هنا ، كما يتمشى مع العدالة فى مستواها الأعلى ، ومع مصلحة الجماعة فى حدود النظرة الشاملة ، التى لاتضع الحواجز بين الجيل والأجيال من بني الإنسان ! وذلك فوق أنه وسيلة من وسائل تفتيت الثروة كما سيجئ .

طبيعة الملكية الفردية :

ولكن الإسلام لا يدع حق الملكية الفردية مطلقاً بلا قيود ولا حدود ــ كالنظام الرأسمالى ــ فهو يقرره ، ويقرر بجواره مبادئ أخرى ، تجعله أداة لتحقيق مصلحة الجماعة بنفس الدرجة التى تتحقق بها مصلحة الفرد المالك سواء ! وهو يشرعه ويشرع له الحدود والقيود ، التى ترسم لصاحبه طرقا معينة فى تنميته وإنفاقه وتداوله .. ومصلحة الجماعة كامنة من وراء هذا كله ، ومصلحة الفرد ذاته كذلك ، فى حدود الأهداف الخلقية التى يقيم الإسلام عليها الحياة .

وأول مبدأ يقرره الإسلام ــ بجوار حق الملكية الفردية ــ أن الفرد أشبه شيء بالوكيل فى هذا المال عن الجماعة ؛ وأن حيازته له إنما هى وظيفة أكثر منها امتلاكا ؛ وأن المال فى عمومه إنما هو أصلا حق للجماعة ، والجماعة مستخلفة فيه عن الله ، الذى لامالك لشيء سواه . والملكية الفردية تنشأ من بذل الفرد جهدا خاصا لحيازة شيء معين من هذه الملكية العامة التى استخلف الله فيها جنس الإنسان .

جاء فى القرآن الكريم : « آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ

فيه »[1] .. ولا يحتاج نص الآية إلى تأويل ليؤدى المعنى الذى فهمناه منه ، وهو أن المال الذى فى أيدى البشر هو مال الله ؛ وهم فيه خلفاء لا أصلاء . وفى آية أخرى فى صدد المكاتبين من الأرقاء : « وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى آتَاكُمْ »[2] .. فما يعطونهم هذا المال من ملكهم ، ولكنهم يعطونهم من مال الله وهم فيه وسطاء .

وهنالك ماهو أصرح من هذا فى حقيقة ملكية المال الفردية، بوصفها ملكية التصرف والانتفاع ـ وهذا هو الواقع ؛ فالملكية العينية لا قيمة لها بدون حق التصرف والانتفاع ـ فشرط بقاء هذه الوظيفة هو الصلاحية للتصرف ؛ فإذا سفه التصرف كان للولى أو للجماعة استرداد حق التصرف : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ »[3].. فحق التصرف مرهون بالرشد وإحسان القيام بالوظيفة ؛ فإذا لم يحققهما المالك وقفت النتائج الطبيعية للملك وهى حقوق التصرف. ويؤيد هذا المبدأ أن الإمام هو وريث من لا وريث له . فهو مال الجماعة وظف فيه فرد ، فلما انقطع خلفه عاد المال إلى مصدره .

ولست أقرر هـذا الأصل لأقرر شيوعية المـال ـ فحق الملكية الفردية حق أساسى واضح فى النظام الإسلامى ـ ولكنى أقرره لما فيه من معنى دقيق مفيد فى تكوين فكرة حقيقية عن طبيعة الملكية الفردية ، وتقيدها بهذا الأصل العام فى نظرة الإسلام إلى المال، واختلافها كلية عن النظرية الرأسمالية فى الملكية الفردية . وبلغة أوضح : أقرر أن شعور الفرد بأنه مجرد موظف فى هذا المال الذى فى يده والذى هو فى أصله ملك للجماعة ، يجعله يتقبل الفروض التى يضعها النظام على عاتقه ، والقيود التى يحد بها تصرفاته ؛ كما أن شعور الجماعة بحقها الأصيل فى هذا المال ، يجعلها أجرأ فى فرض الفروض ، وسن الحدود ـ دون

---

(١) سورة الحديد [٧] .
(٢) سورة النور : [٣٣] .
(٣) سورة النساء : [٥] .

تجاوز لقواعد النظام الإسلامى التى أشرنا إليها .. وينتهى بهذا إلى قواعد تحقق العدالة الاجتماعية كاملة فى الانتفاع بهذا المال .

ومبدأ آخر يقرره الإسلام فى ملكية المال ، هو كراهيته لأن يحبس فى أيدى فئة خاصة من الناس ، يتداول بينهم ، ولا يجده الآخرون : « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ »(١) .. ومعنى هذا أن يؤخذ بعض المال من الأغنياء فيملك بالفعل للفقراء . ولهذا النص قصة تفيدنا هنا فى فهم هذا المبدأ الإسلامى العام .

لقد هاجر المهاجرون مع النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ؛ فأما الفقراء فما كان لهم مال ينقلونه معهم ؛ وأما الأغنياء فقد تركوا أموالهم خلفهم ، فهم فقراء كالفقراء . ولقد سخت نفوس الأنصار وارتفعت على الشح الفطرى الكامن فى النفس البشرية ؛ فآخوا المهاجرين فى كل شئ يملكون ، حتى فى أخص خصوصياتهم ، طيبة نفوسهم بذلك ، سمحة قلوبهم : « يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ »(٢) .. وبذلك كانوا نموذجاً رائعاً لما تصنعه العقيدة بالنفوس ؛ وضربوا مثلا جميلا للتخلص من ضغط الضرورات والانطلاق إلى أرفع الأشواق .

ولكن الفجوة ظلت واسعة بين أثرياء المدينة ، وفقراء المهاجرين ؛ والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى سماحة الأنصار وسخاءهم ، فلا يجد أن به حاجة لأن يطلب إليهم أكثر مما بذلوا ، ولا أن يكلفهم رد بعض من أموالهم على المهاجرين ، وهم يؤاخونهم فى كل ما يملكون .. إلى أن كانت موقعة « بنى النضير » التى لم تقع فيها حرب ، بل سلمت للنبى صلحاً ، فكان فيؤها كله لله وللرسول بخلاف مايقع فيه الحرب ، فتكون أربعة الأخماس للمقاتلين ، والخمس وحده لله وللرسول . عندئذ رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) سورة الحشر : [٧] . (٢) سورة الحشر : [٩] .

أن يعيد لجماعة المسلمين شيئاً من التوازن فى ملكية المال ؛ فمنح فىء بنى النضير للمهاجرين خاصة ،عدا رجلين فقيرين من الأنصار ، تنطبق عليهما الحكمة التى أوحت إليه بتخصيص هذا الفىء للمهاجرين .

وفى هذه الواقعة يقول القرآن : « مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ ، وَالْيَتَامَىٰ ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ – كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ – وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١) » .

ودلالة هذا التصرف من الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهذا التعليل لذلك التصرف فى القرآن ، غير خافية ولا فى حاجة إلى بيان ؛ فهى تقرر مبدأ إسلامياً صريحاً ، هو كراهة انحباس الثروة فى أيد قليلة فى الجماعة ؛ وضرورة تعديل الأوضاع التى تقع فيها هذه الظاهرة بتمليك الفقراء قسطا من المال . ليكون هناك نوع من التوازن ، و « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ذلك أن تضخم المال فى جانب وانحساره فى الجانب الآخر ، مثار مفسدة عظيمة ، فوق مايثيره من أحقاد وأضغان .. فحيثما وجدت ثروة فائضة ، كانت كالطاقة الحيوية الفائضة فى الجسد ، لا بد لها من تصريف ؛ وليس من المضمون دائما أن يكون هذا التصريف نظيفاً ومأمونا ، فلابد أن تأخذ طريقها أحيانا فى صورة ترف مفسد للنفس مهلك للجسد ، وفى صورة شهوات تقضى ، تجد متنفسها فى الجانب الآخر المحتاج إلى المال ، يصل إليه عن طريق بيع العرض والاتجار فيه ، ومن طريق الملق والكذب وفناء الشخصية ؛ لإرضاء شهوات الذين يملكون المال ، وتمليق غرورهم وخيلائهم ، والمضطر يركب الصعب ؛

---

(١) سورة الحشر : [٧ ، ٨] .

وصاحب المال المتضخم لايعنيه إلا أن يجد متصرفا للفائض من حيويته ، والفائض من ثروته . وليست الدعارة وسائر مايتصل بها من خمر وميسر وتجارة رقيق وقوادة ، وسقوط مروءة ، وضياع شرف .. سوى أعراض لتضخم الثروة فى جانب وانحسارها عن الجانب الآخر ، وعدم التوازن فى المجتمع نتيجة هذا التفاوت .

ذلك عدا أحقاد النفوس ، وتغير القلوب على ذوى الثراء الفاحش من المحرومين الذين لايجدون ماينفقون ؛ فهم إما أن يحقدوا ؛ وإما أن تتهاوى نفوسهم وتتهافت ، وتتضاءل قيمهم الذاتية فى نظر أنفسهم ؛ فتهون عليهم كراماتهم أمام سطوة المال ، ومظاهر الثراء ؛ ويصبحوا قطعاً آدمية حقيرة صغيرة ، لاهم لها إلا إرضاء أصحاب الثراء والجاه .

.. وهذا ماوقع فى النظام الرأسمالى ..

والإسلام على كثرة مايشيد بالقيم المعنوية ، لا يغفل أثر القيم الاقتصادية ؛ ولا يكلف الناس فوق طاقتهم البشرية ، مهما تسامى بهم عن الضرورات الأرضية . لذلك كره أن يكون المال دولة بين الأغنياء فحسب ؛ وجعل هذا أصلا من أصول نظريته فى سياسة المال . وأوجب رد بعض هذا المال للفقراء ؛ ليكون لهم مورد رزق مملوك لهم ، يضمن لهم الكرامة والذاتية ، ويجعلهم قادرين على القيام بأمانة هذا الدين فى التغيير على المنكر من الحكام والمحكومين سواء .

على أن هنالك نوعا من الأموال التى لا يجوز احتجازها للأفراد ، عدد الرسول منها ثلاثة : الماء ، والكلأ ، والنار : « الناس شركاء فى ثلاث : فى الماء والكلأ والنار[1] » ، بوصفها موارد ومرافق عامة ضرورية لحياة الجماعة فى البيئة العربية ، فالانتفاع بها للجماعة كلها على وجه الشيوع والمشاركة العامة . والضروريات لحياة الجماعة تختلف فى بيئة عن بيئة ، وفى عصر عن عصر ، والقياس – وهو أحد أصول التشريع فى الإسلام –

(١) ذكره صاحب مصابيح السنة فى الحسان .

ينفسح لسواها عند التطبيق مماهو فى حكمها ــ على ألا يؤثر ذلك فى القواعد الأساسية للنظام الإسلامى ؛ ولا يجرد الأفراد جميعا من ملكياتهم الخاصة ليصبحوا أجراء عند الدولة ، فإن الدولة عندئذ تملك استرقاقهم واستذلال رقابهم بأشد مما يملك الأفراد الأثرياء ، لأنها تضم قوة المال إلى قوة السلطان !

وهناك جزء من المال هو حق لبعض المحتاجين فى الجماعة ، وهو المفروض فى صورة زكاة : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (1) .. وهو يخرج من ملكية دافعى الزكاة إلى ملكية مستحقى الزكاة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين .... الخ » وهو حق تأخذه الجماعة ثم ترده مرة أخرى إلى الأفراد المحددين . فتكون وظيفة الجماعة حينئذ هى نقل الملكية الفردية من جهة إلى جهة ، ومن يد إلى يد أخرى ..

فخلاصة الحقيقة عن طبيعة الملكية الفردية فى الإسلام : أن الأصل هو أن المال للجماعة فى عمومها ؛ وأن الملكية الفردية وظيفة ذات شروط وقيود ؛ وأن بعض المال شائع لا حق لأحد فى امتلاكه ، ينتفع به الجميع على وجه المشاركة ، وأن جزءاً منه كذلك حق يرد إلى الجماعة لترده على فئات معينة فيها ، هى فى حاجة إليه ، لصلاح حالها وحال الجماعة معها .

وسائل التملك الفردى :

ويرتب الإسلام على نظريته هذه لطبيعة الملكية نتائجها المنطقية ، فيضع الشروط للتملك ، بحيث لا يخرج عن مصلحة الجماعة ، ومصلحة الفرد الداخلة فى مصلحة الجماعة لا تنفصل عنها أبدا .

فهو يقرر أولا أن الملكية لا تكون إلا بسلطان من الشارع . «فالشارع فى الحقيقة هو الذى أعطى الإنسان الملك بترتيبه على السبب الشرعى ،ولذا جاء فى بعض التعريفات:

---

(1) سورة المعارج [٢٤ ــ ٢٥]

« أن الملك حكم شرعي مقدر في العين أو المنفعة ، يقتضي تمكين من يضاف إليه من انتفاعه بالشيء وأخذ العوض عنه » .

« وهذا المعنى ، وهو أن الملكية لاتثبت إلا بإثبات الشارع وتقريره ، أمر متفق عليه بين فقهاء الإسلام ، لأن الحقوق كلها ، ومنها حق الملكية لاتثبت إلا بإثبات الشارع لها، وتقريره لأسبابها ، فالحق ليس ناشئاً عن طبائع الأشياء ، ولكنه ناشىء عن إذن الشارع، وجعله السبب منتجا لمسببه شرعاً (١) » .

ولهذا الحكم قيمته فى توضيح نظرية الإسلام فى حق الملكية ، فهى تمليك من الشارع، لفرد فى الجماعة، شيئاً خاصاً ، لم يكن ليحق له ملكه لولا هذا التمليك ، لأن الأصل أن المال مال الله مستخلف فيه بنو الإنسان ، وكل إذن بتخصيصه لابد أن يصدر من الشارع حقيقة أو حكما .

والعمل هو الوسيلة الوحيدة لنيل حق التملك فى الإسلام. العمل بكل أنواعه وألوانه. وفى هذا من العدالة بين الجهد والجزاء ما فيه. ولبيان ذلك نقول : إن وسائل التملك ابتداء للمال التى يعترف بها الإسلام هى :

أولا : الصيد .وهو الوسيلة البدائية الأولى فى حياة البشرية؛ وإن كانت ماتزال وسيلة للحصول على نوع من المال فى الأوساط التى ارتقت وتحضرت ، فصيد السمك واللآلىء والمرجان والإسفنج وما إليها موارد ضخمة من موارد الدول والأفراد .وصيد الطير والحيوان هواية وتجارة ...

ثانياً : إحياء الموات من الأرض التى لامالك لها ، بأية وسيلة من وسائل الإحياء . ولابد من أن يقوم الفرد بإحيائها فى ظرف ثلاث سنوات من وضع يده

(١) « الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الإسلامية » للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة .

عليها ، وإلا سقط حق ملكيته لها ، لأن الغرض هو إحياء الموات لتحقيق المصلحة العامة فى الاستفادة به ، وثلاث سنوات محك كاف لقدرة واضع اليد على هـذا الإحياء ، فإن لم تتبين هـذه القدرة عادت الأرض الموات التى لم يكن لها مالك للجماعة ، لا يحتجزها فرد منها : « عادِىُّ الأرض لله ولرسوله ، ثم لكم من بعد ، فمن أحيا أرضاً ميتة فهى له ؛ وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين [1] » .

والقانون الإسلامى هنا أحكم من القانون الوضعى المستمد من القانون الفرنسى . ففى هذا القانون يكفى « وضع اليد » مدة خمس عشرة سنة ، لتصبح الأرض ملكا لواضع اليد ، سواء أحياها أم تركها مواتاً فى هذه المدة وفيما بعدها كذلك . فالحكمة هنا منتفية فى تقرير حق الملكية ، ونظرية « الأمر الواقع » هى وحدها التى تتحكم ، وفرق بين النظرة الإسلامية ونظرة القانون الوضعى كبير !

ثالثاً : استخراج ما فى باطن الأرض من المعادن (الركاز) ، وهذا العمل يجعل أربعة أخماس ما يستخرج من معدن ملكا لمن استخرجه ، والخمس زكاة ، إذ كان هذا الركاز مباحا يحصل عليه الفرد بجهده وكده . وهنا لا بد من كلمة تقال : فقد كان ما يستخرج من الركاز إلى الوقت الذى شرع فيه هذا الحكم هو من المعادن القليلة الاستعمال ، كالذهب والفضة ، وهذه ليست من ضروريات الجماعة كلها كالبترول والفحم والحديد ، فهل يلحق البترول والفحم والحديد وما فى حكمها بالضروريات المشاعة كالماء والكلأ والنار ، أم بالركاز الذى كان معروفاً فى أوائل عهد الإسلام ؟ نحن نميل إلى رأى المالكية فى اعتبار هذه الأنواع ملكا عاما ، لا تنتقل ملكيته إلى مالك الأرض التى وجد فيها ، لأن تملكه للأرض لا يعنى تملك ما فيها ، إذ ليس لمثلها تملك الأرض وتطلب فى العادة .

---

(١) رواه أبو يوسف فى كتاب الخراج عن ليث عن طاوس .

رابعاً : تصنيع المادة الخامة ، لتفى بحاجة حيوية، وتحقق منفعة لم تـكن تحققها وهى خامة . أو تحسين وظيفتها بحيث تؤدى منفعة أكبر .. وقيمة العمل ـ بأنواعه ـ واضحة فى هذه العملية .

خامسا : التجارة ، وتتضمن مراحل متعددة قد يقوم بها كلها فرد واحد أو أفراد متعددون .ولـكن الغاية التى تتحقق فى النهاية هى نقل الأشياءالخامة أو المصنعة من يدإلى يد ، مما يزيد الانتفاع بالخامة أو السلعة .

سادسا : العمل بأجر للآخرين . والإسلام يحترم هـذا العمل ويعظمه ؛ ويدعو إلى توفية أجره معجلا كاملاغير منقوص . فالقرآن يغرى بالعمل ؛ ويجعله معرضاً للأنظار ، محلاللنظر والحـكم : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَـكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ [(1)] »..وفى ذلك إغراء بالتجويد والإتقان، كما أن فيه تعظيما للعمل يجعله موضع النظر والترقبوالتأمل. وفى موضع آخريحض على السعىوالاضطراب فى الأرض منأجله : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ [(2)] » .

والرسول الـكريم تتواردأحاديثه تترى عن قداسة العمل : « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف » [(3)] . « ما أكل أحـدكم طعاماً قط خيرا من عمل يده » [(4)] .

وعلى أساس هذه النظرة للعمل ، يحترم الإسلام حق العامل فى الأجر . فهو يدعو أولا إلى الوفاء به ، وينذر من يجور عليه من أصحاب العمل بحرب من الله وخصومة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منهولم يعطه

---

(1) سورة التوبة : [١٠٥] .
(2) سورة الملك : [١٥] .
(3) من حديث ذكره القرطبى فى التفسير .
(4) البخارى .

أجره »[1]. والجمع بين هذه المعاصى الثلاثة، وتوحيد الجزاء عليها، ذو دلالة خاصة ،فالمعصية الأولى هى خيانة وغدر لذمة الله ، والثانية هى جريمة إهدار لإنسانية حر وأكل ثمنه. والثالثة هى أكل عرق الأجير ،وهى كأكل ثمن الحر غدر بالإنسانية ، وكخيانة العهد بعد الحلف بالله غدر بذمة الخالق . وكل منها يستحق الحرب من الله والخصومة ، لشناعتها ووضوح معنى الغدر فيها .

وهو يدعو ثانياً إلى التعجيل بأداء هذا الأجر ، فلا يكفى أداؤه كاملا ، بل لابد من أدائه عاجلا . يقول الرسول الكريم : « أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه »[2]. والإسلام يلحظ فى هذا حاجة نفسية وحاجة واقعية فى حياة العامل . فأما الحاجة النفسية فهى إشعاره بالعناية والاهتمام ، فالسرعة فى أداء الأجر تحمل هذا المعنى ، فيشعر بأن جهده مقدر وبأن مكانه فى المجتمع محسوب . وأما الحاجة الواقعية فلأن العامل غالباً مايكون محتاجاً لأجره أولا بأول ، يسد به ضرورياته هو وأهله وعياله ؛ وتأخير أدائه يؤذيه ؛ ويحرمه ثمرة جهده وعرقه فى أنسب أوقاتها عنده ؛ ويقلل من نشاطه ورغبته فى العمل . والإسلام حريص على أن يعمل كل من يستطيع ، بأقصى ما يستطيع ،متمتعاً بالرضى النفسي والاكتفاء المادى .

ولقد طلب الإسلام إلى العامل فى مقابل هذه العناية بحقه أن يقوم هو من جانبه بتجويد العمل وإتقانه . فلكل حق مقابل من الواجب فى الإسلام . وذلك طبيعى من ناحية التعادل بين الجهد والجزاء ؛ وطبيعى كذلك من الناحية الخلقية التى يحرص الإسلام على أن تكون أساساً للحياة . فالغش والإهمال فى العمل دليل فساد الذمة ونومة الضمير ، واللجاج فيهما والاعتياد عليهما من شأنه أن يدع تلك الذمة خرابا ، وهذا الضمير خواء ، فوق مايصيب مصالح الجماعة كلها من فساد واضطراب .

(١) البخارى .

(٢) ذكره صاحب مصابيح السنة فى الصحاح .

ولا ندخل هنا فى تفصيلات نسبة أجر العامل . ولا القاعدة التى تقوم عليها . وهل هى الساعات التى تنفق فى إنتاج السلعة . أم « الوقت الاجتماعى » كما تقول الماركسية ! فهذه بحوث تفصيلية موضعها الكلام عن « الاقتصاد الإسلامى » فى بحوث متخصصة .

سابعاً : الغزو ، وينشأ عنه ملكية السَّلَب وهو كل ما مع القتيل المشرك الذى يقتله مسلم : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَسَلَبُهُ له[1] » . كما تنشأ عنه ملكية الغنيمة؛ وأربعة أخماسها للمحاربين ، وخمسها لله والرسول : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ »[2] .

ثامناً : إقطاع السلطان بعض الأرض التى لامالك لها ، مما آل إلى بيت مال المسلمين، من المشركين الذين لا ورثة لهم ،فالإمام وليهم ؛ أو من الأرض الموات لا مالك لها كذلك. وقد أقطع النبى صلى الله عليه وسلم أبابكر وعمر أرضاً، كما أقطع الخلفاء من بعده ، مكافأة على جهد بارز وخدمة للإسلام ، ولكن فى حدود ضيقة ، ومن الأرض التى لامالك لها والأرض الموات . فلما جاء بنو أمية نهبوا الناس وأقطعوا الأرض لذويهم ، فكانوا ملوكا ظلمة ، لا خلفاء راشدين كما سيجىء .

تاسعاً : الحاجة إلى المال للحياة ،فالإسلام شرع صرف أموال الزكاة فى وجوه معينة: « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ ؛ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ » . فكون الإنسان واحداً من هؤلاء يجعله صاحب حق فى ملكية نصيب من أموال الزكاة . وبعضهم لا يعمل شيئاً إلا كونه محتاجاً ! فالحاجة هنا بديل اضطرارى من العمل الذى يكرمه الإسلام ، ويجعله السبب الأول والأخير لنيل الامتلاك .

---

(١) الشيخان والترمذى والنسائى . (٢) سورة الأنفال : [٤١] .

عاشرا : شتى صور « العمل » التى تتجدد ، وتتمثل فى بذل جهد عقلى أو عضلى ...

تلك هى الأسباب التى اعترف بها الإسلام سبباً للتملك ابتداء ، فأما ماعداها فهو ينكره ، ولا يعترف به ، فالسلب والنهب والغصب والسرقة ووضع اليد لا تسبب ملكا ، وكذلك المقامرة فهى حرام : « إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ ، فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[1] .. والمال الذى يأتى عن طريق المحرم محرم ، لأن القمار ليس عملاً ، إنما هو ابتزاز ، فوق مايقع من العداوة والبغضاء بين المتقامرين مما يتنافى مع خطة الإسلام الأولى فى بث روح المودة والتعاون والإخاء : « إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ »[2] .

وحكمة تلك الأسباب واضحة فى اعتمادها كلها على بذل الجهد ؛ فالجهد له جزاء ، وهو من مقومات الحياة ، وفية تحقيق لعمارة الأرض ، وإفادة المجتمع ، وتهذيب النفس ، وتطهير الضمير وتصحيح البنية ؛ فليس كالعمل مهذب للروح ، مقوٍّ للجسد ، حافظ لكيان الإنسان كله من عوامل الترهل والكسل والخمول .

ومادام العمل ــ بشتى صوره ــ هو سبب التملك ، فتقرير حق الملكية الفردية فى الحدود التى بَيَّنَّا لا يضارّ به أحد ، بل يصبح مجالا لحث الفرد على بذل أقصى الجهد ، ليرضى رغبته فى الاستحواذ ، مادام يعمل فى الحدود المشروعة فلا يضار أحداً . فإذا حاد عن هذه الحدود فالطريق إلى العدل هو رده إليها ، لا وقفه عن النشاط ، وتسويته بالقاعدين والخاملين وضعاف الاستعداد ، ولا كفه عن التملك أصلا بحجة أخذ الطريق على سوء الاستغلال . فسوء الاستغلال له علاجه ويمكن التدخل لكفه بقدر الضرورة .

وتمشياً مع نظرية الإسلام فى ملكية المال ابتداء ، فإنه يتدخل فى طريقة نقل هذه الملكية فلا يدع الحرية فيها مطلقة ؛ ويبدو هذا فى نظام الإرث والوصية والبيع وسائر

(١ ، ٢) سورة المائدة : [٩٠ ، ٩١] .

العقود . أما الهبة والهدية فهما وحدهما المعفيان من كل قيد ، المتروكة فيهما الحرّية لصاحب المال أن يهب من ماله أو يهدى وهو حى كيف شاء ؛ لأن لهما قيداً من داخل النفس ، هو أن صاحب المال لا يهب عادة ولا يهدى إلا بعض ماله ، فلا ضرر على وارث ، كما يقع فى الوصية ، فإذا أسرف كان سيىء التصرف ، وتعرض للحجر عليه ، أى سلب حق التصرف فى ملكيته .

فأما حين ترتفع يده عن المال فينتقل إلى من بعده من الورثة أو الموصى إليهم ، فإنما ينتقل حسب نظام موضوع له حكمته وله مبرّراته : « فلا وصية لوارث »(1) . ولا وصية فى غير الثلث ، وهو الحد الأقصى . وقد شرعت الوصية ـ كما قلنا ـ لتلافى بعض الحالات التى يحرم فيها من الإرث أقرباء توجب صلاتهم أن يكون لهم نصيب ، ولكن درجتهم تجعل غيرهم من الورثة يحجبونهم عن الميراث ، كما أنها بهذا الاعتبار وجه من وجوه البر والصدقة .

وينتقل المال بالإرث حسب النظام المبين فى آيتى الميراث . (وقد سبق نصهما فى فصل التكافل الاجتماعى) .

والمبدأ العام فى الأنصبة : أن للذكر مثل حظ الأنثيين ـ وقد كشفنا عن حكمة هذا التقسيم من قبل ـ وأن الوريث العاصب مقدم على ذى الرحم ، وإن كانت هناك حالات يخرج فيها ذو الرحم بنصيب أوفى . وذلك جزاء وفاق على ترتيب التبعات فى مقابل الحقوق . فالوريث العاصب مكلف تجاه المورث بتبعات أكبر . فالولد مثلا يرث الكل بعد نصيب الجد والجدة ، لأنه هو المكلف أولا أن ينفق على الوالد لو احتاج فى حياته . والأخ الشقيق يحجب غير الشقيق ، لأنه هو الذى تجب عليه النفقة شرعاً عندما يعجز شقيقه عن الكسب . وهكذا تتوزع المغارم والمغانم أو الواجبات والحقوق فى هذا النظام توزيعا عادلا .

---

(1) أبو داود والترمذى .

ولقد تحدثنا عن حكمة مبدأ الوراثة فى فصل التكافل الاجتماعى بما فيه الكفاية ، وبينا اتساقه مع مبادىء الإسلام الأساسية فى هذا التكافل ، وفى النظرة إلى العلاقات بين الأقرباء وبين الجيل والأجيال ، ومراعاته كذلك للفطرة والميول وحاجات الفرد والجماعة على السواء .

فهنا نتحدث عن حكمة نظام الإرث فى أحوال الجماعة .

لقد رأينا أن الإسلام يكره تكدس الثروات،وانحصارها فى أيد قليلة . ونظام الإرث الإسلامى أداة لتفتيت الثروات المتضخمة على توالى الأجيال . فالملكية الواحدة تنتقل إلى العديد من الذرية والأقارب بمجرد وفاة المالك ، فتستحيل إلى ثروات متوسطة أو صغيرة؛ وقلما تبقى كتلتها موحدة مع هذا النظام إلا فى حالات نادرة لا يقاس عليها ، كأن يموت المالك وليس له إلا ولد يرث التركة كلها ، لأنه ليس له أب ولا أم ولا زوجة ولا بنت ! أما فى الأحوال الغالبة فالثروة تتوزع على عدة أفراد .

فإذا نحن وازنا بين هذا النظام والنظام الإنجليزى مثلا،الذى يجعل التركة كلها للابن الأكبر ، تبينت لنا حكمة الإسلام واضحة فى تفتيت الثروة المتكتلة ، فوق مافى نظامه من عدالة بين الورثة ، لا تحنق الصدور على الولد الكبير .

طرق تنمية الملكية :

وتمشيا مع نظرية الإسلام كذلك فى ملكية المال ، يتدخل فى طريقة تنميته والتعامل به ، فلا يدع الحرية مطلقة لصاحب المال أن يتصرف به فى هذا السبيل كيف شاء . فإن وراء مصلحة الفرد مصلحة الجماعة التى يتعامل معها .

لكل فرد إذن الحرية فى تنمية أمواله ، ولكن فى الحدود المشروعة . فله أن يفلح الأرض ، وأن يحول المادة الخامة إلى مصنوعات ، وله أن يتجر . . . الخ .

ولـكن ليس له أن يغش ، أو يحتكر ضروريات الناس ، أو أن يعطى أمواله بالربا ، أو أن يظلم فى أجور العمال ، ليزيد فى أرباحه . فذلك كله حرام . إنما هى الوسائل النظيفة وحدها التى يبيحها الإسلام لتنمية المال . والوسائل النظيفة عادة لا تضخم رؤوس الأموال إلى الحد الذى يباعد الفوارق بين الطبقات . إنما تتضخم رؤوس الأموال ذلك التضخم الفاحش الذى نراه فى النظام الرأسمالى ، بالغش والربا وأكل الأجور والاحتكار واستغلال الحاجة والابتزاز والنهب والسلب والاغتصاب . . . إلى آخر الجرائم الـكامنة وراء طرق الاستغلال المعاصرة . وهذا ما لا يسمح به الإسلام . . . فلنأخذ الآن فى بيان حكم الإسلام وحكمته فى وسائل تنمية المـال .

* * *

«ا» يحرم الإسلام الغش فى المعاملة : « من غش فليس منى[1] » . « البيّعان بالخيار مالم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما[2] » فلك أن تبيع وأن تشترى ، على ألا تغش فى السلعة ولا فى العملة ، فإن كان بها عيب فعليك بيانه ، وإلا فأنت غاش وربحك عليك حرام ، ولن ينجيك من المؤاخذة أن تتصدق بهذا الربح الحرام ، فالصدقة لا تحسب لك إلا من مالك الحلال : عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يـكسب عبد مالاً حراماً فيتصدق منه ، فيقبل منه ، ولا ينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله لا يمحو السيىء بالسيىء ، ولـكن يمحو السيىء بالحسن . إن الخبيث لا يمحو الخبيث[3] » . وقال : « إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به[4] » .

(١) أصحاب السنن . (٢) الشيخان .
(٣) ذكره صاحب مصابيح السنة مرويا عن ابن مسعود وقال : من الصحاح .
(٤) أخرجه الترمذى والنسائى .

والإسلام فى هذا يسير على قواعده الخلقية ، كما يسير على مبادئه فى منع الضرر وتحقيق التعاون بين الناس ، فالغش قذارة ضمير،وإضرار بالآخرين ،ورفع للثقة من صدور الناس . ولاتعاون فى الجماعة من غير ثقة . فضلا على أن ثمرة الغش هى الحصول على كسب بلا جهد مشروع . وقاعدة الإسلام العامة هى أن لا كسب بلا جهد ، كما أنه لا جهد بلا جزاء .

« ب » واحتكار ضرور ت الناس لايعترف به الإسلام وسيلة من وسائل الكسب وتنمية المال : « من احتكر فم ، خاطىء [1] » . ذلك أن الاحتكار إهدار لحرية التجارة والصناعة ، فالمحتكر لايسمح سواه أن يجتلب ما يجتلبه ، أو يصنع ما يصنعه ؛ وبذلك يتحكم فى السوق ، ويفرض على الناس مايشاء من أسعار ، فيكلفهم عنتاً ، ويحملهم مشقة ، ويضارهم فى حياتهم وضرورياتهم ، فوق أنه يقفل باب الفرص أمام الآخرين ليرتزقوا كما ارتزق ، وليجوّدا فوق ماجوّد ؛ وقد يقع أحياناً أن يسد المحتكر الموارد وأن يتلف البضاعة الفائضة ، حتى يتمكن من فرض سعر إجبارى ؛ وفى ذلك إعدام أو نقص فى الأرزاق والأقوات العامة التى أتاحها الله للإنسان فى الأرض .

ولقد بلغ حرص الإسلام على منع هذه الوسيلة من وسائل تنمية المال ، أن جعل الاحتكار مبعداً للمحتكر من دائرة الدين : « من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه [2] » . فما هو بمسلم ذلك الذى يضار الجماعة هذه المضارة ، ويشيع فيها الخوف ، والحاجة إلى الضرورى ؛ ليحصل منها على كسب حرام يزيد به ماله الخاص على حساب الصالح العام.

---

(١) مسلم وأبو داود والترمذى .
(٢) حديث رقم ٤٨٨٠ مسند أحمد شرح الأستاذ أحمد شاكر .

« جـ » والربا وسيلة محرمة يكرهها الإسلام كراهية واضحة ، ويبشعها تبشيعاً شديداً وينذر أصحابها بأشنع مصير : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (١) .. وليس النهى هنا عن الأضعاف المضاعفة فتحل النسب الصغيرة ، إنما هذا تقرير للواقع ، ووصف لما هو كائن . أما النهى فمنصب على أصل الربا ومبدئه المجرد ، يتضح ذلك فى الآيات الأخرى : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا .وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ،وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢) ».. « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٣) » .

ويبلغ الإسلام فى تفظيع الربا إلى حد أن يلعن كل من شارك فى صفقة من صفقاته ، ولو كاتباً أو شاهداً . عن جابر قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ؛ وقال : هم سواء (٤) » .

يجرى الإسلام فى كل هذا على مبادئه فى المال والأخلاق ومصالح الجماعة . فالمال وديعة فى يد صاحبه وهو موظف فيه لخير الجماعة جميعاً ، فليس له أن يقلب الوظيفة إضراراً بالناس وابتزازاً ، يتحين ساعة احتياجهم ، ويستغل ضعف موقفهم ، فيأخذ منهم أكثر مما أعطاهم ؛ وقد تكون الحاجة هى حاجة الطعام للحياة ، وحاجة الدواء للعلاج ، وحاجة النفقة للعلم ولغير

---

(١) سورة آل عمران : [١٣٠] .
(٢) سورة البقرة : [٢٧٥] .
(٣) سورة البقرة : [٢٧٨ ـ ٢٧٩] .
(٤) رواه مسلم .

العلم ؛ فإما أن يتعطل هذا كله ، وإما أن يتحكم صاحب المال فى المحتاج إلى المال فيمنحه القليل ، ويسترد منه الكثير ؛ ويظلمه بذلك جهده ؛ فيكد ويعمل ليؤدى للمرابى رباه،أو يتضاعف الدين عاماً بعد عام .

هذا الجزء الفائض يستمتع به صاحب المال ، وهو لم يعمل شيئاًسوى أنه صاحب‌مال! إنه العرق والدم يلغ فيهما بشراهة ، ويمتصهما فى نهم وهو قاعد . والإسلام الذى يقدس العمل ، ويجعله السبب الأساسى للملك والربح ، لايسيغ أن يفيد المال قاعد ، ولا أن يلد المالُ المالَ . إنما يلد المالَ الجهدُ ، وإلا فهو حرام !

ويلحظ الإسلام طهارة خلق الفرد كما يلحظ المودة بين‌الجماعة : فما يأكل الربا فرد له خلق وضمير ، ومايشيع الربا فى الجماعة وتبقى فيها مودة وتعارف . والذى يمنحنى الدينار ليسترده منى دينارين هو عدوى، فما أطيب له نفسا ، وما أحمل له ودا . والتعاون‌أصل من أصول المجتمع الإسلامى ، يهدمه الربا ويوهن أساسه . لذلك يكرهه الإسلام .

وثمة حكمة أخرى تبرز لنا فى هذا العصر الحديث لتحريم الربا ، ربما لم تكن بارزة حينذاك :ذلك أن الربا وسيلة لتضخيم‌رؤوس الأموال تضخيما شديداً . لايقوم‌على الجهد؛ ولاينشأ من العمل ؛ مما يجعل‌طائفة من القاعدين يعتمدون على‌هذه الوسيلة وحدها فى تنمية أموالهم وتضخيمها ، فيشيع بينهم الترهل والبطالة والترف على حساب الكادحين الذين يحتاجون للمال فيأخذونه بالربا فى ساعةالعسرة . وينشأ عن‌ذلك‌مرضان اجتماعيان‌خطران: تضخيم الثروات إلى غير حد، وتفريق الطبقات علوا وسفلا بغير قيد ؛ ثم‌وجود طبقةمتعطلة مترهلة مترفة لاتعمل شيئاً ، وتحصل على كل شيء ؛ وكأنما المال الذى فى يديها فخاخ لصيد المال ، دون أن تتكلف حتى الطعم لهذه الفخاخ ؛ إنما يقع فيها المحتاجون عفواً ، ويساقون إليها بأقدامهم تدفعهم الضرورات ! ذلك إلى أن أكل‌الربايخالف القاعدةالأساسيةللتصور

الإسلامى وهى أن المال لله ، جعل الناس فيه خلفاء ، وفق شروط المستخلف ــ وهو الله سبحانه ــ لا كما يشاء الناس !

« إنه يقوم ابتداء على أساس أن لاعلاقة بين إرادة الله سبحانه وحياة البشر . فالإنسان هو سيد هذه الأرض ابتداء ؛ وهو غير مقيد بعهد من الله ؛ وغير ملزم باتباع أوامر الله .

«ثم إن الفرد حر فى وسائل حصوله على المال ، وفى طرق تنميته ، كما هو حر فى التمتع به . غير ملتزم فى شيء من هذا بعهد من الله أو شرط ، وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين. ومن ثم فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا هو أضاف إلى خزانته ورصيده ما يستطيع إضافته. وقد تتدخل القوانين الوضعية أحيانا فى الحد من حريته هذه ــ جزئيا ــ فى تحديد سعر الفائدة مثلا وفى منع أنواع من الاحتيال والنصب والغصب والنهب والغش والضرر. ولكن هذا التدخل يعود إلى ما يتواضع عليه الناس أنفسهم ، وما تقودهم إليه أهواؤهم؛ لا إلى مبدأ ثابت مفروض من سلطة إلٰهية !

«كذلك يقوم على أساس تصور خاطئ فاسد : هو أن غاية الغايات للوجود الإنسانى هى تحصيله للمـال ــ بأية وسيلة ــ واستمتاعه به على النحــو الذى يهوى ! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى المتاع به ، ويدوس فى الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين !

« ثم ينشئ فى النهاية نظاما يسحق البشرية سحقا ، ويشقيها فى حياتها أفرادا وجماعات ودولا وشعوبا ، لمصلحة حفنة من المرابين؛ ويحطها أخلاقيا ونفسيا وعصبيا ؛ ويحدث الخلل فى دورة المال ونمو الاقتصاد البشرى نموا سويا .. وينتهى ــ كما انتهى العصر الحديث ــ إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملى على البشرية كلها فى أيدى زمرة من أحط خلق

الله وأشدهم شرا ؛ وشرذمة ممن لا يرعون فى البشرية إلّا ولا ذمة ، ولا يراقبون فيهاعهدا ولا حرمة . .

«وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفرادا، كما يداينون الحكومات والشعوب ـ فى داخل بلادهم وفى خارجها ـ وترجع إليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها ، وكد الآدميين وعرقهم ودمائهم ، فى صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم جهدا فيها ! وهم لا يملكون المال وحده . . إنما يملكون النفوذ . . ولما لم تكن لهم مبادئ ولا أخلاق ولا تصور دينى أو أخلاقى ؛ بل لما كانوا يسخرون من حكاية الأديان والأخلاق والمثل والمبادئ ؛ فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذى يملكونه فى إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التى تمكنهم من زيادة الاستغلال ، ولاتقف فى طريق جشعهم وخسة أهدافهم .. وأقرب الوسائل هى تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها فى مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات ، التى يدفع فيها الكثيرون آخر فلس يملكونه ، حيث تسقط الفلوس فى المصائد والشباك المنصوبة ! وذلك مع التحكم فى جريان الاقتصاد العالمى وفق مصالحهم المحدودة ، مهما أدّى هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة فى عالم الاقتصاد ؛ وإلى انحراف الإنتاج الصناعى والاقتصادى كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة الممولين المرابين الذين تتجمع فى أيديهم خيوط الثروة العالمية !

«والكارثة التى تمت فى العصر الحديث ـ ولم تكن بهذه الصورة البشعة فى الجاهلية ـ هى أن هؤلاء المرابين ـ الذين كانوا يتمثلون فى الزمن الماضى فى صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن فى صورة مؤسسى المصارف العصرية ـ قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها ، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام فى الأرض كلها ..سواء فى ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما وغيرها .. أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين

يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم ، ويشربون عرقهم ودماءهم فى ظل النظام الربوى..
هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعى المعقول . والأساس الصحيح الذى لا أساس غيره للنمو الاقتصادى ؛ وأنه من بركات هذا النظام وحسناته كان هذا التقدم الحضارى فى الغرب . وأن الذين يريدون إبطاله جماعة من الخياليين ـ غير العمليين ـ وأنهم إنما يعتمدون فى نظرتهم هذه على مجرد نظريات أخلاقية ومثل خيالية لا رصيد لها من الواقع ؛ وهى كفيلة بإفساد النظام الاقتصادى كله لو سمح لها أن تتدخل فيه ! حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوى من هذا الجانب للسخرية من البشر الذين هم فى حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته ! ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمى نفسه ، الذى تضطره عصابات المرابين العالمية لأن يجرى جريانا غير طبيعى ولا سوى، ويتعرض للهزات الدورية المنظمة! وينحرف عن أن يكون نافعا للبشرية كلها، إلى أن يكون وقفا على حفنة من الذئاب قليلة !

إن النظام الربوى نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة ـ وقد بلغ من سوئه أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم ؛ وهم قد نشأوا فى ظله ، وأشربت عقولهم وثقافتهم تلك السموم التى تبثها عصابات المال فى كل فروع الثقافة والتصور والأخلاق. وفى مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين يعيبون هذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة «دكتور شاخت » الألمانى ومدير بنك الريخ الألمانى سابقا . وقد كان مما قاله فى محاضرة له بدمشق عام ١٩٥٣ إنه بعملية رياضية (غير متناهية) يتضح أن جميع المال فى الأرض صائر إلى عدد قليل جدا من المرابين . ذلك أن الدائن المرابى يربح دائما فى كل عملية ؛ بينما المدين معرض للربح والخسارة . ومن ثم فإن المال كله فى النهاية لابد ـ بالحساب الرياضى ـ أن يصير إلى الذى يربح دائما ! وأن هذه النظرية فى طريقها للتحقق الكامل . فإن معظم مال الأرض الآن يملكه ـ ملكا حقيقيا ـ بضعة ألوف ! أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون

من البنوك والعمال ، وغيرهم ، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال ، ويجنى ثمرة كدهم أولئك الألوف !

«وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة . فإن قيام النظام الاقتصادى على الأساس الربوى يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين فى التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة . فإن المرابى يجتهد فى الحصول على أكبر فائدة . ومن ثم يمسك المال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة إليه فيرتفع سعر الفائدة ؛ ويظل يرفع السعر حتى يجد العاملون فى التجارة والصناعة أنه لافائدة لهم من استخدام هذا المال ، لأنه لايدر عليهم ما يوفون به الفائدة ويفضل لهم منه شيء .. عندئذ ينكمش حجم المال المستخدم فى هذه المجالات التى تشتغل فيها الملايين ؛ وتضيق المصانع دائرة إنتاجها ، ويتعطل العمال ، فتقل القدرة على الشراء . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ، ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف ، يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطرارا . فيقبل عليه العاملون فى الصناعة والتجارة من جديد ، وتعود دورة الحياة إلى الرخاء .. وهكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية . ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة !

« ثم إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين . فإن أصحاب الصناعات والتجار لايدفعون فائدة الأموال التى يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين ، فهم يزيدونها فى أثمان السلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤها على أهل الأرض لتدخل فى جيوب المرابين فى النهاية . أما الديون التى تقترضها الحكومات من بيوت المال لتقوم بالإصلاحات والمشروعات العمرانية فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية كذلك . إذ أن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون وفوائدها . وبذلك يشترك كل فرد فى دفع هذه الجزية للمرابين فى نهاية المطاف ..

وقلما ينتهى الأمر عند هذا الحد ، ولا يكون الاستعمار هو نهاية الديون .. ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار ! »[1]

وإنه ليستوى أن يكون الدين للاستهلاك أو الإنتاج فى عرف الإسلام ؛ فإنه إن كان للاستهلاك أى لينفقه المستدين على حاجاته الضرورية ، فإنه لا يجوز أن يرهق برد فائض عن دينه ، فحسبه أن يرد أصل الدين عند الميسرة ؛ وإن كان للإنتاج ، فالأصل أن الجهد الذى يبذله هو الذى ينال عليه الربح ، لا المال الذى يستدينه ـ إلا عن طريق المشاركة ـ القائم على احتمال الربح والخسارة . لذلك يحرم الربا فى جميع الأحوال ، ويحتم إقراض المستقرض لضروراته فى جميع الأحوال .

فإن اقترض المقترض وأعسر « فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ [2] » . وأنا أرى أن الصيغة للأمر لأنها شرط وجواب : « وإنْ كانَ ذو عُسرةٍ فنظرةٌ إلَى ميسرةٍ » وهذه الصيغة تفيد الأمر لا الندب ؛ وبجوارها التحبيب فى التيسير والسماحة كقول الرسول : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى[3] » .. فالسماحة فى الاقتضاء تحفظ للمدين كرامته ، وتغرس المودة فى نفسه لدائنه ، وتحثه على الجهد فى الأداء قدر طاقته . وقال : « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه[4] » . وقال : من أنظر معسراً أو وضع له ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله [5] » .

ويفرض الإسلام فى مقابل هـذا على المدين أن يجتهد فى رد دينه ، إبراء لذمته ورداً لفضل الإقراض بفضل الوفاء ، وتمكيناً للثقة فى المعاملات بين الأفراد : « من أخذ أموال

---

(١) مقتطف من ظلال القرآن الجزء الثالث ص ٧٣ ـ ص ٧٦ .

(٢) سورة البقرة : [٢٨٠] . (٣) البخارى والترمذى .

(٤) مسلم . (٥) الترمذى .

الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله [1] » . فمن أخذها يريد أداءها جد وكد ليكسب ويسترزق ، وغالبا مايكسب المجد الصادق العزيمة ؛ ومن أخذها يريد إتلافها استمرأ أن يعيش بأموال الناس، وقعد عن العمل والجهد ، فاسترخى وسقطت همته وآض إلى تلف وبوار. وقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مطل الغنى ظلم » [2] وقال رجل : يارسول الله : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله .يكفر الله عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . . ثم قال : « كيف قلت ؟ فأعاد عليه ، فقال : « نعم إلا الدَّيْن ، فإن جبريل أخبرنى بذلك » [3] . وهكذا لايجزى عن المدين القادر على الأداء أن يقاتل فيقتل فى سبيل الله صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر ، لأن الدين يتعلق بحق الآخرين فى عنقه لاحق الله وحده ، مادام قادراً على أدائه . فأما العاجز فله من الزكاة نصيب : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ . . . وَالْغَارِمِينَ » وعليه تجوز الصدقة ليوفى دينه . عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال :أصيب رجل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمار ابتاعها فكثر دينه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا عليه » ، فتصدق الناس عليه، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرمائه : « خذوا ماوجدتم ، وليس لكم إلا ذلك » [4] .

ولقد خطا النبى صلى الله عليه وسلم خطوة أخرى عندما تهيأت له الأموال بعد الفتوح ، فكان يقضى دين المدينين بعد وفاتهم من المال العام . عن أبى هريره رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل : هل ترك

---

(١) البخارى . (٢) رواه الخمسة .
(٣) مالك ومسلم والترمذى والنسائى . (٤) الترمذى بسند صحيح .

لدينه قضاء » ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه ، وإلا قال للمسلمين : « صلوا على صاحبكم » . فلما فتح الله عليه الفتوح قام فقال : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن مات عليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته » (١) .

وهكذا يحرص الإسلام على رد الحقوق لأصحابها ، حرصه على إعانة المضطر والتيسير عليه فى الأداء ، فيجمع الأمر من أطرافه ، ويضمن المصالح جميعاً ، ويعدل فى القسمة بين الحقوق والواجبات .

طرق الإنفاق

تلك هى الحدود التى يضعها الإسلام لتنمية المال بالتعامل . أما إنفاقه فلا يدعه كذلك بلا ضوابط ، فصاحب المال ليس حرا فى غل يده فيه كما يشاء ، أو فى الإنفاق منه كما يشاء . ومع أن مثل هذا التصرف ذاتى ، إلا أن الفرد – فى الإسلام – ليس متروكا لذاته يصنع بها مايشاء ، فله حريته ولكن داخل إطار من الحدود ؛ ثم إنه قلما يكون هناك تصرف شخصى لا علاقة له بالآخرين – وإن لم تكن علاقة مباشرة أو واضحة .

فاليد المغلولة كاليد المسرفة كلتاهما لا يقبلها الإسلام ، لما فى كلتيهما من ضرر عائد على النفس وعلى الجماعة : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً » (٢) . . « يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » (٣) .

---

(١) الشيخان والترمذى والنسائى
(٢) سورة الإسراء : [٢٩] .
(٣) سورة الأعراف [٣١] .

فأما غل اليد فحرمان للنفس من المتاع المشروع ، والإسلام يكلف الفرد تمتيع ذاته فى الحدود المشروعة . ويكره للناس أن يحرموا فى غير محرم ، لأن الحياة لابد أن تستساغ ، وأن تجمّل ، وأن تكون بهيجة فى غير لهو ولا إسراف . والإسلام لايوجب التزمت والزهد والحرمان من طيبات الحياة ؛ فهو يأمر بنى آدم بأن يتزينوا الزينة اللائقة كما مر فى الآية الكريمة . ويقول القرآن فى لهجة استنكارية بعد ذلك : « قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ . وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ »[1] .

والإسلام يطلب الاستمتاع بمباهج الحياة المعقولة للناس جميعاً : كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم . لذلك وجه الخطاب هنا إلى « بنى آدم » . فإذا دعا فى بعض الأحيان إلى الصبر والرضى فليست هذه دعوة إلى التزهد والحرمان . إنما هى دعوة لاحتفاظ النفس بطمأنينتها على الشدائد إلى أن تزول أو تزال . أما بعد ذلك فكل فرد مطالب بأن يستمتع بالمتاع الحلال ؛ والجماعة مطالبة أن تهيء هذا المتاع لأفرادها جميعاً ، فلا تحرمهم مما يدعوهم الله أن يستمتعوا به فى الحياة .

لذلك قرر للفقراء — وهم الذين يملكون مادون نصاب الزكاة — نصيباً يعطونه من الزكاة للتوسعة عليهم فى الرزق ، لا لمجرد الكفاف ، فهم يملكون الكفاف . ذلك أن الإسلام لا يدعو للكفاف وحده ، إنما يدعو للمتاع بالحياة ، والمتاع فوق الكفاف .

فإذا كان الإسلام يعطى الفقير فضلة من أموال الزكاة يوسع بها على نفسه ويستمتع بما

(١) سورة الأعراف : [٣٢ — ٣٣] .

هو فوق ضروراته ، فأولى أن ينفق الواجد ، وأن يتمتع بالحياة متاعا معقولا ، وأن لا يحرم نفسه من طيباتها ، وهى كثيرة ، لتغدو الحياة بهيجة جميلة ، ولتنطلق النفس إلى ما هو فوق الضرورة من التفكير العالى والإحساس الراقى ، والتأمل فى الكون والخلق ، والنظر إلى الجمال والكمال . والرسول الكريم يقول : « إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته » [1] . فيعد الشظف والمتربة ــ مع القدرة ــ إنكاراً لنعمة الله ، يكرهه الله .

هذا كله من ناحية ، وثمة ناحية أخرى يلحظها الإسلام فى حبس المال عن التداول والإنفاق. فحبسه هكذا تعطيل لوظيفته . والجماعة فى حاجة إلى تداول أموالها العامة ، لتنمى الحياة فى شتى مظاهرها ، وتضمن الإنتاج فى أوسع ميادينه ، وتهيئ للعاملين وسائل العمل ، وللإنسانية طريق النشاط . وحبس الأموال يعطل هذا كله فهو حرام فى نظر الإسلام ، لما فيه من تعطيل للصالح الخاص والصالح العام .

أما الإسراف فهو الطرف الآخر ، وهو مفسدة للفرد والجماعة كذلك . ونبادر أولا فنقرر أن إنفاق المال فى سبيل الله ولو أتى عليه كله ليس إسرافاً ، لما مر من حديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن جبل الذهب ، وتمنيه أن لو كان له لما أبقى منه مقدار قيراطين، ولأنفقه كله فى سبيل الله . إنما الإسراف هو الإسراف فى الإنفاق على النفس ، وهذا ماعناه الإسلام .

والإسراف بهذا المعنى هو الترف الذى يكرهه الإسلام كراهية شديدة ؛ ويبغض أن يكون المال دولة بين الأغنياء لئلا يؤدى تضخم الثروة لإنفاقها فى سبيله ؛ ويعده مصدر شر لصاحبه وللجماعة التى يعيش فيها ؛ وبهذا يكون منكراً يجب على الجماعة أن تغيره وإلا عرضت نفسها إلى التهلكة بسببه .

---

(١) أبو داود والنسائى .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية فى كراهة الترف وتحريمه متواترة كثيرة بصفة بارزة ، تشعر أنه من أكره الحرام إلى الله ورسوله . والإسلام الذى يحض الناس على التمتع بطيبات الحياة ، ويكره أن يحرموها على أنفسهم وهى لهم حلال ، ويدعو إلى جعل الحياة بهيجة مقبولة لاقاتمة ولا منبوذة ... هذا الإسلام نفسه يكره السرف والترف تلك الكراهية الشديدة العنيفة .

فالقرآن يصف المترفين أحياناً بسقوط الهمة وضعف القوة وهبوط الأريحية: «وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ،اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ »(١) .

وإذا عرفنا حرص الإسلام على الجهاد وحثه عليه وتعظيم من يتطوعون له ، حتى ليقول الرسول الكريم : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق »(٢) أدركنا فى الجانب الآخر كم يحتقر أولى الطول هؤلاء لتخلفهم وقعودهم عن صفوف المجاهدين . ولا غرابة فى هذا ، فالمترف مترهل ضعيف الإرادة ناعم قليل الرجولة، لم يعتد الجهد فسقطت همته ،وفترت أريحيته ؛ والجهد فى الجهاد يعطل عليه متاعه الشهوانى الرخيص ، ويحرمه لذاته الحيوانية فترة من الوقت ، وهو لا يعرف قيمة فى الحياة سوى هذه القيم الداعرة الشائنة !

ثم يتحدث أحياناً عن المترفين فى التاريخ ، فإذا هم دائماً يقفون فى سبيل الهدى لأنفسهم ولأتباعهم المستضعفين ؛ وما دام هناك مترفون فهناك مستضعفون ، يملقون خيلاءهم ، ويحققون شهواتهم ، ويفنون فيهم فناء الحشرات : « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ ، إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(٣) » .. « وَقَالَ الْمَلأُ

(١) سورة التوبة : [٨٦] .
(٢) مسلم وأبو داود والنسائى .
(٣) سورة سبأ : [٣٤] .

مِنْ قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ ، وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا : مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ، وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (١) » . . « وَقَالُوا : رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ، وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٢) » . ولا غرابة فى هذا فالمترفون حريصون على حياتهم الرخوة الشاذة المريضة ، حريصون على شهواتهم ولذائذهم ، حريصون على أن تكون من حولهم حاشية وبطانة خاضعة لنفوذهم ؛ والهدى والدين والإيمان يحرمهم الكثير مما يحرصون عليه ويحدد لهم سبل المتاع المباح ـ وهو بالقياس إليهم قليل ضئيل لا يرضى مرض نفوسهم وترهل شهواتهم ـ ويرفع قيم الناس جميعاً فلا يكون لهم من السلطان المطلق على المستضعفين ، مايجعلهم أدوات خاضعة وآلات منفذة ؛ ويحرمهم الخرافات والأوهام والأساطير التى يحيطون بها أنفسهم، ويستغلونها فى المجتمعات الضالة الجاهلة المستسلمة . . لذلك هم أعداء كل هدى وكل عرفان، ذلك فضلا على مايصنعه الترف بالضمير ، وما يحدثه المتاع الغليظ من جمود فى المشاعر : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ، فَيَقُولُ : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ ؟ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ، حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ ، وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (٣) » . فالمتاع المترف الطويل الموروث عن الآباء ينسى الذكر ، ويؤدى إلى الجدب والضحالة . والتعبير بأنهم « كانوا قوماً بوراً » تعبير مصور عجيب عميق الدلالة ، فالأرض البور هى الأرض الجدبة التى لا تنتج ولا تثمر ، وكذلك قلوبهم ونفوسهم وحياتهم جدبة بائرة صلدة ، لا تنبض فيها حياة .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمى بيوت المترفين بيوت الشياطين ، لما ينبع فيها من

(١) سورة المؤمنون : [٣٣ ـ ٣٤].
(٢) سورة الأحزاب : [٦٧ ـ ٦٨] .
(٣) سورة الفرقان : [١٧ ـ ١٨] .

الفساد ، ولما يخرج منها من الفتنة : « تكون إبل للشياطين ، وبيوتٌ للشياطين . فأما إبل الشيطان فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها ، فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله ، وأما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التي تستر الناس بالديباج[1] » وإذا كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رآها إبلا للشياطين ، لا حاجة بأصحابها إلى ركوبها ، بينما المنقطعون لا يجدون ما يركبون ، فنحن نجدها سيارات نخمة تروح وتغدو للتافه الصغير من الأمور ، وألوف لا يجدون أجرة الترام ، ومئات لا يجدون حتى أرجلهم للمشي بها ، فهي مقطوعة ذهبت بها الآفات ! أما البيوت التي رآها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الأقفاص التي تستر الناس بالديباج ، فنحن نراها ووسائل الترف فيها لم تخطر على قلب بشر في ذلك الزمان !

لا جرم إذن يكون الترف سبب الهلاك على مدى التاريخ . فالترف سبب للبطر : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا : فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً[2] » .

ولا جرم يكون الترف سبب العذاب في الآخرة بما يؤدي إليه من معصيات : « وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ : فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ، أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ[3] » !

ولكن الهلاك والعذاب لا يصيبان الفرد المترف وحده ، بل يصيبان الجماعة التي تسمح بوجود المترفين : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا[4] مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ

---

(١) أبو داود .
(٢) سورة القصص : [٥٨] .
(٣) سورة الواقعة : [٤١ ـ ٤٨]
(٤) أمرنا هنا بمعنى أكثرنا .

عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً » . . ذلك أن وجود المترفين فى الجماعة ، وسماح الجماعة بوجودهم ، وسكوتها عليهم ، وقعودها عن إزالة أسباب الترف ، وتركها المترفين يفسدون . . . كل ذلك أسباب تؤدى حتما إلى الهلاك والتدمير بطبيعة وجودها . وهذا معنى الإرادة فى الآية،أى تتبيع النتائج للمقدمات ، وإيقاع المسببات إذا وجدت الأسباب، حسب السنة التى أرادها الله للكون والحياة .

فالجماعة هى المسؤولةعن هذا المنكر الذى يقع فيها. فالترف لابد أن يؤدى إلى المنكر بحكم وجوده فى الجماعة ؛ وقد أبنّا أن الطاقة الفائضة لابد لها من متصرف . فهناك مال فائض . وهو طاقة . وهناك حيوية جسد فائضة كذلك . وهى طاقة . وهناك فضلة زمن فائضة بلا عمل ولا تفكير . وهى طاقة. والفتية المترفون والفتيات المترفات ، وهم يجدون الشباب والفراغ والجدة ، لابد أن يفسقوا ؛ ولابد أن يبحثوا عن مصارف أخرى لطاقة الجسد وطاقة المال وطاقة الوقت؛ وغالباً ماتكون مصارف تافهة ، تأخذ طابعها من الزمن والبيئة ، ولكنها تلتقى عند حد التفاهة والميوعة والقذارة الحسية والمعنوية .

وفى الجانب الآخر المستغلون والمستربحون والمحتاجون،من تجار الرقيق ، والمهرجين، والذيول ، وحواشى المترفين،ينشرون الدعارة والترهل،ويرخصون كل قيم الحياة الجادة، التى لا تروق للمترفين والمترفات .

ثم يسرى الداء إلى سائر مرافق الحياة . . . ثم تكون العاقبة التى لابد منها وهى شيوع الفاحشة فى الأمة،وانتشار الإباحية ، وترهل الأجسام والعقول ، وانحطاط المعنويات والروحيات .. عندئذ يحق أمر الله فيدمر هذه الجماعة تدميرا !

ذلك رأى الإسلام فى جريمة الترف . جريمة تبدأ فردية ، فإذا سكتت عنها الجماعة ، ولم تزل هذا المنكر باليد واللسان والقلب ، آتت الجريمة ثمراتها ، وأفرخ الوباء فى جسم الجماعة ، وعرضها للهلاك فى النهاية ، بحكم ترتب النتائج

على المقدمات ، والمسببات على الأسباب « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً [1] » .

ولكن ماهو حد الترف والحرمان ، وما هو القصد بينهما والاعتدال ؟

إذا رجعنا إلى أول نشأة الإسلام ، وجدنا بيئة محرومة يبدو فيها الشظف والفقر ، ونجد الرسول صلى الله عليه وسلم ينهى عن لبس الحرير : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة [2] » . ويروى على — كرم الله وجهه — أن الرسول نهاه عن القَسِّىّ والمعصفر من الثياب ؛ كما نهى عن خاتم الذهب . . . كل ذلك للرجال . أما النساء فأبيح لهن الحرير والذهب ، وإن كان الرسول كره لابنته فاطمة أن تلبس الذهب . . فهذه خصوصية كان يأخذ بها النبى أهل بيته ولا يلزمها الناس .

ولكنا نحسب أننا لانحل حراماً حين نقول : إن الإسلام لا يدعو إلى الشظف حين لاتدعو إليه ظروف البيئة وأحوال الجماعة . وحقيقة أن لبس الحرير والمعصفر من الثياب والمرقش كثيراً مايزرى بقيمة الرجال ، ويدعوهم إلى الطراوة ، وبخاصة فى زمن الجهاد ، ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يطق أن يصل الشظف إلى حد المنظر الزرى والإهمال المزرى ، فقد روى جابر قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم زائراً ، فرأى رجلا شعثاً قد تفرق شعره ، فقال : « أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه ؟ » . ورأى رجلا عليه ثياب وسخة فقال : « أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟ » . وروى أبو الأحوص الجشمى عن أبيه قال : رآنى النبى صلى الله عليه وسلم وعلىّ أطمار فقال : « هل لك من مال ؟ » قلت نعم ! قال : « من أى المال ؟ » قلت : من كل قد آتانى الله ، من الشاء والإبل ، قال : « إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمته وكرامته عليك » [3] . وقال صلى الله

---

(١) سورة الأحزاب : [٦٢] . (٢) البخارى .

(٣) أبو داود والنسائى .

عليه وسلم : إن الله طيّبٌ يحبُّ الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود [1] » .

وقد مر بنا أمر الله لبنى آدم : أن يأخذوا زينتهم عند المساجد ، وألا يحرموا الطيبات التى أحلت لهم . فالذى نستخلصه من هذا أن مستوى المعيشة العام للجماعة هو الذى يحدد الترف والحرمان . وحين فتح الله الأمصار على المسلمين وزادت الثروة العامة وارتفع مستوى المعيشة ، تغيرت أزياؤهم ، واستمتعوا بما لم يكونوا يستمتعون ، فلم ينكر ذلك عليهم أحد ، إلا أن يتجاوزوا الوسط . والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « كلْ ماشئت . والبس ماشئت ما خطئتك اثنتان : سرف أو مخيلة [2] » .

ولكن نحب ـ مع ذلك ـ أن نقرر أن البساطة فى الحياة هى طابع الإسلام الذى يحرص عليه ؛ وأن استعلاء النفس على المتاع هو السمة التى يريدها الإسلام لأهله ؛ فلا يصبحون عبيدا لهذا المتاع .

« تعس عبد الدرهم . تعس عبد الدينار . تعس عبد القطيفة . تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » ... (أخرجه البخارى)

فالاستعلاء على المتاع مع مزاولة الوسط منه هو طابع الإسلام ، والقلب المسلم يتذوق ويدرك متى يقف عند حد الوسط !

فريضة الزكاة

والآن فلنتحدث عن الزكاة ، الركن الاجتماعى البارز من أركان الإسلام ، فحديث الزكاة أدخل شىء فى سياسة المال فى الإسلام .

الزكاة حق المال ، وهى عبادة من ناحية ، وواجب اجتماعى من ناحية أخرى ؛ فإذا

---

(١) رواه الترمذى بسند حسن   (٢) البخارى .

جرينا على نظرية الإسلام فى العبادات والاجتماعيات ، قلنا : إنها واجب اجتماعى تعبدى ؛ لذلك سماها «زكاة» ، والزكاة طهارة ونماء. فهى طهارة للضمير والذمة بأداء الحق المفروض . وهى طهارة للنفس والقلب من فطرة الشح وغريزة حب الذات ، فالمال عزيز ، والملك حبيب ، فحين تجود النفس به للآخرين ، إنما تطهر وترتفع وتشرق . وهى طهارة للمال بأداء حقه وصيرورته بعد ذلك حلالا . ولأن فى الزكاة معنى العبادة ، بلغ من لطف حس الإسلام ألا يطلب إلى أهل الذمة من أهل الكتاب أداءها، واستبدل بها الجزية ، ليشتركوا فى نفقات الدولة العامة ، دون أن تفرض عليهم عبادة خاصة من عبادات الإسلام إلا أن يختاروها .

والزكاة حق الجماعة فى عنق الفرد ، لتكفل لطوائف منها كفايتهم أحيانا ، وشيئا من المتاع بعد الكفاف أحيانا ، وبذلك يحقق الإسلام جانبا من مبدئه العام : « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » .. ذلك أن الإسلام يكره للناس الفقر والحاجة ؛ ويحتم أن ينال كل فرد كفايته من جهده الخاص وموارده الخاصة حين يستطيع ، ومن مال الجماعة حين يعجز لسبب من الأسباب .

يكره الإسلام الفقر والحاجة للناس ، لأنه يريد أن يعفيهم من ضرورات الحياة المادية ليفرغوا لما هو أعظم ؛ ولما هو أليق بالإنسانية وبالكرامة التى خص الله بها بنى آدم : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا [1] » .

ولقد كرمهم فعلا بالعقل والعاطفة ، وبالأشواق الروحية إلى ما هو أعلى من ضرورات الجسد ؛ فإذا لم يتوافر لهم من ضرورات الحياة ما يتيح لهم فسحة من الوقت والجهد لهذه الأشواق الروحية ، ولهذه المجالات الفكرية ، فقد سلبوا ذلك التكريم ؛ وارتكسوا

(١) سورة الإسراء : [٧٠] .

إلى مرتبة الحيوان . لا بل إن الحيوان ليجد طعامه وشرابه غالباً ؛ وإن بعض الحيوان ليختال ويقفز ويمرح ، وإن بعض الطير ليغرد ويسقسق فرحاً بالحياة بعد أن ينال كفايته من الطعام والشراب .

فما هو بإنسان وما هو بكريم على الله ، ذلك الذى تشغله ضرورات الطعام والشراب عن التطلع إلى مثل ما يناله الطير والحيوان ، فضلا على مايجب للإنسان الذى كرمه الله . فإذا قضى وقته وجهده ، ثم لم ينل كفايته ، فتلك هى الطامة التى تهبط به دركات عما أراد به الله ؛ والتى تصم الجماعة التى يعيش فيها ، بأنها جماعة هابطة لا تستحق تكريم الله ، لأنها تخالف عن إرادة الله .

إن الإنسان خليفة الله فى أرضه ؛ قد استخلفه عليها لينمى الحياة فيها ، ويرقيها ؛ ثم ليجعلها ناضرة بهيجة ؛ ثم ليستمتع بجمالها ونضرتها ؛ ثم ليشكر الله على أنعمه التى آتاه . والإنسان لن يبلغ من هذا كله شيئاً ، إذا كانت حياته تنقضى فى سبيل اللقمة ولو كانت كافية ، فكيف إذا قضى الحياة فلم يجد الكفاية ؟

ويكره الإسلام أن تكون الفوارق بين أفراد الأمة بحيث تعيش منها جماعة فى مستوى الترف ، وتعيش جماعة أخرى فى مستوى الشظف ، ثم أن تتجاوز الشظف إلى الحرمان والجوع والعرى . فهذه أمة غير مسلمة ، والرسول يقول : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله »(١) .. أو يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٢) » .. يكره الإسلام هذه الفوارق لما وراءها من أحقاد وأضغان تحطم أركان المجتمع ؛ ولما فيها من أثرة وجشع وقسوة تفسد النفس والضمير ؛ ولما فيها من اضطرار المحتاجين : إما إلى السرقة والغصب ، وإما إلى الذل وبيع الشرف والكرامة ... وكلها منحدرات يتجافى الإسلام بالجماعة عنها .

---

(١) مسند أحمد شاكر (٤٨٨٠) .　　(٢) متفق عليه .

ويكره الإسلام أن يكون المال دولة بين الأغنياء فى الأمة ، وألا تجد الكثرة ماتنفق. لأن ذلك ينتهى فى النهاية بتجميد الحياة والعمل والإنتاج فى هذه الأمة . بينما وجود الأموال فى أيدى أكبر عدد منها يجعل هذه الأموال تنفق فى شراء ضروريات الحياة لهذا العدد الكبير ؛ فيكثر الإقبال على السلع ، فينشأ من هذا كثرة الإنتاج، فتترتب عليها العمالة الكاملة للأيدى العاملة . . وبذلك تدور عجلة الحياة والعمل والإنتاج والاستهلاك دورتها الطبيعية المثمرة . .

لهذه المعانى جميعها شرع الزكاة ؛ وجعلها فريضة فى المال ، وحقا لمستحقيها ، لا تفضلا من مخرجيها ؛ وحدد لها نصابا فى المال يجعل الواجدين جميعاً يشتركون فى أدائها . ذلك أن أقصى حد للإعفاء منها عشرون مثقالا ذهبا أى ما يعادل ثلاثين جنيها بعملتنا ، على أن تكون فائضة عن الحاجات الضرورية لمالكها وعن الدين وحال عليها الحول . وذلك بديهى لأن الإنسان لا يطالب بالزكاة وهو مستحق للزكاة ! أما فى الزرع والثمار فهى موسمية موقوتة بمواسم الحصاد ، وهى فى عروض التجارة تقوَّم بالذهب أو الفضة ، وفى الحيوان بنسب معينة تعادل نسبتها فى المال ، وهى ربع العشر على وجه التقريب . وفى الركاز الخمس. على خلاف فى أنواع الركاز ، أتكون لصاحب الأرض ، أم للجماعة ...

أما المستحقون لها فهم كما نص عليهم فى القرآن : الفقراء، وهم الذين يملكون أقل من النصاب ، أو يملكون نصابا مستغرقاً فى الدين ، وظاهر أن هؤلاء يملكون شيئاً ، ولكنه شيء قليل ، والإسلام يريد أن ينال الناس كفايتهم ، وشيئاً فوق الكفاية يعينهم على المتاع بالدنيا على قدر الإمكان .

والمساكين . وهم الذين لا يملكون شيئاً . وهم بطبيعة الحال أجدر بالعطاء من الفقراء. ولكني ألمح أن ذكر الفقراء قبلهم فى الآية يرمى إلى أن وجود شيء قليل للفقراء لا يكفى ،

فكأنهم كالمساكين ، لأن هدف الإسلام ليس مجرد الكفاف الضرورى . ولكن شىء فوق الكفاف كما قدمت .

والعاملون عليها . وهم جباتها ، وهؤلاء - وإن كانوا أغنياء - يعطون جزاء العمل ، فهو راتب الوظيفة وذلك داخل فى نظام الجهد والأجر ، لافى باب الحاجة وسدها .

والمؤلفة قلوبهم . وهم الذين كانوا قد دخلوا فى الإسلام حديثاً ، لتقوية قلوبهم، واجتذاب من عداهم . ولكن هذا المصرف قد أقفل بعد أن أعز الله الإسلام عقب حروب الردة فى أيام أبى بكر ولم يعد الإسلام فى حاجة إلى تأليف القلوب بالمال . ومع أن هؤلاء قد نصت عليهم آية قرآنية ، فإن عمر لم يجد حرجاً فى التصرف .

وفى الرقاب . وهم الأرقاء المكاتبون ، الذين يستردون حريتهم نظير قدر من المال متفق عليه مع مالكيهم تيسيراً لهم لينالوا الحرية .

والغارمين . وهم الذين استغرق الدين ثرواتهم ، على ألا يكون هذا الدين فى معصية فلا يكون الترف ومايشبهه سبباً فيه . وإعطاؤهم قسطاً من الزكاة فيه سداد لديونهم ، وتخليص لرقابهم منها ، وفيه إعانة لهم على الحياة الكريمة .

وفى سبيل الله . وهو مصرف عام تحدده الظروف ، ومنه تجهيز المجاهدين ، وعلاج المرضى ، وتعليم العاجزين عن التعليم ، وسائر ماتتحقق به مصلحة لجماعة المسلمين . والتصرف فى هذا الباب يتسع لكل عمل اجتماعى فى سائر البيئات والظروف .

وابن السبيل . وهو المنقطع عن ماله الذى لايجد ما ينفق ، كالمهاجرين من الحروب والغارات والاضطهاد ، الذين خلفوا أموالهم وراءهم ، ولا سبيل لهم إلى هذه الأموال .

والإسلام لايقرر لهذه الطوائف حقها فى الزكاة إلا بعد أن تستنفد هى وسائلها الخاصة

فى الارتزاق ؛ فالإسلام حريص على الكرامة الإنسانية ومن ثم هو حريص على أن يكون لكل فرد مورد رزق يملكه ، ولا يخضع فيه حتى للجماعة !

لذلك حث على الاستغناء عن طريق العمل ؛ وجعل واجب الجماعة الأول أن تهيئ العمل لكل فرد فيها . فقد جاء سائل إلى النبى يستجديه ، فأعطاه درهما وأمره أن يشترى به حبلا ليحتطب به فيعيش من عمل يده . وقال : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه » [1] .

فهذه الإعانة من الزكاة هى وقاية اجتماعية أخيرة ، وضمانة للعاجز الذى يبذل طوقه ثم لا يجد ، أو يجد دون الكفاية ، أو يجد مجرد الكفاف ، ثم هى وسيلة لأن يكون المال دولة بين الجميع لتحقيق الدورة الكاملة السليمة للمال بين الإنتاج والاستهلاك والعمل من جديد ... وفى هذا يجمع الإسلام بين الحرص على أن يعمل كل فرد بما فى طاقته ، وألا يرتكن على الإعانة الاجتماعية فيتبطل ؛ والحرص على أن يعين المحتاج بما يسد خلته ، ويرفع عنه ثقل الضرورة ووطأة الحاجة ، وييسر له الحياة الكريمة . ثم الحرص على ضمان الدورة الصحيحة لرأس مال الأمة كما أسلفنا .

إن الزكاة هى قاعدة المجتمع المتكافل المتضامن ؛ الذى لا يحتاج إلى ضمانات النظام الربوى فى أى جانب من جوانب حياته .

وقد بهتت صورة « الزكاة » فى حسنا وحس الأجيال التعيسة التى لم تشهد نظام الإسلام مطبقا فى عالم الواقع ؛ ولم تشهد هذا النظام يقوم على أساس التصور الإيمانى والتربية الإيمانية والأخلاق الإيمانية ، فيصوغ النفس البشرية صياغة خاصة ، ثم يقيم لها النظام الذى تتنفس فيه تصوراتها الصحيحة وأخلاقها النظيفة وفضائلها العالية . ويجعل « الزكاة » قاعدة هذا

---

(١) الشيخان .

النظام ، فى مقابل نظام الجاهلية الذى يقوم على القاعدة الربوية . ويجعل الحياة تنمو والاقتصاد يرتقى عن طريق الجهد الفردى ، أو التعاون البرىء من الربا !

وبهتت هذه الصورة فى حس هذه الأجيال التعيسة المنكودة الحظ التى لم تشهد تلك الصورة الرفيعة من صور الإنسانية . إنما ولدت وعاشت فى غمرة النظام المادى ، القائم على الأساس الربوى . وشهدت الكزازة والشح ، والتكالب والتطاحن ، والفردية الأثرة التى تحكم ضمائر الناس ، فتجعل المال لا ينتقل إلى من يحتاجون إليه إلا فى الصورة الربوية الخسيسة ! وجعلت الناس يعيشون بلا ضمانات ، مالم يكن لهم رصيد من المال ؛ أو يكونوا قد اشتركوا بجزء من مالهم فى مؤسسات التأمين الربوية ! وجعلت التجارة والصناعة لا تجد المال الذى تقوم به ، ما لم تحصل عليه بالطريقة الربوية ! فوقر فى حس هذه الأجيال المنكودة الطالع أنه ليس هناك نظام إلا هذا النظام ؛ وأن الحياة لا تقوم إلا على هذا الأساس !

بهتت صورة الزكاة حتى أصبحت هذه الأجيال تحسبها إحسانا فرديا هزيلا ، لا ينهض على أساسه نظام عصرى ! ولكن كم تكون ضخامة حصيلة الزكاة ، وهى تتناول اثنين ونصفا فى المائة من أصل رؤوس الأموال الأهلية مع ربحها[1] ؟ ويؤديها الناس الذين يصنعهم الإسلام صناعة خاصة ، ويربيهم تربية خاصة ، بالتوجيهات والتشريعات ، وبنظام الحياة الخاص الذى يرتفع تصوره على ضمائر الذين لم يعيشوا فيه ! وتحصلها الدولة المسلمة ، حقا مفروضا ، لا إحسانا فرديا : وتكفل بها كل من تقصر به وسائله الخاصة من الجماعة المسلمة ؛ حيث يشعر كل فرد أن حياته وحياة أولاده مكفولة فى كل حالة ؛ وحيث يقضى عن الغارم المدين دينه سواء كان دينا تجاريا أو غير تجارى ، من حصيلة الزكاة .

---

(١) ترتفع هذه النسبة إلى ٥ ٪ وإلى ١٠ ٪ وإلى ٢٠ ٪ فى الزروع والكنوز .

وليس المهم هو شكلية النظام . إنما المهم هو روحه . فالمجتمع الذى يربيه الإسلام بتوجيهاته وتشريعاته و نظامه، متناسق مع شكل النظام وإجراءاته ،متكامل مع التشريعات والتوجيهات ، ينبع التكافل من ضمائره ومن تنظيماته معاً متناسقة متكاملة . وهذه حقيقة قد لا يتصورها الذين نشأوا وعاشوا فى ظل الأنظمة المادية الأخرى . ولكنها حقيقة نعرفها نحن ــ أهل الإسلام ــ ونتذوقها بذوقنا الإيمانى . فإذا كانوا هم محرومين من هذا الذوق لسوء طالعهم ونكد حظهم ــ وحظ البشرية التى صارت إليهم مقاليدها وقيادتها ــ فليكن هذا نصيبهم ! وليحرموا من هذا الخير الذى يبشر الله به : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. ليحرموا من الطمأنينة والرضى ، فوق حرمانهم من الأجر والثواب . فإنما بجهالتهم وجاهليتهم وضلالهم وعنادهم يحرمون !

فرائض غير الزكاة

.. ومع ذلك فالزكاة ليست وحدها حق المال ...

وإنا لنلحظ شبه تواطؤ بين من يتحدثون عن الزكاة فى هذه الأيام ،على اعتبارها الحد الأقصى الذى يطلبه الإسلام دائماً من رؤوس الأموال ! لذلك ينبغى أن نكشف هذا التواطؤ ،الذى يتعمده رجال الدين المحترفون ؛ كما يتعمده من يريدون إظهار النظام الإسلامى بأنه غير صالح للعمل فى عصر « الحضارة » !

إن الزكاة هى الحد الأدنى المفروض فى الأموال ، حين لا تحتاج الجماعة إلى غير حصيلة الزكاة . فأما حين لا تفى ، فإن الإسلام لا يقف مكتوف اليدين ، بل يمنح الإمام الذى ينفذ شريعة الإسلام ، سلطات واسعة للتوظيف فى رؤوس الأموال ــ أى الأخذ منها

بقدر معلوم ـ فى الحدود اللازمة للإصلاح . ويقول بصريح الحديث : « إن فى المال حقاً سوى الزكاة [1] » .

ودائرة « المصالح المرسلة » و « سد الذرائع » دائرة واسعة تشمل تحقيق كافة المصالح للجماعة ، وتضمن دفع جميع الأضرار .

ونحن نكتفى فى بيان حدودهما بما ورد عنهما فى كتاب : « الإمام مالك » للأستاذ الشيخ « محمد أبو زهرة » أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة .

المصالح المرسلة : « إن المصالح التى ليس لها نص خاص يشهد لنوعها بالاعتبار تسمى المصالح المرسلة ، وكونها أصلا فقهياً موضع نظر بين الفقهاء ، وقد ادعى القرافى أن الفقهاء جميعاً أخذوا بها واعتبروها دليلا فى الجزئيات ، وإن أنكر أكثرهم كونها أصلا فى الكليات ، وقد قال فى ذلك :

« المصلحة المرسلة ، غيرنا يصرح بإنكارها ، ولكنهم عندالتفريع تجدهم يعللون بمطلق المصلحة ، ولا يطالبون أنفسهم عند الفروق والجوامع بإبداء الشاهد لها بالاعتبار ، بل يعتمدون على مجرد المناسبة ، وهذا هو المصلحة المرسلة » .

« وسواء أصحت تلك الدعوى أم لم تصح ، فمن المؤكد أن اعتبار المصالح التى لايشهد لها نص خاص بالاعتبار ـ نظر العلماء إليها يختلف ، فإن لم يكن فى أصل الأخذ، فعلى الأقل فى مقدار الأخذ ، كما يحسب القرافى .

« وقد انقسمت أقوال العلماء فى ذلك إلى أربعة أقسام :

« (القسم الأول) الشافعية ومن نحا نحوهم ، وهؤلاء لا يأخذون بالمصالح المرسلة التى لا يوجد شاهد من الشارع باعتبارها ، لأنهم لايأخذون إلا بالنصوص ، والحمل عليها بالقياس الذى يكون أساسه وجود ضابط يضبط مابين الأصل والفرع ، أى مابين المنصوص

---

(١) الترمذى .

عليه ، والملحق به ،وإن سايرنا القرافى فإننا نقول : إنه يندر أن يأخذوا بمصلحة مرسلة من غير قياس .

« (القسم الثانى) الحنفية ومن شا كلهم ممن يأخذون بالاستحسان مع القياس ، فإن الاستحسان مهما يكن قولهم فيه لا يخلو من اعتماد على المصالح المطلقة ، ولو أنصفنا الحقيقة لقلنا : إن مجىء المصالح فى استنباطهم أكثر من الشافعية ، وإن كان القدر فى ذاته قليلا ، حتى لم تحسب تلك المصالح أصلا من أصولهم لندرة اعتمادهم المجرد عليها .

« (القسم الثالث) الغلاة فى الأخذ بالمصالح ،حتى قدموا المصلحة على النص فى معاملات الناس،واعتبروها مخصصة له ،بل اعتبروها مخصصة للإجماع، أى أن العلماء إذا أجمعوا على أمر بنص،ووجد مخالفاً للمصلحة فى بعض وجوهه قدم اعتبار المصلحة ،واعتبر ذلك أيضاً تخصيصاً، وقد قال هذا القول الطوفى .

« (القسم الرابع) المعتدلون ، وهم الأصح بصراً ، وأولئك اعتبروا المصالح المرسلة فى غير موارد النص المقطوع به ، وأولئك أكثر المالكية .

« وكان مالك فى أخذه بالمصالح المرسلة أصلا مستقلا متبعا لا مبتدعا .

١ ـ « فقد وجد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقومون بأمور من بعده لم تكن فى عهده ، فجمعوا القرآن الكريم فى المصحف ، ولم يكن ذلك فى عهد الرسول ، لأن المصلحة تقاضتهم ذلك الجمع ، إذ خشوا أن ينسى القرآن بموت حفاظهم ، وقد رآهم عمر رضى الله عنه يتهافتون فى حرب الردة ، فخشى نسيان القرآن بموتهم فأشار على أبى بكر بجمعه فى المصحف ، واتفق الصحابة على ذلك وارتضوه .

٢ ـ « واتفق أصحاب الرسول من بعده على حد شارب الخمر ثمانين جلدة، مستندين فى ذلك

إلى المصالح ، أو الاستدلال المرسل ، إذ رأوا الشرب ذريعة إلى الافتراء وقذف المحصنات، بسبب كثرة الهذيان .

٣ ـ « واتفق الخلفاء الراشدون على تضمين الصناع ، مع أن الأصل أن أيديهم على الأمانة ، ولكن وجد أنهم لو لم يضمنوا لاستهانوا بالمحافظة على أمتعة الناس وأموالهم، وفى الناس حاجة شديدة إليهم ، فكانت المصلحة فى تضمينهم ، ليحافظوا على ماتحت أيديهم؛ ولذلك قال علىّ فى تضمينهم : « لا يصلح الناس إلا ذاك » .

٤ ـ « وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشاطر الولاة الذين يتهمهم فى أموالهم ، لاختلاط أموالهم الخاصة بأموالهم التى استفادوها بسلطان الولاية ، وذلك من باب المصلحة المرسلة أيضاً لأنه رأى فى ذلك صلاح الولاة ، ومنعهم من استغلال سلطان الولاية لجمع المال . وجر المغانم من غير حل.

٥ ـ « وحكى عنه رضى الله عنه أنه أراق اللبن المغشوش بالماء ، تأديباً للغاش ، وذلك من باب المصلحة العامة ، لكيلا يغشوا الناس .

٦ ـ « وقد نقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قتل الجماعة بالواحد إذا اشتركوا فى قتله ، لأن المصلحة تقتضى ذلك ، إذ لا نص فى الموضوع ، ووجه المصلحة أن القتيل معصوم ، وقد قتل عمداً ، فإهداره داع إلى خرم أصل القصاص ، واتخاذ الاستعانة والاشتراك ذريعة إلى السعى بالقتل ، إذا علم أنه لا قصاص فيه ، فإن قيل : هذا أمر بدعى ، وهو قتل غير القاتل ، لأن كل واحد لا يعد قاتلا بمفرده ، قيل فى رد ذلك إن القاتل : الجماعة من حيث الاجتماع ، فقتلها كلها قتل كالقاتل بمفرده ، إذ القتل مضاف إليها كإضافته إلى الشخص الواحد ، فنزل الأشخاص المجتمعون لغرض القتل منزلة الشخص الواحد ، وقد دعت إلى هذا المصلحة ، إذ فيه حقن الدماء ، وصيانة المجتمع ...

« ومن ملاحظة المصلحة فى المسائل العامة أنه إذا خلا بيت المال ، أو ارتفعت

حاجات الجند ، وليس فيه مايكفيهم ، فللإمام أن يوظف على الأغنياء مايراه كافياً لهم فى الحال ، إلى أن يظهر مال فى بيت المال ،أو يكون فيه ما يكفى ، ثم له أن يجعل هذه الوظيفة فى أوقات حصاد الغلات ، وجنى الثمار ، لكيلا يؤدى تخصيص الأغنياء إلى إيحاش قلوبهم . ووجه المصلحة أن الإمام العادل لو لم يفعل ذلك لبطلت شوكته ، وصارت الديار عرضة للفتنة وعرضة للاستيلاء عليها من الطامعين فيها ، وقد يقول قائل : إنه بدل أن يقوم الإمام بفرض هذه الوظيفة يستقرض لبيت المال ، وقد أجاب عن ذلك الشاطبى فقال : « الاستقراض فى الأزمات ، إنما يكون حيث يرجى لبيت المال دخل ينتظر ، وأما إذا لم ينتظر شىء ، وضعفت وجوه الدخل بحيث لا يغنى ، فلابد من جريان حكم التوظيف » .

الذرائع : « الذريعة معناها الوسيلة . ومعنى سد الذرائع رفعها ، ومؤدى الكلام أن وسيلة المحرم محرمة ، ووسيلة الواجب واجبة ، فالفاحشة حرام ، والنظرة إلى عورة الأجنبية حرام ، لأنها تؤدى إلى الفاحشة ؛ والجمعة فرض ، فالسعى لها فرض ، وترك البيع لأجل السعى فرض أيضاً ؛ والحج فرض والسعى إلى بيت الله الحرام وسائر مناسك الحج فرض لأجله .

« والأصل فى اعتبار سد الذرائع هو النظر فى مآلات الأفعال ، وماتنتهى فى جملتها إليه ، فإن كانت تتجه نحو المصالح التى هى المقاصد والغايات من معاملات بنى الإنسان بعضهم مع بعض كانت مطلوبة بمقدار يناسب هذه المقاصد ،وإن كانت لاتساويها فى الطلب . وإن كانت مآلاتها تتجه نحو المفاسد ، فإنها تكون محرمة بما يتناسب مع تحريم هذه المفاسد ، وإن كان مقدار التحريم أقل فى الوسيلة .

« والنظر فى هذه المآلات لايكون إلى مقصد العامل ونيته ، بل إلى نتيجة العمل وثمرته ، وبحسب النية يثاب الشخص أو يعاقب فى الآخرة ، وبحسب النتيجة والثمرة يحسن

الفعل ، أو يقبح ، ويطلب أو يمنع ، لأن الدنيا قامت على مصالح العباد ، وعلى القسطاس والعدل ، وقد يستوجبان النظر إلى النتيجة والثمرة دون النية المحتسبة ، والقصد الحسن . فمن سب الأوثان مخلصاً لله سبحانه وتعالى فقد احتسب نيته عنـد الله فى زعمه ، ولـكنه سبحانه وتعالى نهى عن السب إن أثار ذلك حنق المشركين ، فسبوا الله تعالى ، فقد قال تعالت كلماته : « وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ، فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ[1] » . فهذا النهى الـكريم كان الأمر الملاحظ فيه هو النتيجة الواقعة ، لا النية المحتسبة . ونرى من هذا أن المنع فيما يؤدى إلى الإثم ، أو إلى الفساد ، لا يتجه إلى النية المخلصة فقط ، بل إلى النتيجة المثمرة أيضاً ، فيمنع لنتيجته ، وإن كان الله قد علم النية المخلصة .

« وقد يقصد الشخص الشر بفعل المباح ، فيـكون آثما فيما بينه وبين الله ، ولـكن ليس لأحد عليه سبيل ، ولا يحكم على تصرفه بالبطلان الشرعى ، كمن يرخص فى سلعته ، ليضر بذلك تاجراً ينافسه ، فإن هـذا بلا شك عمل مباح ، وهو ذريعة إلى إثم ، هو الإضرار بغيره ، وقد قصده ؛ ومع ذلك لا يحكم على عمله بالبطلان بإطلاق ، ولا يقع تحت التحريم الظاهر الذى ينفذه القضاء ، فإن هـذا العمل من ناحية النية ذريعة للشر ، ومن ناحية الظاهر قد يكون ذريعة للنفع العام والخاص ، فإن البائع بلا شك ينتفع من بيعه ، ومن رواج تجارته ، ومن حسن الإقبال عليه ، وينتفع العامة من ذلك الرخص ، وقد يدفع إلى تنزيل الأسعار .

« فمبدأ سد الذرائع لا ينظر فقط إلى النيات والمقاصد الشخصية كما رأيت ، بل يقصد مع ذلك إلى النفع العام أو إلى دفع الفساد العام ، فهو ينظر إلى النتيجة مع القصد أو إلى النتيجة وحدها .

« وقد ثبت أصل الذرائع بالقرآن والسنة . أما القرآن فقوله تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا

---

(١) سورة الأنعام : [١٠٨] .

ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » [1] ، فيروى أن المشركين قالوا : لتكفنّ عن سب آلهتنا أو لنسبّ إلٰهك . وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ، وَقُولُوا : ٱنْظُرْنَا وَٱسْمَعُوا » [2] ، لأن قصد المسلمين كان حسناً ، ولكن اليهود اتخذوه ذريعة إلى شتمه عليه السلام .

« أما السنة فإن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وفتاوى أصحابه فيها كثيرة ، منها كفه صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين ، لأنه ذريعة إلى قول الكفار : إن محمداً يقتل أصحابه .

« ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى المقرض عن قبول الهدية من المدين حتى يحسبها من دينه ، وما ذاك إلا ليتخذ ذلك ذريعة إلى تأخير الدَّين لأجل الهدية ، فتكون ربا ، فإنه يعود إليه ماله ، وقد اكتسب الفضل الذى آل إليه بالإهداء .

« ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تقطع الأيدى فى الغزو لئلا يكون ذريعة إلى اتجاه المحدود إلى المحاربين فيفر إليهم ؛ ولمثل ذلك لاتقام الحدود فى الغزو حتى لا تدفع حرارة الضرب إلى الضلال ، وهو منه قريب .

« ومنها أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وَرَّثوا المطلقة طلاقاً بائناً فى مرض الموت ، حيث يتهم بقصد حرمانها من الميراث ، وإن لم يثبت قصد الحرمان ، لأن الطلاق ذريعة .

« ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الاحتكار ، وقال : « من احتكر فهو خاطئ » [3] فإن الاحتكار ذريعة إلى أن يضيق على الناس ، وكل ما يعد ضرورياً لهم ، ولهذا لايمنع من احتكار مالا يضر الناس كأدوات الزينة ونحوها ، مما لا يدخل فى الضروريات ولا الحاجيات .

---

(١) سورة الأنعام : [١٠٨] .
(٢) سورة البقرة : [١٠٤] .
(٣) مسلم وأبو داود والترمذى .

« ومنها أنه صلى الله عليه وسلم منع المتصدق شراء صدقته ولو وجدها تباع فى السوق، سدا للذريعة العود فيما خرج عنه لله ولو بعوضه . وإن المتصدق إذا منع من أخذ صدقته بعوضها، فأخذها بغير عوض أشد منعاً ، وإن فى تجويز أخذها بعوض ذريعة إلى التحايل على الفقير بأن يدفع إليه صدقة ماله ، ثم يشتريها منه بأقل من قيمتها، ويرى المسكين أنه قد حصل له شئ من حاجته ، فتسمح نفسه بالبيع .

« وهكذا كثرت الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد ساق ابن القيم فى « إعلام الموقعين » نحو تسعين شاهداً من الآثار ، ثبت فيها النهى سدا للذرائع .

« ولقد عدت الذرائع فى شرائع الإسلام نصفها » .

* * *

مبدأ المصالح المرسلة ، ومبدأ سد الذرائع ، عند تطبيقهما فى محيط أوسع ، يمنحان الإمام الذى ينفذ شريعة الله سلطة واسعة لتدارك كل المضار الاجتماعية ، بما فى ذلك « التوظيف » فى الأموال . رعاية للصالح العام للأمة وتحقيق العدالة الاجتماعية الكاملة .

فمبدأ حق الملكية الفردية فى الإسلام ، لا يمنع تبعاً لهذا أن تأخذ الدولة نسبة من الربح أو نسبة من رأس المال ذاته . على أن تظل قاعدة النظام الإسلامى مرعية . وهى أن تكون للناس ملكياتهم الخاصة ، واستثماراتهم الخاصة ، مقيدة بطرق التنمية المشروعة . وأن يكون التوظيف فى الأموال الخاصة ، بقدر الضرورة الطارئة حتى لا تستوحش قلوب الناس ، ولا تفتر همتهم ، ولا يقل اهتمامهم بتنمية الثروة وتحسين الإنتاج.. وقبل ذلك كله، وأهم من ذلك كله أن تبقى لهم طمأنينتهم على أرزاقهم ، وألا يصبحوا عبيدا للدولة يخشون إن هم نصحوها أو عارضوها قطع أرزاقهم . فالمسلم - كل مسلم - مكلف أن يراقب الحاكم،

وأن يكفه عن الانحراف عن شريعة الله .. فأنّى له هذا إذا كان رزقه ليس في يده . ولا مال له . إلا ما يسمح له به ؟!

وبيان هذا ضروري ، لكشف هذا التواطؤ الذي يبدو في تركيز القول كله حول الزكاة ، كأنما هي كل حق المال في الإسلام ، وكشف أولئك المحترفين الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلا . وما يأكلون في بطونهم إلا النار ! وكشف أولئك الذين يصغرون من شأن الضمانات في النظام الإسلامي ، ويقولون بعدم كفايتها ، ليقولوا بعد ذلك بعدم كفاية النظام الإسلامي للحياة الحديثة !

وكله رجم وافتراء ، وجهل بحقيقة الإسلام ، ونظام الإسلام . وبالواقع التاريخي الذي سجله هذا النظام ..

***

وبعد ، فنحن لا نكتب هنا عن « النظام الاقتصادي في الإسلام » حتى نلم بكل جوانب هذا النظام . إنما نحن نكتب عن « سياسة المال » فيما يتعلق بموضوع « العدالة الاجتماعية » . . وحقيقة أنه لا يمكن فصل جانب عن جانب في المنهج الإسلامي الشامل المتكامل للحياة ؛ ولكن طبيعة الموضوع الذي يعالجه هذا الكتاب لا تسمح بالتوسع أكثر من هذا في عرض تفصيلات « النظام الاقتصادي الإسلامي » .

فنكتفي إذن بالقول بأن القواعد الأساسية لهذا النظام تتلخص في :

١ ـ قيامه على أساس قاعدة « الاستخلاف المشروط » .. فالله سبحانه هو الخالق المالك لكل ما في الأرض من أقوات وأرزاق وأموال . . وقد استخلف في الأرض « الإنسان » كجنس ـ على شرط أن يتصرف في هذا الملك بشريعة الله . فأيما خروج على هذا الشرط فهو مبطل للتصرف ، ناقض لعهد الاستخلاف .

٢ ــ أن الاستخلاف عام .. ولكن الأفراد يحصلون على حق « الملكية الفردية » مقابل « عمل » .. ومن ثم يملكهم الشارع ــ وهو الله سبحانه ــ قسما معينا من هذا المال . . ويحوط هذا الحق بكل الضمانات ، التى تجعل الفرد عزيزا كريما مطمئنا على رزقه ، كى يتفرغ للقيام بواجبه فى رقابة تنفيذ شريعة الله .

٣ ــ أن الملكية الفردية ــ مع أنها قاعدة هذا النظام ــ مقيدة بشروط فى وسيلة التملك ووسيلة التنمية ووسيلة الإنفاق . تتحقق بها مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . وتمنع من طغيان الفرد أو طغيان الجماعة ..

٤ ــ أن التكافل ــ مع الاحتفاظ بقاعدة الملكية الفردية ــ هو قاعدة الحياة فى الأمة المسلمة . وهذه القاعدة تفرض تكاليف ذكرناها على الملكية الفردية ، مبينة فى الشريعة. وفيها الكفاية تماما لتحقيق هذا التكافل العام .

٥ ــ أن العدالة الاجتماعية تتحقق عن طريق هذا النظام بأفضل مما تتحقق فى أى نظام من صنع البشر فيه الخطأ والصواب.

من الواقع التاريخي في الإسلام

هناك ما يصح أن نطلق عليه باطمئنان : « روح الإسلام » !

هـذا الروح يستشعره من يتتبع طبيعة هذا الدين وتاريخه على السواء ؛ ويحسه كامناً وراء تشريعاته وتوجيهاته ، مستكناً فى هـذه التشريعات والتوجيهات . . ومع أن هذا الروح واضح قوى ، بحيث لا يملك الإنسان نفسه من التأثر به ، والاستغراق فى جوه ، إلا أنه ـ ككل شعور كلى عميق ، أو تصور كلى شامل ـ يصعب التعبير عنه فى عبارات محدودة . فهو يتجلى فى الاتجاهات والأهداف ، وفى الحوادث والوقائع ، وفى السلوك والشعائر ؛ ويصعب ضبطه فى قالب من اللفظ محدود .

هـذا الروح هو الذى يرسم الأفق الأعلى الذى يتطلب الإسلام من معتنقيه أن يتطلعوا إليـه ، وأن يحاولوا بلوغه ، لا بتنفيذ الفرائض والتكاليف فحسب ، ولكن بالتطوع الذاتى لما هو فوق الفرائض والتكاليف .. وهذا الأفق عسير المرتقى ، وأعسر من ارتقائه الثبات عليه ! لأن نوازع الحياة البشرية ، وضغط الضرورات الإنسانية ، لا يطوعان للأكثرين من الناس أن يرقوا إلى هـذا الأفق العالى ، ولا أن يصبروا عليه طويلا ، إن ارتقوا إليه فى فورة من فورات الشوق والتطلع ؛ فلهذا الأفق تكاليفه العسيرة ، وهى تكاليف فى النفس والمال ، وفى الشعور والسلوك . ولعل أشد هـذه التكاليف مؤنة هو تلك اليقظة الدائمة التى يفرضها الإسلام على ضمير الفرد ، والحساسية المرهفة التى يثيرها فى شعوره ، تجاه الحقوق والواجبات ، لذاته وللجماعة التى يعيش فيها ، وللإنسانية التى ينتسب إليها ، وللخالق الذى يراقبه فى الصغيرة والكبيرة ، ويعلم سره ونجواه .

ولـكن صعوبة هذا المرتقى ، وتعذر الاستواء عليه طويلا . . لايعنى أن الإسلام فـكرة شاعرية خيالية ،ومثل وجدانى تدركه الأشواق وتقصر دونه الأعمال،فذلك الأفق الأعلى الذى نتحدث عنه لا يكلفه كل إنسان فى جميع الأزمان ؛ إنما هو هدف مرسوم لتحاوله البشرية اليوم ، كما تحاوله غداً ، وكما حاولته بالأمس ،فبلغت إليه أحياناً ، وقصرت عنه أحياناً . وهو مثل فيه من الثقةبالإنسان وضميره وطاقاته قدر كبير ، وفيه الدليل على أن الإنسانية غير ميؤوس منها فى المستقبل القريب أو البعيد . ودون ذلك مجال فسيح للعمل والواقع المستطاعين للأكثرين و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها[1] » وسماحة الإسلام تقبل من الجميع مايستطيعون فى حدود مرسومة ،لاتهبط عنها الحياة « ولـكل درجات مما عملوا[2] » والطريق إلى الأفق الأعلى أبداً مفتوح . والفرائض والتـكاليف بذاتها تـكفى لاستقامة الحياة وصلاحها .

ولقد كان لذلك الروح الذى أشرنا إليه أثر فى واقع الإسلام التاريخى ، فاستحال الإسلام ـ وهو عقيدة وتصور ـ شخصيات ووقائع ؛ ولم يعد نظريات مجردة ، ولا مجموعة إرشادات ومواعظ ، ولا مثلا وأخيلة ؛إنما عاد نماذج إنسانية تعيش ؛ووقائع عملية تتحقق، وسلوكا وتصرفات تشهد بالعين ، وتسمع بالأذن ، وتترك آثارها فى واقع الحياة ، وفى أطوار التاريخ ؛ فـكأنما كان روحاً يتلبس بهذه الشخوص فيحولها ، ويصوغها صياغة جديدة ، وينشئها نشأة أخرى .

وهذا هو التفسير الأصدق لـكل هذا الحشد من الشخصيات العجيبة التى احتفظ بها تاريخ الإسلام فى نشأته ، وعلى مدى عصوره . ولـكل تلك الوقائع والأحداث التى يكاد المرء يحسبها أساطير ابتدعها خيال محلق ؛ ولم تـكن ذات يوم حقائق سجلها الواقع ، ووعاها التاريخ !

---

(١) سورة البقرة : [٢٨٦] .
(٢) سورة الأنعام : [١٣٢] .

ونماذج التطهر الروحى ، والشجاعة النفسية ، والتضحية المؤثرة ، والفناء فى العقيدة، والومضات الروحية والفكرية البارعة ، والبطولات الحية فى شتى مناحى الحياة ..لا يكاد يحصيها التاريخ .

ولا بد أن نعقد الصلة جملة بين هذه البطولات والخوارق المتناثرة على مدار التاريخ ، وبين روح الإسلام القوى الفعال ، الذى يعد مصدر هذه الطاقة المنبثة فى أطوائها جميعاً .

أما دراسة هذه البطولات والخوارق مفرقة ، دون وصلها بهذا المنبع الأصيل ، فأخشى أن تكون ناقصة ومضللة عن الحقائق الأساسية فى الكون والحياة ، برجعها سر عظمة كل شخصية إلى عبقرية خاصة بها ، وإهمال الروح الأول المشع المؤثر ، ذلك الروح الذى مس أرواح الأبطال ، كما مس عجلة الزمن ، وطبائع الأحداث ، ودفعها جميعاً فى تيار حى قوى جياش ، تنغمر فى لجه العبقريات والوقائع والأحداث !

ولن نكون مخطئين حين نرد انبعاث هذه العبقريات كلها ، وبروز تلك البطولات جميعها ، إلى فعل ذلك الروح القوى ؛ فهو حركة كونية شاملة ، تتوافى مع هذه الطاقات ، الفردية فى الظاهر ، الكونية فى الحقيقة . ومقياس عظمة كل عبقرية منفردة هو استعدادها لتلقى ذلك الفيض الكونى ؛ فلا عجب أن كانت أكبر عظمة هى نبوة محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — فهى التى تلقت ذلك الفيض كله واستوعبته؛ وأطاقت تلقيه كاملا والصبر عليه طويلا ، لأنها فى صميمها قوة كونية لا طاقة فردية .

ثم تتدرج العظمات تحت أفق النبوة ، فى أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — وفى معتنقى دينه على مدار التاريخ ، كل بقدر ما فيه من استعداد لتلقى ذلك الروح الكامن فى ذلك الدين العظيم .

هذه النظرة الشاملة هى التى تكشف لنا عن مس ذلك الروح لأرواح البشر ؛ وما نبه

من عبقريات ؛ وما أبرز من بطولات ؛ وماحول من مجرى التاريخ الإنسانى على وجه العموم .

وإننا لنملك أن نرى الآثار الواضحة لمسّ ذلك الروح فى أحداث التاريخ الكبرى كما نراها فى حوادث السلوك اليومية . والعظمة الروحية لاتقاس بالكم والمساحة ، بل بالنوع والدلالة . فالعظمة التى تتجلى فى غلبة حفنة من عرب الجزيرة على إمبراطوريتى كسرى وقيصر فى فترة زمنية قصيرة ، لا نظير لها فى القصر ، لا نبخسها قدرها إذا نحن قسناها إلى العظمة التى تتجلى فى صبر بلال العبد الحبشى ، على إيذاء قريش إيذاء فوق طاقة البشر احتماله ، لتفتنه عن دينه وهو عليه ثابت ، يرمضه حر الحجارة المحماة وثقلها على بطنه وصدره ، مع الجوع والعطش والإيذاء ، فما يزيد على قوله « أحد . أحد » فى وقدة هذا العذاب الذى لا يطاق .

وإن هذا الروح لهو الذى يمس « رجل الشارع » لامال له ولاجاه ، فيقف به أمام السلطان القادر القاهر يجبهه بكلمة الحق لايخشى فى الله لومة لائم ، كما نلمسه فى الخليفة الراشد ، تدين له الممالك ، وهو على حاله من القناعة والسمو والتواضع . كلاهما يغترف من معين واحد ، هو ذلك الروح القوى المؤثر العميق .

وعلى ذكر غلبة العرب على إمبراطوريتى كسرى وقيصر ؛ يجب أن نحسب حساب ذلك الروح ، وانتصاره على القوى المادية الضخمة المرصودة فى طريقه ، المحشودة فى الإمبراطوريتين الضخمتين ، والتى لم يكن العرب أكفاء لها بغير ذلك الروح . فانتصار الإسلام هنا هو انتصار عقيدة تقمصت النفوس البشرية ؛ وإن فيه لتأييداً قوياً للتفسير الإسلامى للتاريخ ، لا تقف أمامه سائر التفسيرات لأنها تعجز لا محالة عن تعليل ذلك الانتصار الغريب .

على أن النقلة النفسية البعيدة التى نقلها الإسلام لعرب الجزيرة فى الشعور والسلوك ،

وفى الأهـداف والغايات ، وفى التنظيم الاجتماعى والاقتصادى .. لاتقل دلالة فى هـذا المجـال عن دلالة الفتوح ، بل هى أوضح وأقوى . فأى تطور اقتصـادى تم فى حيـاة الجزيرة بين مبعث محمد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ ووفاته أحـدث هـذا الانقلاب كله فى التفكير والشعور والتنظيم والتوجيه ؟ إنما هى العقيدة التى صنعت كل هذه الأعاجيب .

وإنه ليصعب فى هذا المجال أن نستعرض هذا الانقلاب ؛ فحسبنا منه هذه اللمحة التى شهد بها شاهد من العرب أنفسهم فى ذلك الزمان ، أمام شهود من منكرى هذا الدين ، فلم يجدوا لهم رداً يكذب به فيما يقول . ذلك حين هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم من إيذاء قريش أوائل الدعوة الإسلامية ؛ فخشيت قريش أن يـكون فى ذلك المهجر متنفس للمسلمين ؛ فبعثت بسفيرين من لدنها إلى نجاشى الحبشة ليرد أولئك المهاجرين ، وهما عمرو ابن العاص وعبد الله ابن أبى ربيعة فقالا : « أيها الملك ! إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفـه نحن ولا أنت . وقد بَعَثَنَا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وعشائرهم ، لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بمـا عابوا عليهم وعاتبوهم فيه » .

فلما سأل النجاشى المسلمين : « ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ » كان جواب جعفر ابن أبى طالب ـ رضى الله عنه : « أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ... فـكنا على ذلك حتى بعث الله إلينـا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ؛ فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ؛ وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحُسن الجوار ، والـكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . وأمرنا أن

نعبد الله ولا نشرك به شيئا ؛ وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . . » الخ .[1]

ولقد كان السفيران حاضرين ، وفيهما عمرو ، لاتنقصه ذلاقة اللسان ولاسعة الحيلة ، فلم يكذبا جعفراً فى تصويره لحال الجزيرة قبل الإسلام ، ولحقيقة الدين الجديد ومثله ؛ فهى صورة صحيحة صادقة لما كان وما صار .

تلك شهادة من بطون التاريخ عن الجزيرة العربية ، وهـذه شهادة أخرى من رجل غير مسلم فى العصر الحديث عن العالم كله إذ ذاك . يقول (ج . ه . دينسون) فى كتابه « Emotions as the Basis of Civilisation » « العواطف كأساس للحضارة » :

« ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ؛ وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولانظام . أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه » .[2]

* * *

و بعد فإن الحديث يطول ، وليس موضوع هذا الكتاب هو « الإسلام » إنما هو « العدالة

---

(١) من رواية ابن إسحق عن أم سلمة فى السيرة لابن هشام الجزء الأول .

(٢) عن كتاب « الإسلام والنظام العالمى الجديد » تأليف مولاى محمد على وترجمة الأستاذ أحمد جودة السحار .

الاجتماعية فى الإسلام » فبحسبنا أن نعرض نمـاذج من الواقع التاريخى فى هـذا الموضوع الخاص .

* * *

ولـكننا لن نبدأ النماذج فى هذا الاتجاه حتى نعرض بعضها فى شأن آخر أعمق فى ضمير الإسلام ، وعليه قامت كل آساس الإسلام .

قلنـا منذ قليل عـن تلك اليقظة الدائمة التى يفرضها الإسـلام على ضمير الفرد ، والحساسية المرهفة التى يثيرها فى شعوره . ولقد حفظ الواقع التاريخى للإسلام نماذج لتلك اليقظة الدائمة ، ولهذه الحساسية المرهفة ، أكثر من أن نأتى هنا بها ، والنماذج القليلة المنوعة تغنى عن الـكثير .

عن بريدة قال : « جاء ماعز ابن مالك إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله طهرنى ، فقال: ويحك ! ارجع فاستغفر الله وتب إليه . قال فرجع غير بعيد ، ثم جاء فقال: يارسول الله طهرنى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله : مم أطهرك ؟ قال : من الزنا . فسأل رسول الله : أبه جنون ؟ فأخبر أنه ليس بمجنون . فقال : أشرب خمراً ؟ فقام رجل فاستنـكهه فلم يجد منه ريح خمر . فقال : أزنيت ؟ قال نعم ! فأمر به فرجم . فلبثوا يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: استغفروا لماعز ابن مالك ، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم . ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد ، فقالت : يارسول الله طهرنى . فقال : ويحك ! ارجعى فاستغفرى الله وتوبى إليه . فقالت : تريد أن تردنى كما رددت ماعز ابن مالك ! إنها حبلى من الزنا ! فقال : أنت ؟ قالت نعم . قال لها : حتى تضعى مافى بطنك . قال : فـكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قد وضعت الغامدية ، فقال : إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من ترضعه . فقام رجل من الأنصار فقال : إلىّ

رضاعه يانبي الله . قال فرجمها . ويروى أنه قال لها : اذهبي حتى تلدى . فلما ولدت قال : اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز ، فقالت : هـذا يانبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام .فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها . فيقبل خالد ابن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فتنضح الدم على وجه خالد ، فسبها ، فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : مهلا ياخالد ، فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت[1] » .

فهذا ماعز ابن مالك وهـذه صاحبته ؛ ولم يكن أحـدهما أو كلاهما ليجهل العقاب الأليم الذى يناله ، والمصير الشنيع الذى يحل به ؛ ولم يكن أحد قد رآهما لتثبت عليهما الجريمة ؛ ولـكنهما يلحان على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلما شاءت رحمته ورحمة الإسلام أن لايمضى فى تتبع الاعتراف أصرا وألحا،وأغلقا على أنفسهماجميع الأبواب والمنافذ؛ بل زادت المرأة أن تجبه محمداً رسول الله بأنه يريد أن يردها كما رد ماعزا : إن كانت لتكاد تقول لرسول الله فى شريعته !

لم هـذا كله ؟ . . فى قوله وقولها : « طهرنى يارسول الله » ما يشير إلى الباعث القوى الذى يغلب فى أنفسهما على رغبة الحياة . إنها يقظة الضمير ، وحساسية الشعور. إنها الرغبة فى التطهر من الإثم الذى لم يطلع عليه أحد إلا الله. إنه الحياء أن يلقيا الله غداً لم يطهرا من ذنب ارتكباه .

ذلك هو الإسلام . فى حساسيته المرهفة تبدو فى ضمير الجانى . وفى رحمته العميقة، تبدو فى رد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها ؛ كذلك يبدو فى حزمه فى تنفيذ العقوبة عند ثبوت

---

(١) مسلم والنسائى .

التهمة ، لايقفه نبل الاعتراف ولاعظم التوبة ، لأن الجانى والشارع يلتقيان هنا عند الرغبة فى قيام هذا الدين على أساسه الركين .

فهذه فى الحدود . فكيف بها فى الاعتبارات الاجتماعية التى يضحى أحياناً فى سبيلها بالحياة ؟

إنها قصة عزل خالد عن إمارة الجيش فى الشام ، وتوليتها أبا عبيدة . وخالد هو القائد الذى لم يهزم إلى ذلك اليوم فى موقعة قط ، وهو الجندى الذى تجرى الجندية فى كيانه فى الجاهلية والإسلام. خالد هذا يعزل من الإمارة ، فلا يضطغن ، ولا تأخذه العزة فينسحب من الميدان ــ ولا نقول يحاول الثورة ــ بل يظل فى المعركة بالعزيمة ذاتها، وبالرغبة فى نصرة دين الله، والاستشهاد فى سبيل الله لا يلقى بالا إلى هــذه الاعتبارات كلها فى الموقف ،لأن اليقظة الدائمة التى يفرضها الإسلام على ضمير الفرد ، والحساسية المرهفة التى يثيرها فى ضميره ،فوق كل الاعتبارات وفوق كل الملابسات .

ولهذه الواقعة دلالتها فى الجانب الآخر . جانب عمر ابن الخطاب . لقد كان عزله خالداً نتيجة هذه الحساسية المرهفة نفسها . فلقد أخذ على خالد فى خلافة أبى بكر أشياء ثار لها ضميره ، وهاجت لها حساسيته . أخذ عليه تسرعه فى قتل مالك ابن نويرة ، وإعراسه بعد ذلك بامرأته ؛ كما أخذ عليه بعدها حادثة قريبة منها هى زواجه من ابنه مجّاعة فى حرب مسيلمة الكذاب ، غداة مقتل ألف ومائتين من خيرة الصحابة فى هذه الحرب .. فلم يشفع له عنده فيما اعتقد من خطئه ، أن كان أكبر القواد وأكثرهم انتصارات ، والأمة الإسلامية على أبواب حروب ضخمة فى الشام والعراق ؛ وهى أحوج ما تكون إلى عبقرية خالد التى لم تهزم قط ، فلم يكن شىء من ذلك بقادر على أن يسكّن من حساسية ضمير عمر بخطأ خالد الفاحش ؛ وبضرورة إبعاده عن إمارة الجيش ، ثم عن الجيش كله . وقد انضم إلى هذه الحوادث كلها أن طريقة خالد فى استقلاله بما يوكل إليه من الأمور ، لاتتفق وخطة عمر ،

وطبيعته من الإشراف على الدقائق والجزئيات، استجابة لحساسية ضميره بالتبعات [1].

ولسائل أن يسأل: ولم أبقى أبو بكر على خالد إذن وهذا خطؤه؟

إن أبا بكر لم يسؤ ظنه بخالد إلى الحد الذى بلغه ظن عمر؛ فقد رأى أنه أخطأ فى التأويل، ولم يقصد خطيئة ولا إثما؛ فوسعه عفوه، وإن غضب على فعلته، وبخاصة الثانية، فكتب له كتاباً «يقطردماً». ولكن لما كان تقديره أن عمل خالد يقع فى دائرة الخطأ، عفا عنه وأبقاه.

هـذا هو التفسير الصحيح الذى يتفق وحساسية الضمير الإسلامى فى تلك الفترة. وأعجب العجب ما أورده رجل كالدكتور هيكل فى تعليل موقف أبى بكر وموقف عمر، من خالد ابن الوليد، ممـا يتجافى مع روح الإسلام، وإن كان يتفق مع ألاعيب السياسة العصرية فى هذه الأيام. قال فى كتابه «الصديق أبو بكر» ص ١٥٠ ـ ١٥٢:

«بلغ اختـلاف الرأى بين أبى بكر وعمر فى حادث مالك ابن نويرة ما رأيت. وكلا الرجلين كان يريد للإسلام والمسلمين الخير ولا ريب. أفكان اختلافهما مع ذلك راجعاً إلى خلاف فى تقدير ما صنع خالد، أم كان اختلافاً على السياسة التى يجب أن تتبع فى هذا الموقف الدقيق من حياه المسلمين. موقف الردة وقيام الثورة بها فى أنحاء شبه الجزيرة؟!

الرأى عندى فى هذا الخلاف أنه كان اختلافاً فى السياسة التى يجب أن تتبع فى هذا الموقف. وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين. أما عمر، وكان مثال العدل الصارم، فكان يرى أن خالداً عدا على امرئ مسلم، ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها؛ فلا يصح بقاؤه فى الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين، ويسىء إلى مكانتهم بين العرب؛ ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثم مع ليلى. ولو صح أنه تأول فأخطأ فى أمر مالك، وهذا ما لا يجيزه عمر، فحسبه ما صنع مع زوجته ليقام عليه الحد [2]. وليس ينهض عذراً له

(١) عن كتاب «خالد ابن الوليد» للأستاذ صادق عرجون.

(٢) لو كان هذا صحيحاً لأقام عليه الحد فى خلافته.

أنه سيف الله ، وأنه القائد الذى يسير النصر فى ركابه . فلو أن مثل هـذا العذر نهض لأبيحت لخالد وأمثاله المحارم ، ولـكان ذلك أسوأ مثل يضرب للمسلمين فى احترام كتاب الله . لذلك لم يفتأ عمر يعيد على أبى بكر ويلح حتى استدعى خالداً ، وعنفه على فعلته .

أما أبو بكر فكان يرى أن الموقف أخطر من أن تقام لمثل هـذه الأمور وزن . وما قَتْلُ رجل أو طائفة من الرجال لخطأ فى التأويل أو لغير خطأ ، والخطر محيط بالدولة كلها . والثورة ناشبة فى بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها . وهـذا القائد الذى يتهم بأنه أخطأ من أعظم القـوى التى يدفع بها البلاء ، ويتقى بها الخطر ؟ ! وما التزوج بامرأة على خلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرهـا ، إذا وقع هـذا من فاتح غزا فحق له بحكم الغزو أن تـكون له سبايا يصبحن ملك يمينه[1] ! إن التزمت فى تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ والعظماء من أمثال خالد ، وبخاصة إذا كان ذلك يضر بالدولة أو يعرضها للخطر .ولقد كان المسلمون فى حاجة إلى سيف خالد ، وكانوا فى حاجة إليه يوم استدعاه أبو بكر وعنفه أكثر من حاجتهم إليه من قبـل . فقد كان مسيلمة باليمامة على مقربة من البطاح فى أربعين ألفا من بنى حنيفة ؛ وكانت ثورته بالإسلام والمسلمين أعنف ثورة ؛ وكان قد تغلب على عكرمة ابن أبى جهل من قواد المسلمين ، وكان أكبر الرجاء معلقاً بسيف خالد فى الانتصار عليه . أفمن أجل مقتل مالك ابن نويرة ، أم من أجل ليلى الجميلة التى فتنت خالداً ، يعزل خالد وتتعرض جيوش المسلمين لتغلب مسيلمة ، ويتعرض دين الله لما يمكن أن يتعرض له ! ! إن خالداً آية الله وسيف الله . فلتكن سياسة أبى بكر حين استدعاه إليه أن يكتفى بتعنيفه ، وأن يأمره فى الوقت نفسه بالسير إلى اليمامة ولقاء مسيلمة .

« هذا فى رأيى هو التصوير الصحيح لمـا كان بين أبى بكر وعمر من خلاف فى هذا

(١) هذا كلام رجل يجهل بديهيات الشريعة الإسلامية . فإذا كان خالد عدا على امرئ مسلم فلا بد من إقامة الحد عليه . ثم مادام هذا المرء مسلماً فزوجه لا تسبى فى حرب ! !

الحادث . ولعل أبا بكر إنما أصدر أمره إلى خالد يومئذ بالسير للقاء مسيلمة بعد أن تغلب متنبئ بنى حنيفة على عكرمة ، ليرى أهل المدينةَ ومن كان على رأى عمر منهم خاصة ، أن خالداً رجل الملمات ، وأنه قد قذف به حين أصدر إليه هذا الأمر إلى جحيم ، إما ابتلعه وقضى عليه فكان ذلك خير عقاب له على ماصنع بأم تميم وزوجها ؛ وإما صهره النصر فيه وطهره ، فخرج مظفراً غانما قد سكّن من المسلمين روعا ، لا تعد فعلته بالبطاح شيئاً مذكوراً إلى جانبه » .

هـذا هو التصوير « الصحيح » للأمر فى نظر الدكتور هيكل ! وإن أعجب فعجب لرجل يعيش بفكره ونفسه فى جو هذه الفترة من التاريخ الإسلامى ، وفى ظل هـذه الضمائر المرهفة الحساسة الشديدة الحساسية من رجاله ؛ ثم لا يرتفع ضميره هو وشعوره بتفسير الحوادث عن هـذا المستوى ، المستمد مباشرة من ملابسات السياسة فى عصرنا المادى الحاضر ، لامن روح الإسلام وتاريخه فى تلك الفترة ! إنما هـذه سياسة أيامنا الحاضرة تبرر الوسيلة بالغاية ، وتهبط بالضمير الإنسانى إلى مستوى الضرورات الوقتية ؛ وتحسب هـذا براعة فى السياسة ، ولباقة فى تصريف الأمور . وما أصغر أبا بكر فى هـذا التصوير الذى يقول الدكتور هيكل : إنه هو التصوير الصحيح ! لولا أن أبا بكر كان أكبر وأبعد من مدى المجهر الذى ينظر به رجل يعيش فى عصر هابط ؛ فلا يستطيع إطلاقاً أن يرتفع إلى ذلك الأفق السامق البعيد . فضلا على الجهل الفاضح بأوليات الشريعة الإسلامية .

ومرة أخرى يعود الدكتور هيكل فى كتابه : « الفاروق عمر » جزء أول ، ليصور أفكار عمر وهو يهم بعزل خالد ، فيدركه هبوط العصر الذى يعيش فيه ، وتقعد به ثقلة رئيس الحزب الذى يرى المصالح الوقتية والضرورات المحلية ؛ ولا يطيق أبداً أن يستشعر روح الإسلام فى آفاقه العليا . ذلك حيث يقول فى ص ٩٩ ــ ١٠٠ :

« كيف غامر عمر بعزل خالد ، وخالد على رأس قوات المسلمين بالشام ؟ وهذه القوات في موقف دقيق ؟ فقد كانوا هناك بإزاء الروم ، لا يواجهونهم ، ولا يقدرون من أمرهم على شيء ، ولا يقدر الروم من أمر المسلمين على شيء . كان ذلك موقفهم قبل أن يذهب خالد بن الوليد من العراق إليهم ، ثم ظلوا فيه بعد أن أقام خالد بينهم ، وكان كلا الفريقين يتحين الفرصة التي يخرج فيها من جموده ، ويوقع فيها بعدوه . أفلا يخشى الخليفة أن يفت أمره بعزل خالد في أعضاد المسلمين ، فيزيد موقفهم دقة ؟ أو لم يكن الأجمل به أن يتريث حتى يخرج خالد بالمسلمين من المأزق الذي هم فيه ، وله بعد ذلك أن يأمر بما يشاء !

« هذه اعتبارات لها من غير شك قيمتها في تطور القتال ؛ وسنرى من بعد أن أبا عبيدة قدرها قدرها ، دون أن يخشى برم الخليفة به أو غضبه عليه . لكن عمر نظر في الأمر من غير هذه الناحية ، فلو أنه أرجأ الأمر بعزل خالد إلى ما بعد المعركة لأضر ذلك بسياسته وأفسد عليه خطته . فليس للمعركة مصير إلا أن ينهزم المسلمون فيها أو ينتصروا . فإن انهزموا لم يغن عزل خالد عن هزيمتهم ؛ وإن انتصروا وخالد قائدهم لم يكن لعمر أن يعزل قائداً في أوج نصره . فإن فعل أتى أمرا إدًّا . وعمر حريص على ألا يبقى خالد على القيادة العامة بالشام أو بغير الشام ؛ لذلك أسرع فأصدر الأمر بعزله ، وله من العذر أن خالداً لم يحقق ما ندبه أبو بكر لتحقيقه . فإذا انتصر المسلمون بعد هذا فلا تثريب على عمر فيه ، فهو إنما صنع ما اقتنع بأنه الحق ، وصنعه وخالد في موقف لا يظلمه من يأمر بعزله » .

هكذا يفكر هيكل « باشا » في القرن العشرين ، ثم يسند تفكيره إلى عمر في صدر الإسلام ؛ كما فكر من قبل ثم أسند تفكيره إلى أبي بكر ! وهذه قولة رجل لم تمس روحه روح أبي بكر ولا روح عمر ، ولم تستطع حياته في جو الإسلام فترة أن تنتزعه من

ملابسات القرن العشرين ، وما فيه من التواءات واحتيالات وانتهازات فرص على حساب الضمير أو حساب الحق أو حساب الدين .

وما ظن هيكل بعمر ؟ أفكان عمر مبقياً على خالد لوكان الظرف غير الظرف ، ولو كانت الفرصة غير الفرصة ؟ وهو يعتقد بينه وبين ضميره - كما صوره هيكل « باشا » - أن خالداً آثم فى حق مالك ابن نويرة وفى حق الله والدين ؟

أهو عمر ذلك الرجل الذى يقيم وزناً لهذه الاعتبارات ،ويحنى لها رأسه . وهو الذى كان يثنى الشواهق ولا ينثنى ، ويواجه العاصفة بالإيمان ولا ينحنى !

مثل هذا قد يصنعه ملوك بنى أمية أو ملوك بنى العباس ، ويعده الناس منهم دهاء وسعة حيلة؛ فأما عمر فلا ،وأما أبو بكر فلا كذلك . وإنما يظن بعضهم بهما هذا الظن لضحالة روح العصر وهبوط مقاييسه ومعاييره !

وبعد فقد أسهبت فى عرض هذا اللون من التفكير وتفنيده ، لأصحح الخطأ العميق الذى يقع فيه من يريدون تصوير طرائق التفكير والشعور فى عصر ارتفاع الروح الإسلامى ، على ضوء التفكير والشعور فى عصرنا المادى البعيد عن ذلك الروح المرهف . ومايجره هذا الخطأ من سوء الفهم لحقائق الضمير البشرى ، وطاقته فى السمو والحساسية . وما أريد أن ألبس أولئك الرجال ثوباً فضفاضاً ، ولا أن أصورهم معصومين من كل ضعف بشرى ؛ ولكنما أريد أن أرد الثقة بالضمير البشرى إلى نفوس الناس ؛ كما أريد أن أصور هذه الفترة من حياة المسلمين فى صورتها الصحيحة التى يستشعرها بقوة كل ضمير فيه استعداد للتطلع إلى هذا الأفق البعيد !

ثم لنمض فى استعراض نماذج الحساسية المرهفة فى شتى المناحى .

هـذا عمر بن الخطاب خليفة يقبل حاملا قربة ماء ، فيسأله ابنه فى استنكار : لم فعلت هـذا ! فيجيب : « أعجبتنى نفسى فأحببت أن أذلها » . يالها من حساسية ! لقد

استشعرت نفس الرجل شيئاً من الزهو فى أعماقها بالخلافة و بالفتوح و بالعظمة المقبلة ، فكره لها أن تلج فى هذا الزهو ، فبادر يذلها . ويذلها على مرأى من الناس . ولا يبالى أنه الخليفة الحاكم على رقعة تضم إلى بلاد العرب معظم إمبراطوريتى كسرى وقيصر !

وهـذا على ابن أبى طالب خليفة يرعد من البرد فى الشتاء ، وعلى جسده ثوب صيفى لا وقاء له سواه . وبيت المال فى يده ، تذوده عنه تلك اليقظة فى الضمير ، وذلك الإرهاف فى الشعور .

ثم هـذا أبو عبيدة مع جنده فى عمواس ، وقد أخذها الطاعون الفاتك ، ويخاف عمر على « أمين الأمة » فيدعوه ليلتمس له مخرجاً من الهـلاك فى كتاب يقول له فيه : « أما بعد ، فإنى قد عرضت لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هـذا ألا تضعه من يدك ، حتى تقبل إلىّ » . وينظر أبو عبيدة فى الكتاب فيدرك قصد عمر ، ويشعر أنه إنما أراد أن يستله من الوباء الفتاك ، فيقول : « يغفر الله لأمير المؤمنين ! » ثم يكتب إليه : « إنى قد عرفت حاجتك إلىّ ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم ، حتى يقضى الله فىّ وفيهم أمره وقضاءه ، فخلنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ، ودعنى فى جندى » . ويقرأ عمر الكتاب فيبكى ؛ فيسأله من حوله : أمات أبو عبيدة ؟ فيجيب والدمع يخنقه : « لا . وكأن قد » . . وقد كان !

أهـو الإيمـان العميق بقـــدر الله يمسك أبا عبيدة فى مرداه ! إنه لَهُوَ ، ومعه تلك الحساسية ألا يفر بنفسه ويدع جنده ، وهو وإياهم جند فى سبيل الله .

وهذا بلال ابن رباح مؤذن الرسول ، يرجوه أخوه فى الإسلام « أبو رويحة الخثعمى » أن يتوسط له فى الزواج من قوم من أهل اليمن فيقول لهم : « أنا بلال ابن رباح ، وهذا أخى

... رويحة ، وهو امرؤ سوء فى الخلق والدين ، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا » .

هكذا لا يدلس عليهم ، ولا يخفى من أمر أخيه شيئا ، ولا يذكر أنه وسيط لينسى أنه مسئول أمام الله فيما يقول . وقد زوجه القوم مطمئنين إلى هذا الصدق ، وحسبهم أن يكون صاحبه وسيطاً بين ابنتهم ومن خطبها إليه !

ثم هذا أبو حنيفة قد « بعث بمتاع إلى حفص ابن عبد الرحمن شريكه فى التجارة ، وأعلمه أن فى ثوب منه عيبا ، فبيِّنه للناس ، فباع حفص المتاع ، ونسى أن يبين ، واستوفى ثمناً كاملا لثوب غير كامل — وقيل إن الثمن كان ثلاثين ألفا ، أو خمسة وثلاثين ألفا — فأبى أبو حنيفة إلا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشترى ؛ ولكنه لم يهتد إلى الرجل ؛ فأبى أبو حنيفة إلا فصالا من شريكه ، وتتاركا . بل رفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله ، وتصدق به كاملا [(١)] » .

« ويروى أنه كان عند يونس ابن عُبيْد حلل مختلفة الأثمان . ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة ، وضرب كل حلة قيمتها مائتان . فمر إلى الصلاة ، وخلف ابن أخيه فى الدكان ، فجاء أعرابى وطلب حلة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المائتين ، فاستحسنها ورضيها واشتراها ، فمضى بها ، وهى على يديه ، فاستقبله يونس ، فعرف حلته ، فقال للأعرابى : بكم اشتريت ؟ فقال بأربعمائة ، فقال : لا تساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها ! فقال : هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأنا ارتضيتها ، فقال يونس : انصرف ، فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها . ثم رده إلى الدكان ، ورد عليه مائتى درهم ، وخاصم ابن أخيه فى ذلك ، وقال له : أما استحييت ! أما اتقيت الله ! تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ! فقال : والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟

(١) عن كتاب « أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام » للأستاذ عبد الحليم الجندى .

« وروى عن محمد ابن المنكدر أن غلامه باع لأعرابى فى غيبته شقة من الخمسيات بعشرة ، فلم يزل يطلب ذلك الأعرابى طول النهار حتى وجده . فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة . فقال : ياهذا قد رضيت. فقال : وإن رضيت فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا . ورد عليه خمسة »(١)

ومفتاح هـذه الحوادث الثلاث هو قول يونس ابن عبيد لابن أخيه : « أما استحييت ؟ أما اتقيت الله ؟ » . نعم إنه الحياء من الله ، وإنها التقوى لله . ذلك مايثيره الإسلام فى النفس الإنسانية بقوة حين تستشعر روحه ، ويمتزج بها وتخالطها بشاشته .

وإن وراء هـذه النماذج التى عرضناها لعشرات ومئات من أمثالها فى كل منحى وكل اتجاه ، وحسبنا منها هـذه المثل القليلة ، لتشير إلى الآفاق التى يهدف إليها الإسلام فى تطهير الضمير البشرى ورفعـه ؛ ليستعلى على جميع الملابسات والضرورات . على حب النفس والحياة ، وحب المال والجاه ؛ وليصبر على تـكاليف اليقظة الدائمة التى يفرضها على ضمير الفرد ، والحساسية المرهفة التى يثيرها فى شعوره ليضمن بذلك بلوغ تلك الآفاق .

ثم نمضى من بعد مطمئنين، نستعرض بعض جوانب الواقع التاريخى للإسلام فى العدالة الاجتماعية ، على هدى من تلك الآفاق المشعة العالية فى واقع الإسلام .

* * *

المساواة المطلقة بين بنى الإنسان كانت رسالة الإسلام ، والتحرر الوجدانى المطلق من جميع القيم وجميع الاعتبارات التى تخدش هذه المساواة . ولقد أسلفنا الحديث عن نظرية الإسـلام فى المساواة والتحرر ، والنصوص التى لا تدع مجالا للشك فى عمـق هـذه

(١) عن كتاب : « الرسالة الخالدة » للأستاذ عبد الرحمن عزام .

النظرية وتأصلها فى بناء الفكرة الإسلامية عن المجتمع الإنسانى ، فالآن ننظر كيف طبقت هذه النظرية فى واقع الحياة .

كان الرقيق فى كل مكان على وجه الأرض طبقة غير طبقة الأحرار ، وكذلك كان فى الجزيرة العربية . فأما محمد ابن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – فقد زوج ابنة عمته « زينب بنت جحش » سليلة قريش الهاشمية من مولاه زيد . والزواج مسألة حساسة ترتفع فيها قضية المساواة إلى أفق دونه كل أفق ؛ وما كان أحد غير هذا النبى ، ولا كانت قوة غير قوة هذا الدين ، بكافية أن تحقق هذه المعجزة التى لا تتحقق إلى اليوم فى غير بلاد الإسلام . ونحن نشهد فى الولايات المتحدة التى بطل فيها الرق بحكم القانون ، أن الزنجى لا يحرم عليه الزواج بالبيضاء – أية بيضاء – فحسب ، بل يحرم عليه دخول المدارس والجامعات والمطاعم ، والجلوس إلى جوار البيض فى المركبات العامة ، والنزول معهم فى المثاوى والفنادق حتى الآن !

وحينما آخى محمد – صلى الله عليه وسلم – بين المهاجرين والأنصار فى أول الهجرة كان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة ابن زيد أخوين ، وأبو رويحة الخثعمى وبلال ابن رباح أخوين . ولم تكن هذه الأخوة مجرد لفظ ، ولكنها صلة الحياة التى تعدل صلة الدم : صلة القربى فى النفس والمال وسائر مظاهر الحياة .

ثم يبعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – بزيد مولاه قائداً لغزوة مؤتة ؛ ثم بابنه أسامة قائداً لغزو الروم فى جيش يضم كثرة من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وفيهم عمر ، وزيرا الرسول وصاحباه ، والخليفتان بعده بإجماع المسلمين . وفيهم سعد ابن أبى وقاص وهو ذو قربى من رسول الله إذ كان من أخواله بني زهرة ومن أسبق قريش إلى الإسلام ، شرح الله له

صـدره وهو ابن سبعة عشر عاماً ، وهو ذو مال ونعمة وقـدرة على الحرب وعبقرية فى الجهاد .

فإذا قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصر أبو بكر على إرسال جيش أسامة، ثبّت قائده الذى اختاره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم سار يودعه إلى ظاهر المدينة، أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل ، فيستحيي أسامة أن يركب وهو شاب وخليفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمشى وهو شيخ ، فيقول : « ياخليفة رسول الله ، لتركبن أو لأنزلن » فيقسم الخليفة : « والله لاتنزل ، ووالله لاأركب. وما على أن أغبر قدمىّ فى سبيل الله ساعة ؟ » .. ثم يرى أبو بكر أنه فى حاجة إلى عمر ، وقد حمل عبء الخلافة على عاتقه؛ ولكن عمر إنما هو جندى فى جيش أسامة ، وأسامة هو الأمير ، فلابد من استئذانه فيه، فإذا الخليفة يقول : « إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل » .

يالله ! .. إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل .. إنها آفاق عوالٍ ، لايرقى إليها تعليق أو مقال .

ثم تمضى عجلة الزمن فنرى عمر بن الخطاب خليفة يولى عمار ابن ياسر على الكوفة ـ وهو أحد الموالى ـ ويقف بباب عمر سهيل ابن عمرو ابن الحارث ابن هشام ، وأبو سفيان ابن حرب وجماعة من كبراء قريش ؛ فيأذن قبلهم لصهيب وبلال ، وهما موليان فقيران ، لأنهما كانا من أهل بدر ومن السابقين من الصحابة ؛ فتورم أنف أبى سفيان من الغضب لهذا التقديم ؛ وينطلق لسانه يدعو بدعوى الجاهلية يقول : « لم أر كاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد، ويتركنا على بابه » !

ويمر عمر ابن الخطاب يوماً بمكة فيرى الخدم وقوفاً لا يأكلون مع سادتهم ،فيغضب، ويقول لسادتهم مستنكراً : « مالقوم يستأثرون على خدامهم ؟ » ثم يدعو الخدم للأكل مع السادة فى جفنة واحدة !

وكان عمر قد استعمل على مكة نافع ابن الحارث ، فلقيه عمر بعسفان ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى . قال : وما ابن أبزى؟ فقال : رجل من موالينا . فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ فقال : إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . فقال عمر : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال : «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين » .

وما كان سؤال عمر استنكاراً . إنما هو استفهام ليعلم فيم كانت مزية ابن أبزى وهو لا يعرفه ؛ وإلا فهو الذى يقول وهو يوصى بالستة أهل الشورى بعده : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لوليته » فهو عنده آثر من أهل الشورى وهم : عثمان وعلى وطلحة والزبير وابن عوف وسعد ابن أبى وقاص وعبد الله ابن عمر !

وخطب رجل من الموالى إلى رجل من قريش أخته ، وأعطاها مالا جزيلا ، فأبى القرشى تزويجها إياه . فلما بلغ ذلك عمر ، قال للقرشى : ما منعك أن تزوجه ، فإن له صلاحاً وقد أحسن عطية أختك ؟ فقال القرشى : يا أمير المؤمنين ، إن لنا حسباً ، وإنه ليس لها بكفء . فقال عمر : لقد جاء بحسب الدنيا والآخرة . أما حسب الدنيا فالمال ، وأما حسب الآخرة فالتقوى . زوِّج الرجل إن كانت المرأة راضية . فراجعها أخوها فرضيت . فزوجها منه .

وقد رأينا من قبل كيف كان بلال المولى شفيعاً لأبى رويحة العربى فى الزواج عند أهل اليمن ، فأكرموه من أجل بلال وقبلوه !

وقد كان المجال مفتوحاً أمام الموالى ليبلغوا أقصى مراتب المجد فى كل اتجاه : « قد كان عبدالله ابن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة . وكان عبد الله ابن عمر يذكر ومعه مولاه نافع . وأنس ابن مالك ومعه مولاه ابن سيرين . وأبو هريرة ومعه مولاه عبد الرحمن ابن هرمز .

« وفى البصرة كان الحسن البصرى ، وفى مكة كان مجاهد ابن جبر ، وعطاء ابن أبى رباح ، وطاووس ابن كيسان هم الفقهاء .

« وفى مصر تولى الفتيا يزيد ابن أبى حبيب فى أيام عمر ابن عبد العزيز ، وهو مولى أسود من دنقلة[1] . . . »

وبهذه الروح نفسها كان المسلمون ينظرون إلى العمال . فالعامل بيده مكرم محترم ، لا فى عالم النظريات والمثل ، بل فى واقع الحياة ؛ لا يخدش منزلة العامل أن تكون صناعته ما تكون ، فللعمل شرفه أياً كان ؛ ولن تمنعه حرفته التزود من العلم والتفوق فيه والاعتراف له بالأستاذية والتوقير .

« كان أبو حنيفة خزازاً ، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجاراً وصناعاً .

« هذا الإمام الخصاف أحمد ابن عمر ابن مهير ، أبوه تلميذ محمد والحسن صاحبى أبى حنيفة ؛ وكان الخصاف يؤلف للمهتدى بالله كتاب الخراج ؛ ويصنف كتبه العظيمة فى الفقه فى حين يعيش من خصف النعال . وهذا الكرابيسى يبيع الكرابيس أو الثياب الخام وهذا القفال يخرج يده فإذا على ظهر كفه آثار ، فيقول : هذا من أثر عملى فى الابتداء (صناعة الأقفال) : وهذا ابن قطلوبغا يعمل خياطاً . والجصاص شيخ زمانه ينتسب إلى العمل فى الجص . ثم هذا الصفّار (من بيع الأوانى الصفرية أى النحاسية) والصيدلانى (من بيع العطر) والحلوانى (كان أبوه يبيع الحلوى) والدقاق والصابونى والنعالى والبقالى والقدورى وغيرهم كثيرون . . يشهدون من خلال حقب التاريخ ، وبمجرد أن انفجر فجر الحضارة الإسلامية ، أن هذه الأمة حققت فى العصور الأولى ، ما جاهد العالم الغربى عشرات القرون لتحقيقه ولما يكد يحققه : أن ليس ثمة مهن رفيعة ، وأخرى وضيعة ، وإنما ثمة رجال رفيعون وآخرون لا رفعة فيهم[2] » .

***

(١) عن كتاب : « أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام » للأستاذ عبد الحليم الجندى .
(٢) المصدر السابق .

ولكن هذا الأفق من المساواة الإنسانية لا يتم تمامه حتى نعلم كيف كان المجتمع الإسلامى يعامل الأعلين من الناس فيه ، فإنه لا يكفى أن يحترم الأدنى ويسوّده ، إن لم ينزل الأعلى إلى مستوى واحد معه لا يفضله فيه إلا بالعمل ، والعمل وحده ، لا بالحسب والنسب ، والجاه والمال .

قال أبو يوسف فى كتاب « الخراج » : حدثنى عبد الملك ابن أبى سليمان عن عطاء قال : كتب عمر رضى الله عنه إلى عماله أن يوافوه بالموسم ، فوافوه ، فقام وقال : يا أيها الناس إنى أبعث عمالى هؤلاء ، ولاة بالحق عليكم ؛ ولم استعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دمائكم ولا من أموالكم ؛ فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم . قال : فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد ، فقال : ياأمير المؤمنين : عاملك ضربنى مائة سوط . فقال عمر : أتضربه مائة سوط ؟ قم فاستقد منه : فقام إليه عمرو ابن العاص فقال له : ياأمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على عمالك كبر عليهم ؛ وكانت سنة يأخذ بها من بعدك . فقال عمر : ألا أُقيده منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيد من نفسه ؟ قم فاستقد . فقال عمرو : دعنا إذن فلنرضه . قال فقال : دونكم . قال : فأرضوه بأن اشتريت منه بمئتى دينار ، كل سوط بدينارين !

ولقد اتقاها عمرو بن العاص عن سواه ، ولم يستطع أن يتوقاها عن ابنه حينما لطم ابن المصرى فأقاده منه عمر ، وهو يقول للمصرى : « اضرب ابن الأكرمين » وكاد عمرو نفسه يذوقها لولا أن كف المصرى وعفا !

ولقد جلس عمر ذات يوم يقسم مالاً بين المسلمين ، فازدحم الناس عليه ؛ فأقبل سعد ابن أبى وقاص — وقد مرّ بنا نسبه وبلاؤه فى الإسلام — فزاحم الناس حتى زحمهم وخلص إلى عمر ، فعلاه عمر بالدرة وهو يقول : « لم تهب سلطان الله فى الأرض فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك » .

ولعل قائلاً أن يقول : إنما هذا خليفة !

فلننظر الآن ماذا يلقى الخلفاء والملوك من رعاياهم من حرية فى القول والشعور، منشؤها ذلك التحرر الوجدانى الذى بثه الإسلام فى الضمير ؛ وتلك المساواة المطلقة التى حققها فى القول والعمل . وذلك النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى كفل لكل فرد وجوده وكرامته وكفل له العدل والنصفة من الأعلياء قبل الضعفاء !

هذا عمر يخطب الناس وهو خليفتهم فيقول : « إن رأيتم فىّ اعوجاجاً فقوّمونى » فينذب له رجل من عامة المسلمين يقول : «لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقوّمْناه بحد سيوفنا» ، فما يزيد عمر على أن يقول : « الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقوّمه بحد سيفه » !

وغنم المسلمون أبراداً يمانية ، فخصه برد ، وخص ابنه عبد الله برد ــ كأى رجل من المسلمين ــ ولما كان الخليفة فى حاجة إلى ثوب ، فقد تبرع له عبدالله ببرده ليضمه إلى برده فيصنع منهما ثوبا . ثم وقف يخطب الناس وعليه هـذا الثوب . فقال : « أيها الناس ! اسمعوا وأطيعوا » . فوقف سلمان فقال : لا سمع لك علينا ولا طاعة . قال عمر : ولم ؟ قال سلمان : من أين لك بهذا الثوب ، وقد نالك برد واحد وأنت رجل طوال ؟ قال : لاتعجل ، ونادى : ياعبد الله ! فلم يجبه أحد (فكلهم عبد الله !) قال: ياعبد الله ابن عمر . قال : لبيك ياأمير المؤمنين . قال : ناشدتك الله البُرْد الذى ائتزرت به أهو بُرْدك ؟ قال : اللهم نعم . قال سلمان : الآن مر نسمع ونطع .

وبعد ، فلعل قائلا أن يقول : إنما هذا عمر !

فذا أبو جعفر المنصور ينشىء دولة فى ظل الإرهاب والبطش ــ ولكنه لا يستطيع أن يمضى فى ذلك إلى بعيد ، وسلطان الإسلام قائم يحمى الناس حتى من ذوى البطش والإرهاب ! . . هاهو ذا يقيم دولة فى هذا الجو فيدخل عليه سفيان الثورى فيقول : « ... فما قولك أنت ياأمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ، ومال أمة محمد بغير إذنهم .وقد

قال عمر فى حجة حجهاوقد أنفق ستة عشر ديناراًهو ومن معه : « ماأرانا إلا وقد أجحفنا بيت المال » . وقد علمت ماحدثنا به منصور ابن عمار وأنت حاضر ذلك ، وأول كاتب كتبه فى المجلس ، عن إبراهيم عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود أن رسول الله قال : « رب متخوض فى مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه .. له النار غداً » ؟ فيقول أبو عبيد الكاتب ـ أحد متزلفى الحاشية فى بلاط الملوك : أمير المؤمنين يُستقبَل بمثل هذا؟ فيجيبه سفيان بعنف : « اسكت ، فإنما أهلك فرعون هامان ، وهامان فرعون »[(١)] . ثم يخرج وقد صدع بكلمة الحق القوية ، حيث لا يملك الجبابرة ـ مهما تجبَّرُوا ـ أن يجرؤوا على من عمرت قلبه ، وارتفع على الضرورات ، وأخلص نفسه لله .

وهذا هو الواثق ـ وهو أحد الملوك المستبدين أيضا ـ يدخل عليه شيخ من المتكلمين ، فيسلم فلا يرد عليه الواثق ، إنما يقول : لاسلم الله عليك ! فإذا الرجل يجبهه : « بئس ماأدبك معلمك ! قال الله تعالى : « وإذا حُيِّيتم بتحيةٍ فحيُّوا بأحسن منها أو رُدُّوها » فلا حييتنى بأحسن منها ولا رددتها »[(٢)] .

ويجلس أبو يوسف للقضاء ، فيختصم إليه رجل مع الهادى ، الملك العباسى ، فى بستان ؛ ويرى أبو يوسف أن الحق مع الرجل ، ولكن للسلطان شهوده ، فيقول : إن الخصم يطلب أن يحلف الهادى على أن شهوده صادقون ! فينكل الهادى عن اليمين ـ لما يعتقد فيها من مهانة له ـ ويرد البستان على صاحبه . وكذلك يحلّف الرشيد فى قضية رأى أن يحلفه فيها . وشهد عنده الفضل ابن الربيع فرد شهادته ، فعاتبه الخليفة قائلا : لم رددت شهادته ؟ قال سمعته يقول : أنا عبدك . فإن كان صادقاً فلا شهادة للعبد . وإن كان كاذباً إنه لكذلك[(٣)] » .

---

(١) عن كتاب : أبو حنيفة للأستاذ الجندى .
(٢) عن كتاب : المسند الجزء الأول نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر .
(٣) عن كتاب أبو حنيفة للأستاذ الجندى .

ولم تخب هذه الشعلة التى أضاءها الإسلام فى الضمير حتى فى أحلك عصور التاريخ ، فقد تناثرت على مداه أمثلة شتى لهذا التحرر الوجدانى ، والسمو الروحى على جميع القيم ، وجميع القوى ، وجميع الملابسات .

« كان أحمد ابن طولون فى مصر يعظّم بكار ابن قتيبة القاضى الحنفى فيجئ إلى مجلسه ؛ ولا يحس بكار بمقدمه إلا إذا جاء إلى جنبه . فلما طالبه بلعن الموفق (ولى عهد الخليفة العباسى) توقف وقال : ألا لعنة الله على الظالمين . وقيل لابن طولون : إنما قصدك بهذا القول . فطالبه ابن طولون برد الجوائز التى أجازه بها ، فأخذها كما هى بخواتمها . وسجنه فى دار اكتريت له ، فكان يجلس فى طاق ويحدث الناس بإذن التمسوه من ابن طولون . فلما عرضت لابن طولون علته التى مات بها وجه إليه يستحله ؛ فقال للرسول : قل له أنا شيخ كبير ، وأنت عليل ، والملتقى قريب ، والله الحاجز بيننا . ومات ابن طولون فكان بكار يقول : مات البائس [1] » .

هكذا . مات البائس . لما كان يحسه فى نفسه من تعالٍ عليه ، ولما كان يراه فيه من بؤس ولو أوتى السلطان !

وفى أيام الدولة الأيوبية : « لما والى الملك إسماعيل الإفرنج أيام الحروب الصليبية ، وسلم لهم صيداء وغيرها من الحصون لينجدوه على الملك نجم الدين أيوب ، أنكر عليه عز الدين ابن عبد السلام هذه الفعلة ، فغضب عليه وعزله واعتقله . ثم بعث إليه يعده ويمنيه ، فقال له الرسول : « تعاد إليك مناصبك وزيادة ، وما عليك إلا أن تنكسر للسلطان » فما كان جواب الشيخ إلا أن قال : « والله ماأرضاه أن يقبل يدى . ياقوم أنتم فى واد وأنا فى واد [2] » .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .

وفى أيام الظاهر بيبرس كان الشيخ محيي الدين النووى بدمشق ، وكان كثير الوعظ للظاهر ، يكتب إليـه بما يراه إن كان بمصر ، ويصدع بكلمة الحق أمامه إن كان الظاهر بدمشق . .

وقد سجل السيوطى فى حسن المحاضرة طائفة كبيرة من تلك المكاتبات ، وأكثرها خاص بطلب ترك بعض الضرائب المفروضة لضيق الحال ، وخشية المآل ، فيقول فى إحداها: « إن أهل الشام فى هذه السنة فى ضيق وضعف حال، بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار ، وقلة الغلات والنبات ، وهلاك المواشى ، وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعيـة ، ونصيحتهم (أى ولى الأمر) فى مصلحته ومصلحتهم ؛ فإن الدين النصيحة » .

وقد رد السلطان هـذه النصيحة ردا عنيفا ، واستنكر على العلماء موقفهم منـه ، وسكوتهم يوم كانت البلاد تحت سنابك الخيل فى عهد التتار عندما استولوا على الشام ؛ فيرد الشيخ أيضاً رداً قويا مؤكدا قوله ونصيحته ، ومبينا أنها الميثاق الذى أخذه الله على العلماء ليبيننه ، ويقول ــ رضى الله عنه ــ ردا عليه وعلى تهديده : « وأما ماذُكر فى الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا فى البلاد ، فكيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان وأهل القرآن بطغاة الكفار ؟ وبأى شىء كنا نذكر طغاة الكفار ، وهم لا يعتقدون شيئا من ديننا . . . وأما أنا فلا يضرنى التهديد ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان ، فإنى أعتقد أن هـذا واجب علىّ وعلى غيرى ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله . . . وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كان ، وألا نخاف فى الله لومة لائم ؛ ونحن نحب السلطان فى كل الأحوال ، وما ينفعه فى آخرته ودنياه » .

وقد توالت كتب الشيخ بهذه القوة الرفيقة ، ولكن لم ينتصح الظاهر بنصيحته ،

واستمر فى جباياته لأنها الحرب التى تحتاج إلى المال والعتاد ؛ وقد جمع السلطان فتاوى العلماء فى تأييد عمله ، فكتبوا بما أراد ماعدا الشيخ محيى فإن ذلك زاده استمساكا برأيه وشدة فيه ؛ فأحضره الظاهر ليوقع على ما وقعوا ؛ فعندئذ أجابه جوابا عنيفا ، بعد تلك الكتب الرفيقة . قال له : « أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأسير بندقدار ، وليس لك مال ، ثم منّ الله عليك وجعلك ملكا ، وسمعت أن عندك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة [1] من ذهب ، وعندك مائة جارية ، لكل جارية حق من الحلى ، فإن أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ المال من الرعية » .

فغضب الظاهر ، وقال : اخرج من بلدى (أى دمشق) فقال : السمع والطاعة. وخرج إلى نوى بالشام ، فقال الفقهاء : إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ، وممن يقتدى به ، فأعده إلى دمشق ، فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ ، وقال : لا أدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر [2] .

وقد وعى التاريخ القريب نماذج من هذه الكرامة نذكر منها حادثين سمعتهما من أفواه الرواة ، ولا أعلم أنهما قد دوّنا . والأول رواه لى المرحوم أحمد شفيق باشا المؤرخ المعروف عن عصر إسماعيل ، والثانى يرويه الكثيرون لقرب عهده فى أيام الخديو توفيق .

فأما الحادث الأول فكان عند مازار السلطان عبد العزيز مصر فى أيام إسماعيل .وكان إسماعيل حفيا بالزيارة ، لأنها كانت جزءاً من برنامجه للحصول على لقب خديو ، مع عدة امتيازات فى نظام الحكم بمصر . وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل السلطان العلماء

(١) الحياصة : الثياب الموشاة بالذهب فى مضايقها .
(٢) عن كتاب « ابن تيمية » للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

فى السراى . ولما كانت للمقابلة السنية تقاليد ، منها أن ينحنى الداخل إلى الأرض ، ويأخذ « تعظيما تركيا » ثلاث مرات ، ثم ما أدرى ماذا من تلك التقاليد العتيقة السخيفة المنافية لروح الإسلام . . فقد كان حتما على رجال السراى أن يدربوا العلماء على طريقة المقابلة عدة أيام ، كى لايخطئوا فى حضرة السلطان !

وعندما حان الموعد دخل السادة العلماء الأجلاء ؛ فنسوا دينهم واشتروا به دنياهم ؛ وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات ؛ وأخذوا من الأرض السلام إلى رؤوسهم، ثم منها إلى أفواههم ، ثم منها إلى صدورهم . وخرجوا موجهين ظهرهم إلى الباب ووجههم إلى السلطان ، كما أمرهم رجال التشريفات .. ! إلا عالما واحداً هو الشيخ حسن العدوى؛ ذكر دينه ونسى دنياه ؛ واستحضر فى قلبه أن لاعزة إلا لله. دخل مرفوع الرأس كما ينبغى أن يدخل الرجال المؤمنون بالله ، وواجه الخليفة بتحية الإسلام :« السلام عليكم ياأمير المؤمنين» وابتدره بالنصيحة التى ينبغى أن يتلقى بها العالم الحاكم . دعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذاب الله ، والعدل والرحمة بين رعاياه . . فلما انتهى سلم وخرج مرفوع الرأس كما يخرج الرجال المؤمنون بالله !

وأسقط فى يد الخديو ورجال السراى ، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم ، وأن السلطان لابد غاضب ، فضائعة تلك الجهود التى بذلوا ، فذاهبة تلك الآمال التى نسجوا ... !

ولكن كلمة الحق المؤمنة لاتذهب سدى ؛ فلا بد أن تصدع القلوب قوية حارة ، كما انبعثت من مكمنها قوية حارة . وهكذا كان . فقال السلطان : ليس عندكم إلا هذا العالم . وخلع عليه دون سواه !

وأما الحادث الثانى فوقع فى « دار العلوم » بين الخديو توفيق باشا والشيخ حسن الطويل .

كان الرجل يلبس جلباباً وجبة غير مشقوقة ، وهو أستاذ فى الدار . وفى يوم علم الناظر أن الخديو سيزور مدرسته ، فأخذ أهبته ، وزين مدرسته ، وكان من بين الأهبة أن يغير الشيخ حسن الطويل زيه ، ويستحضر له قفطاناً وجبة مشقوقة ، حتى يظهر فى الزى الذى يليق أن يقابل به الحكام !

وسمع الشيخ طلب الناظر فوافق بالإيماء . وفى الصباح حضر الشيخ كما هو ومعه منديل « محلاوى » به حزمة ملابس . ولما رآه الناظر هكذا سيء وجهه ، وقال والغضب والألم يبدوان عليه : أين الجبة والقفطان ياسيدنا الشيخ ؟ فأشار إلى المنديل وقال : هنا ؟ وترك الناظر يفهم أنه سيرتديهما عند قدوم الزائر العظيم ! فاطمأن الناظر إلى هذا التصرف الغريب !

ومر الوقت واهتزت أركان الدار بقدوم الزائر المرتقب . وهنا كانت المفاجأة العظمى للناظر وللأساتذة وللجميع . . تقدم الشيخ من الخديو وبيده الحزمة وهو يقول فى بساطة وثقة واعتداد : قالوا لابد أن تحضر بالجبة والقفطان ، فحضرت بالجبة والقفطان ، فإن كنت تريد الجبة والقفطان فهاهما ، وإن كنت تريد « حسن الطويل » فهذا هو حسن الطويل !
قال الخديو طبعاً إنه يريد حسن الطويل !

هذه نفوس مؤمنة لاتعتز إلا بعزة الإسلام ؛ وقد تحررت وجداناتها وضمائرها من كل القيم الزائفة ، والاعتبارات الفانية . لقد فهمت الإسلام على حقيقته ، واستشعرته فى صميمه ، واستلهمت روحه القوية العالية ، فلم تعد فى حاجة إلى استرضاء إنسان . وهذا هو الإسلام .

* * *

وبعد فلعل مما يتصل بالمساواة الإنسانية والتحرر الوجدانى والعدالة المطلقة أن نتحدث عن الواقع التاريخى فى معاملة البلاد المفتوحة ، والطوائف غير الإسلامية فى بلاد الإسلام .

فهذا لون من المساواة والعدل يتجاوز الأفراد إلى الجماعات؛ ويتجاوز حدود الإسلام إلى حدود الإنسان .

إن الحديث عن البلاد المفتوحة ليسوقنا إلى الحديث عن طبيعة الفتح الإسلامى وأسبابه وغاياته . وهو مبحث طويل ، نجتزئ منه بالقليل الذى لا بد منه ، والذى له علاقة وثيقة بالعدالة الاجتماعية فى محيطها الإنسانى .

لقد قامت دعوة الإسلام على مخاطبة العقل والضمير والوجدان ؛ وتجردت من وسائل القهر ، حتى القهر المعنوى بالخوارق المعجزة التى صاحبت الأديان الأولى ؛ فالإسلام هو الدين الذى احترم القوى المدركة الشاعرة فى الإنسان ، فاكتفى بخطابها بلا قهر ولا إعجاز بخوارق الطبيعة ، فمن باب أولى ألا يجعل القهر المادى بالسيف أداة من أدواته . . « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ[1] » . . « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[2] » .

ولكن قريشاً وقفت أول الأمر بالقوة المادية فى طريق الدين الجديد ؛ وآذت من شرح الله صدره للإسلام ؛ وشردت المسلمين القلائل من أرضهم وديارهم وأبنائهم ؛ وتآمرت عليهم أن تقاطعهم فى الشعب حتى يهلكوا جوعاً ؛ ولم تدع وسيلة من وسائل القوة المادية إلا استخدمتها للصد عن هذا الدين . فلم يكن بد أن يدفع الإسلام عن نفسه ؛ وأن يرد هذا الظلم عن أهله : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ[3] » .. « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[4] » .

ثم خلصت جزيرة العرب للإسلام ، فامتدت الفتوح الى ماوراء الجزيرة . ففيم كانت هذه الفتوح ؟

(١) سورة البقرة : [٢٥٦] .
(٢) سورة النحل : [١٢٥] .
(٣) سورة الحج : [٣٩] .
(٤) سورة البقرة [١٩٠]

إن الإسلام كما أسلفنا عقيدة عالمية ، ودين عام ؛ فهو لا يحصر نفسه فى حدود الجزيرة ، إنما يريد أن يفيض على الإنسانية كلها فى جميع أقطارها . ولكنه يجد أمامه قوة الدولة فى إمبراطوريتى كسرى وقيصر المتاخمتين له ، تقف له بالمرصاد ؛ فلا تسمح لدعاته أن ينتشروا فى الأرض، ليكشفوا للناس عن حقيقة هذا الدين . ولابد له أن يزيل هذه القوة ـ قوة الدولة ـ ويقيم مكانها النظام الإسلامى القائم على عبودية الناس لله وحده، وخروجهم من العبودية للعباد ، ليخلى بين الهدى والناس، وليسمع كلمته خالصة ؛ فمن شاء استمع إليها وهو حر الإرادة ؛ ومن شاء أعرض عنها وهو مالك لأمر نفسه ، بعد أن تزول قوة الدولة المادية من الطريق . وبعد أن تصبح الدينونة لله وحده ـ بسيادة شريعته ونظامه ـ ولا تكون لأحد من العباد . وهذا معنى أن يكون « الدين » كله لله حسب التعبير القرآنى الكريم : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »[1] فالدين هنا يعنى الدينونة . والمقصود به أن تكون حاكمية الله هى وحدها التى يدين لها الناس ، وأن يخرجوا من حاكمية العباد ثم يختاروا عقيدتهم بلا إكراه ..

هذه الفتوح الإسلامية إذن لم تكن غزواً للشعوب بالقوة ؛ ولا استعماراً للاستغلال الاقتصادى على نسق الاستعمار فى القرون الأخيرة . إنما كانت إزالة للقوة المادية للدولة التى تحول دون الشعوب ودون العقيدة الجديدة . كانت غزواً روحياً للشعوب ، وغزواً مادياً للحكومات التى تقهر هذه الشعوب ، وتصدها عن الدين الجديد بالقوة المادية والجبروت ، وتخضعها للمتألهين من الحكام .

وتبعاً لحقيقة أن الإسلام دين للبشر كافة وأنه لا يعتمد على القهر المادى ، فإنه وضع شعوب الدنيا أمام ثلاث طرق ، لكل أن يسلك إحداها : الإسلام ، أو الجزية، أو القتال .

(١) سورة الأنفال : [٣٩]

فأما الإسلام ، فلأنه الهدى ، ولأنه التصور الجديد الكامل عن الألوهية والكون والحياة والإنسان ؛ وهو المجاز الذى يعبره غير المسلم ، فإذا هو منذ اللحظة الأولى أخ لجميع المسلمين ، له مالهم وعليه ماعليهم ، لا يرتفعون عليه بحسب أو نسب أو مال أو جاه ، ولا يختلف عنهم بجنس أو لون أو أمة أو عشيرة .

وأما الجزية ، فلأن الفرد المسلم يؤدى ضريبة الدم لحماية الدولة ؛ ثم يؤدى للدولة الزكاة لحماية المجتمع . والفردُ غير المسلم يتمتع بالأمن فى ظل الدولة الإسلامية ، وبالحماية الداخلية والخارجية، وبسائر المرافق التى تهيئها الدولة للسكان ، كما يتمتع بالضمان الاجتماعى عند العجز والشيخوخة . فيجب عدلا أن يساهم فى هذا كله بالمال . ولما كانت الزكاة عبادة إسلامية فوق أنها فريضة مالية ، فإن الإسلام ــ زيادة فى حساسيته تجاه الذين لا يعتنقونه ــ لم يشأ أن يرغمهم على أداء عبادة إسلامية ، فأخذ منهم الفريضة المالية فى صورة جزية ، لا فى صورة زكاة ، منظورا فى تقديرها إلى ضريبة الدم التى لا يؤديها إلا المسلمون. ثم إن الجزية علامة تسليم ، أى عدم مقاومة للإسلام بالقوة ، وتخلية بينها وبين الناس. وهذا ما يهدف إليه الإسلام .

وأما القتال ؛ فلأن إباء الإسلام والجزية دليل على الإصرار الواضح على الحيلولة دون الإسلام وأفكار الناس . فيجب إذن أن يزال هذا الإصرار المادى بالقوة المادية ، لأن هذا هو الطريق الوحيد الأخير .

ولقد حقق الإسلام أهدافه كاملة فى البلاد المغزوة ؛ فكفل لأهلها المساواة المطلقة بأهل الجزيرة فى حالة الإسلام ؛ وكفل لهم حقوق الإنسانية الكريمة فى حالة دفع الجزية ؛ وكفل لهم المعاملة الإنسانية العادلة فى حالة القتال .

أقر الإسلام بعض حكام البلاد المفتوحة على حكمها إذ صاروا من المسلمين . فهذا « بازان » الفارسى يقره أبو بكر على حكم اليمن . وهذا « فيروز » يقيمه حاكما على

صنعاء ، فلما أجلاه عنها قيس بن عبد يغوث العربى ،رده إليها أبو بكر منتصراً للمسلم الفارسى على المسلم العربى !

كذلك أقر الحكام المسلمون كثيراً من الموظفين فى بلادهم المفتوحة على وظائفهم التى هى دون الولاية ، ممن بقوا على دينهم ولم يسلموا ، وأخلصوا فى العمل للصالح العام .

ومع أن نصوص الإسلام تبيح للفاتحين أن يستأثروا بكل ما يملك المحاربون الذين يأبون الإسلام والجزية ويقاتلون المسلمين ، فإن عمر ابن الخطاب حين فتحت فارس على أيامه ، تصرف بما أملته عليه روح الإسلام، فاستبقى الأرض لأهلها وفرض عليها الخراج، مراعياً فى ذلك مصلحتين : مصلحة أهل البلاد المفتوحة ـ ولو أنهم قاتلوا المسلمين ـ لتبقى لهم وسيلة ارتزاقهم وعملهم ؛ ومصلحة الأجيال القادمة من المسلمين ؛ فلا يستأثر بالأرض دونهم الفاتحون فى جيل واحد ؛ بل يؤخذ منها الخراج فينفق فى مقبل الأجيال على المصالح العامة ؛ وينال منه المستحقون بقدر مايستحقون فى الزمن الطويل .

وهناك ظاهرة واضحة فى معاملة الإسلام للبلاد المفتوحة . فلقد عاملها على الأساس الإنسانى الكريم ؛ فأباح لها كل مافيه من خير ؛ وأتاح لها التمتع بمزاياه جميعا دون قيد ولا شرط ؛ بل دعاها بكافة الوسائل إلى الانتفاع بذلك الخير والتمتع بهذه المزايا . ولم يقم حاجزاً من اللون أو الجنس أو الدين أو اللغة أمام أحد ؛ فاستطاع الجميع أن يبذلوا نشاطهم الطبيعى لخير الجميع . وقد أسلفنا كيف نبغ الموالى وأبناء البلاد المفتوحة فى خاصة ما يختص بالإسلام وهو الفقه والحديث ؛ فلم يكن مرفق من مرافق الحياة العامة موقوفا على أبناء الجزيرة الفاتحين ؛ حتى الولاية العامة كانت من نصيب بعضهم فى بعض الأحيان . كما أن أموال كل بلد كانت تنفق فى مصالحه أولا ؛ فلا يرسل إلى بيت

المال إلا ما فضل منها . فلم تكن البلاد المفتوحة مستعمرة يعيش الفاتحون من دماء أهلها وأموالهم .

ومما يتصل بهذه الظاهرة الواضحة تلك الحرية التى كفلها الإسلام لأهل البلاد المفتوحة فى مزاولة شعائرهم الدينية ؛ وهذه الحماية التى فرضها لبِيَعهم وكنائسهم ومعابدهم وأحبارهم ورهبانهم ؛ وهذا الوفاء بالعهود المقطوعة لهم وفاء نادر المثال لم تعرفه الإنسانية فى معاملاتها الدولية فى القديم أو الحديث . وما تزال تقاليد الإسلام إلى اليوم عاملة فى هذا المجال .

وإن الإسلام ليبدو فارعاً سامقاً رفيعاً كريماً فى واقعه التاريخى فى جميع العصور ، حينما تقاس إليه الحضارة الغربية القائمة ، وما تصنعه بالبلاد التى يوقعها سوء الطالع فى أوهاق الاستعمار ، حيث يحال بين هذه البلاد وبين المزايا الحقيقية للحضارة الغربية فى التربية والتعليم ، وفى الاقتصاد والتعمير ، كى تبقى أطول أمد ممكن بقرة حلوبا للمستعمرين . وذلك فوق الإذلال لكل كرامة إنسانية ، فردية أو جماعية ؛ وفوق الفساد الخلقى الذى ينشر عن قصد وسوء نية ؛ وفوق الفتن الحزبية والطائفية التى تبذر بذورها ويتعهد غرسها ؛ وفوق سائر ألوان اللصوصية والنهب والسلب للأفراد والجماعات والشعوب. فأما الحرية الدينية التى يتشدق بها بعضهم فى هذا الزمان ، فقد سبقتها فظائع محاكم التفتيش فى الأندلس ، وفظائع الحروب الصليبية فى الشرق . وما تزال هذه الحرية الدينية شكلية . فقد كان المبشرون المسيحيون فى السودان الجنوبى إلى عهد قريب جداً تجند لهم كل قوى الدولة ، بينما يحظر دخول المسلمين حتى للتجارة ، وهذا « أللنبى » القائد الإنجليزى فى الحرب العظمى الماضية يعبر عن نفس كل أوربى وهو يدخل بيت المقدس فيقول : « الآن فقط انتهت الحروب الصليبية » وهذا هو الجنرال كاترو الفرنسى يقف فى دمشق فى ثورتها الأخيرة عام ١٩٤٠ فيقول : « نحن أحفاد

الصليبيين ، فمن لم يعجبه أن نحكم فليرحل » ويقول مثلها زميل له فى الجزائر سنة ١٩٤٥ .
فأما فى الكتلة الشيوعية فالمسلمون يصب عليهم الإفناء بالجملة ، فيتناقص عددهم فى ربع قرن من اثنين وأربعين مليونا إلى ستة وعشرين مليونا فى روسيا ، ويحرمون الآن بطاقات التموين التى يستحيل على الأفراد أن يحصلوا على ضرورياتهم بدونها . ويقال لهم : لكم أن تصلوا لله إذا شئتم ، ولكن لا طعام لكم من الدولة فاطلبوا من الله هذا الطعام ! وشبيه بهذا مايصيبهم فى الصين ويوغسلافيا وفى كل مكان .

لقد كان الإسلام قمة فى العدل الاجتماعى الإنسانى الشامل لم تبلغها بعد الحضارة الأوروبية . ولن تبلغها أبدا ، لأنها حضارة المادة الجامدة . حضارة القتل والقتال والغلب والنضال ![1]

* * *

ولقد سبق الحديث عن منهج الإسلام فى الرحمة والبر والتكافل الاجتماعى الشامل بين القادرين والعاجزين ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الحاكم والمحكوم ؛ بل بين جميع أبناء الإنسان . فالآن نعرض نماذج من الواقع التاريخى ، مما حفل به تاريخ الإسلام الطويل .

فهذا أبو بكر كان له يوم أسلم أربعون ألف درهم مدخرة من ربح تجارته ، وقد ربح الكثير من التجارة بعد إسلامه ؛ فلما هاجر إلى المدينة مع صاحبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن قد بقى له من كل مدخره سوى خمسة آلاف درهم . لقد أنفق ماله المدخر فى افتداء الضعفاء من الموالى المسلمين الذين كانوا يذوقون العذاب ألوانا من سادتهم الكفار ، كما أنفقه فى بر الفقراء والمعوزين .

وهذا عمر ابن الخطاب ـ وإنه لرجل فقير ـ يصيب أرضاً بخيبر ، فيجىء

(١) يراجع بتوسع كتاب « السلام العالمى والإسلام » وفصل : « طبيعة الفتح الإسلامى » فى كتاب « دراسات إسلامية » للمؤلف .

رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيقول : أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندى منــه . فما تأمر به ؟ فيجيبه الرسول : « إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها » فيجعلها عمر وقفا على الفقراء والقربى وفى الرقاب وفى سبيل الله والضعيف ، لاجناح على من وليهــا أن يأكل منهــا بالمعروف ، ويطعم صــديقاً غــير متمول فيهــا . ويخرج بذلك من أعز ماله تصــديقا لقول الله: « لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »(١) .

وهذا عثمان ــ قبــل الخلافة ــ ترد عير له من الشام فى وقت نزل فيــه البرح بالمسلمين من الجدب ، فإذا هى ألف بعير موسوقة براً وزيتاً وزبيباً ، فيجيئه التجار يقولون : بعنا من هذا الذى وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس . . فيقول : حبا وكرامة . كم تربحونى على شرائى ؟ فيجيبون : الدرهم درهمين . فيقول : أعطيت أكثر من هذا . فيقولون : ياأبا عمرو ، مابقى فى المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذى أعطاك ؟ فيجيب : إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ فيقولون: لا . فيشهد الله على أن هذه العير وما حملت صدقة لله على المساكين والفقراء من المسلمين .

وهذا على وأهل بيته يتصدقون بثلاثة أرغفة من سويق كانت لهم ، على مسكين ويتيم وأسير ، ثم يبيتون على الطوى ، وقد شبع المسكين واليتيم والأسير .

وهــذا الحسين يثقله الدين وهو يملك عين أبى نيزر ، فلا يبيعها ، لأن فقراء المسلمين يستقون منها ، فهى لهم ، وليحتمل ثقلة الدين وهو الــكريم ابن الــكرام من ذروة هاشم .

وهؤلاء الأنصار فى المدينة يشركون المهاجرين فى أموالهم ومساكنهم ، ويؤاخونهم فيعقلون معاقلهم ، ويفدون عانيهم ، ويخلطونهم بأنفسهم « وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ »(٢) . كما وصفهم القرآن الــكريم .

---

(١) سورة آل عمران : [٩٢] .   (٢) سورة الحشر : [٩] .

وتظل روح الإسلام عاملة فى هذا الاتجاه ما بعدت دار الإسلام عن التأثر بالحضارة الغربية المـادية ، فيروى الأستاذ عبد الرحمن عزام فى كتابه « الرسالة الخالدة » عن قبيلة الطوارق يقول :

« رأيت بعض قبائل الطوارق فى شمـال إفريقية يحيون حيـاة هـذا التـكافل السعيد ؛ فليس فيهم من يعيش لنفسه ، وإنمـا لجماعته ، وأعظم مايفخر به ويعتز ، هو ما يصنع لهـذه الجماعة . وأول ما لفت نظرى لحالتهم هـذه أن رجلا من أهل الحضر هاجر من الفرنسيين ، ونزل بينهم فى فزّان ، فجاورهم وعاش بفضلهم ؛ ثم خرج يطلب الرزق ، ويريد أن يرد الجميل ، وترك أسرته فى جوار هـذه الجماعة الإسلامية . غير أن النحس لازمه ، ولم يستطع كسبا ، فجاءنا فى « مصراتة » يستمدنا ، فأعنّاه ليعود إلى أهله ، ولـكنه عاد إلىّ بعد نحو سنة مرة أخرى ، فظننت أنه رجع من أهله ، فقال : لا . وإنما الآن أستطيع الرجوع إلى أهلى . فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : بعـد لقائنا الأخير اتجرت بما حصلت عليه،وأصبح الآن فى يدى ما أعود به إلى جماعة الطوارق. فقلت : إلى أولادك أم إلى جماعة الطوارق ؟ قال : إلى الطوارق أولا ، فهم آووا أولادى فى غيبتى ، وأنا سأكفل أولاد من أجده غائباً منهم ، وأقسِّمُ ما أعطَى الله بين أولادى وأولاد جيرانى . فقلت : هل تعيش جماعتـكم كلها كما تعيش أنت مع جيرانك؟ قال : كلنا فى الخير والشر سواء ، والفضل لصاحب الفضل ، والواحد من جماعتنا يستحى أن يعود إلى النجع خالياً ، لا حياء من أهل بيته ، بل حياء من جيرانه الذين ينتظرون عودته ، كأهل بيته سواء بسواء »

ثم يعقب على هذه المشاهدة بـكلمة صادقة تمثل الحقيقة الواقعة :

« ليست جماعة الطوارق هذه أو أضرابها من أهل البادية وسكان القفر مختصة بهذه الروح الجماعية ، ولا هى من مستلزمات عصبيتها ، وإنما هى الروح الإسلامية أكثر ظهوراً

فى هؤلاء الذين لا يزالون بمعزل من الحياة الحديثة المادية . وقد وجدت هـذه الروح فى الدساكر والقرى الإسلامية التى لا تزال مطبوعة بالطابع الإسلامى ، سواء أكان أهلها عربا أم عجما ، بيضاً أم سودا ، فى المشرق أم فى المغرب . فقد رأيت جماعة المسلمين فى كثير منها لا يزالون يحيون حياة الخير والتضامن والتكافل والتعاون على البر . . لا يزالون أقرب إلى المجتمع الصالح كما أراده صاحب الدعوة ، من عشرات الملايين الذين فتنوا بالحضارة الغربية المادية ، فهم يعيشون لأنفسهم ، ولو انقرضت جماعتهم ؛ ويؤثرون شهواتهم على البر بأهلهم فضلا عن جيرانهم » .

هذا التكافل الذى توحى به روح الإسلام لم يكن متروكا للوجدان الفردى والجماعى وحده . فقد كان الحاكم يلزم به ويطبقه . فهذا عمر ابن الخطاب يفرض للمفطوم والمسن والمريض فريضة من بيت المال ـ وذلك غير مصارف الزكاة المعروفة . وهذا هو يدرأ حد السرقة فى عام الرمادة حين جاع الناس . لأن فى الجوع شبهة الاضطرار إلى السرقة ، والحدود تدرأ بالشبهات .

ولعل الحادثة التالية عن عمر ذات معنى حاسم فى التطبيق العملى للتكافل ، ولحق الملكية الفردية وحدوده فى محيط الجماعة !

« روى أن غلمانا لا بن حاطب ابن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، فأتى بهم عمر ، فأقروا ، فأمر كثير ابن الصلت بقطع أيديهم ، فلما ولىّ رده ، ثم قال . أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم ، حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له ، لقطعت أيديهم ثم وجه القول إلى عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة فقال : وأيمن الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنك غرامة توجعك ! ثم قال : يا مزنى ، بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال : بأربعمائه . قال عمر لابن حاطب : اذهب فأعطه ثمانمئة » وأعفى الغلمان السارقين من الحد ، لأن صاحبهم اضطرهم إلى السرقة لجوعهم ، وحاجتهم إلى سد رمقهم .

ومما يزيد فى جلال هذا التكافل الاجتماعى فى تاريخ الإسلام أن يتعدى الدائرة الإسلامية إلى الدائرة الإنسانية .

رأى عمر شيخاً ضريراً يسأل على باب فسأل ، فعلم أنه يهودى فقال له : ما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال : انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين . وهذا من مساكين أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

ولما سافر إلى دمشق مر بأرض قوم مجذّمين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات، وأن يجرى عليهم القوت .

وهكذا ارتفع روح الإسلام بعمر إلى هذا الأفق الإنسانى الكريم منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ؛ فيجعل الضمان الاجتماعى حقاً إنسانياً ، لا يتعلق بدين ولا ملة ، ولا تعوقه عقيدة ولا شرعة .

ألا إنه الأفق البعيد السامق الذى تطلع البشرية اليوم دون مرتقاه !

* * *

فأما سياسة الحكم وسياسة المال من الوجهه الرسمية فى الدولة ، فقد شهد الواقع التاريخى عنهما فترة فريدة فى حياة الإسلام ، لم تعمر طويلا مع الأسف الشديد . وسنرى فيما بعد علة هذا ، لنرى إن كانت العلة كامنة فى طبيعة النظام الإسلامى فى هاتين الناحيتين كما يزعم الزاعمون أم إنها الملابسات الأخرى التى لا علاقة لها بطبيعة هذا النظام . ولنبدأ بالحديث عن سياسة الحكم ، إذ كانت سياسة المال فى الواقع التاريخى تبعاً لها، وفرعاً عن تصورها .

حينما حضرت النبى صلى الله عليه وسلم الوفاة دعا بأبى بكر ليصلى بالناس ؛ فلما

راجعتــه عائشــة ، لأن أبا بكر رجل أسيف ، فإذا قام فى الناس لم يسمعوا صوته .. أخذه الغضب ، وذكر صويحبات يوسف ! وأصر على دعوة أبى بكر ليصلى بالناس .

أفكان ذلك استخلافاً من الرسول صلى الله عليه وسلم لصاحبه فى الغار ؟ وهل فهم المسلمون منه ذلك فهماً صريحاً ؟

نستبعد نحن هذين الفرضين . فلو شاء النبى صلى الله عليه وسلم أن يستخلف ، ولو كان هذا الاستخلاف من فرائض هذا الدين ، لجهر بالاستخلاف كما جهر بكل فريضة أخرى من فرائض دينه . ولو أنْ فهم المسلمون منه فهماً صريحاً أنه يستخلف أبا بكر ما ثار الجدل فى السقيفة بين المهاجرين والأنصار ، فما كان الأنصار ليجادلوا فى أمر رسول الله .

كان الأمر إذن للشورى بين المسلمين ، وللإقناع وللاقتناع بمن هو أحق الناس بالخلافة . ولئن كان الجدل يوم السقيفة قد انتهى إلى أن تـكون الخلافة فى المهاجرين ، فما كان ذلك فرضاً إسلامياً ؛ ولـكنه تواضع واتفاق بين جماعة المسلمين ، كان الأنصار يملـكون رده ولا تثريب عليهم ، لولا أنهم ارتضوه لأنه أصلح خليفة، ولأن المهاجرين أسبق إلى الإسلام ، ولعوامل محلية واقعة بين الأوس والخزرج كذلك فى المدينة .

وإذا كان التراضى قد تم يومذاك أن تـكون الخلافة فى المهاجرين ، فما كان هناك ما يلزم أن تـكون فى قريش خاصة ؛ ولو كان الأمر كذلك ما قال عمر ابن الخطاب وهو يعين أهل الشورى بعده : « ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لاستخلفته » فسالم ليس قرشياً عن يقين ! وروح الإسلام ومبادئه تأبى أن تجعل لقريش درجة فوق درجة المسلمين ، لمجرد أنها قريش ، أو أن فيها نسب الرسول . والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى يقول : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »[1] .

ولقد استخلف أبو بكر عمر، ولـكن هذا لم يكن إلزاماً منه للمسلمين ؛ فلقد كانوا فى

(١) مسلم وأبو داود والترمذى

حلّ من رد هذا الاستخلاف . وعمر لم يصبح خليفة بحكم استخلاف أبى بكر له ، بل بمبايعة الناس إياه . وكذلك عين عمر بعده ستة للشورى على أن يختاروا منهم واحداً . وما كان المسلمون بملزمين أن يختاروا واحداً من الستة ، وإنما هم التزموا لأن الواقع كان يشهد بأن الستة هم الأفضل ، وأن تعيين عمر لهم يتفق مع هذا الواقع .. من هنا جاء الالتزام .
فأما البيعة لعلىّ ؛ فقد ارتضاها قوم ، وأباها آخرون ، فكانت الحرب للمرة الأولى بين المسلمين . وأعقبتها الكوارث التى حاقت بروح الإسلام ومبادئه فى الحكم والمال ، وفى غير الحكم والمال .

هذا الاستعراض السريع يكشف لنا عن قاعدة الإسلام الأصيلة فى الحكم . وهى أن اختيار المسلمين المطلق هو المؤهل الوحيد للحكم . وهذا ما فهمه المسلمون وهم يؤخرون عليا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرب الناس نسباً إليه . ولقد يكون علىّ قد غبن فى تأخيره ـ وبخاصة بعد عمر . ولكن هذا التأخير كان له فضله فى التقرير العملى لنظرية الإسلام فى الحكم ، حتى لاتقوم عليها شبهة من حق الوراثة ، الذى هو أبعد شىء عن روح الإسلام ومبادئه . وأيا كان الغبن الذى أصاب شخص الإمام كرم الله وجهه فإن تقرير هذه القاعدة كان أكبر منه على كل حال !

فلما جاء الأمويون ، وصارت الخلافة الإسلامية ملكا عضوضاً فى بنى أمية ، لم يكن ذلك من وحى الإسلام ، إنما كان من وحى الجاهلية الذى أطفأ إشراقة الروح الإسلامى .
ويكفى أن نثبت هنا بعض الروايات عن الملابسات التى صاحبت البيعة ليزيد ابن معاوية :

كان معاوية بعد أخذ البيعة ليزيد فى الشام قد كلف سعيد ابن العاص أن يحتال لإقناع أهل الحجاز ، فعجز ، فسار معاوية إلى مكة ومعه الجند والمال . ودعا وجهاء المسلمين فقال لهم :

« قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم بيزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن

تقدموا يزيد باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه »

فأجابه عبد الله ابن الزبير مخيراً بين أن يصنع كما صنع رسول الله إذ لم يستخلف أحداً، أو كما صنع أبو بكر إذ عهد إلى رجل ليس من بنى أبيه ، أو كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه . فاستشاط معاوية غضباً وهو يقول : « هل عندك غير هذا ؟ » قال : لا . والتفت معاوية إلى الآخرين يسألهم : فأنتم ؟ قالوا على ما قال ابن الزبير . فقال يتوعدهم : « أعذر من أنذر . إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلىّ القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس،فأحمل ذلك وأصفح . وإنى قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ؛ فلا يبقين رجل إلا على نفسه » !

فأما الذى كان بعد ذلك ، فهو أن أقام صاحب حرس معاوية رجلين على رأس كل وجيه من وجهاء الحجاز المعارضين ، وقد قال له معاوية : « إن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما » .

ثم رقى المنبر فقال : « هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى إلا على مشورتهم . وإنهم قد رضوا وبايعوا يزيد ، فبايعوه على اسم الله [1] »

فبايع الناس !!!

على هذا الأساس الذى لا يعترف به الإسلام البتة قام ملك يزيد . فمن هو يزيد ؟

هو الذى يقول فيه عبدالله ابن حنظلة : « والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء . إن رجلاً ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ، ويدع الصلاة . والله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسناً » .

---

(١) ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٦ هـ . ونحن لا نحب أن نجزم بصدق مثل هذه الرواية ولكن تبرئة للاسلام فى ذاته نقول : إنها إن صحت كان هذا مخالفة أساسية لطبيعة المنهج الإسلامى فى الحكم لا تبررها حجة ، ولا يقوم لها عذر !

فإذا كانت هذه مقالة خصم ليزيد ، فإن تصرفات يزيد العملية الواقعية فيما بعد ، من قتل للحسين ـ رضى الله عنه ـ على ذلك النحو الشنيع ، إلى حصار البيت ورميه . . . إلخ تشهد بأن خصوم يزيد لم يبالغوا كثيراً فيما قالوه !

وأيا ما كان الأمر فإن أحدا لا يجرؤ على الزعم بأن يزيد كان أصلح المسلمين للخلافة وفيهم الصحابة والتابعون . إنما كانت مسألة وراثة الملك فى البيت الأموى . وكان هذا الاتجاه طعنة نافذة فى قلب الإسلام ، ونظام الإسلام ، واتجاه الإسلام .

وفى سبيل تبرئة الإسلام : روحه ومبادئه ، من ذلك النظام الوراثى الذى ابتدع ابتداعا فى الإسلام نقرر هذه الحقائق لتكون واضحة فى تصور الحكم الإسلامى على حقيقته .

***

ولكى ندرك عمق هذه الحقيقة ، يجب أن نستعرض صوراً من سياسة الحكم فى العهود المختلفة على أيدى أبى بكر وعمر . وعلى أيدى عثمان ومروان . وعلى يدى على الإمام . ثم على أيدى الملوك من أمية . ومَن بعدهم من بنى العباس . بعد هذه الهزة المبكرة فى تاريخ الإسلام .

حينما ندب المسلمون أبا بكر ليكون خليفة رسول الله ، لم تزد وظيفته فى نظره على أن يكون قائما بتنفيذ دين الله وشريعته بين المسلمين ! فلم يخطر له أن هذه الوظيفة تبيح له شيئا لم يكن مباحاً له وهو فرد من الرعية ، أو تمنحه حقاً جديداً لم يكن له ، أو تسقط عنه تكليفاً واحداً مما كان يكلفه ، سواء لنفسه أو لعشيرته أو لإلهه !

وقف عقب انتهاء البيعة له بالسقيفة فقال : « أما بعد ـ أيها الناس ـ فإنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى . الصدق أمانة والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى

فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ؛ ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ماأطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

وكان منزل أبى بكر بالسنح على مقربة من المدينة منزلا صغيراً متواضعاً . فلما ولى الخلافة لم يغيره ولم يغير فيه . وكان يمشى على قدميه من منزله بالسنح إلى المدينة غدواً ورواحاً ؛ وربما ركب فرساً له لا من أفراس بيت المال ؛ حتى إذا زادت أعباء عمله انتقل إلى المدينة .

وكان يعيش من رزقه فى التجارة ، فلما أصبح أراد أن يغدو على تجارته . فأمسكه المسلمون ، وقالوا : إن هذا الأمر لايصلح مع التجارة . فسأل ـ كأنما لايعلم طريقاً آخر للقوت ـ ومم أعيش ؟ فتروروا فى الأمر ؛ ثم جعلوا له من بيت المال كفايته لقوته وقوت عياله ، جزاء قعوده عن التجارة ، واحتباسه للوظيفة .

ومع هذا فقد أوصى عند ماحضرته الوفاة أن يحصى ماأخذه من بيت المال ، فيرد من ماله وأرضه ، تورعاً وتعففاً عن مال المسلمين . وكان يعد نفسه مسؤولا عن حاجة كل فرد فى الرعية ،مدفوعاً إلى هذا باليقظة الدائمة التى يفرضها الإسلام على ضمير الحاكم والمحكوم، والحساسية المرهفة التى يثيرها فى ضمير الجميع . وقد وصل فى هذا إلى حد أنه قد كان يحلب للضعفاء ممن حوله بالسنح أغنامهم ؛ فلما ولى الخلافة سمع جارية تقول : اليوم لاتحلب لنا منائح دارنا ! فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم . . فكان يحلبها ، وربما سأل صاحبتها : ياجارية ! أتحبين أن أرغى لك أم أصرح ؟ فربما قالت :أرغ ، وربما قالت: صرح .فأى ذلك قالته فعل .

وكان عمر بن الخطاب ـ فى خلافة أبى بكر ـ يتعهد امرأة عمياء بالمدينة ويقوم بأمرها ؛ فكان إذا جاءها ألفاها قد قضيت حاجاتها ؛ فترصد عمر يوماً ، فإذا أبو بكر هو

الذى يكفيها مؤونتها ، لاتشغله عن ذلك الخلافة وتبعاتها . عندئذ صاح عمر حين رآه : « أنت هو لعمرى ! » .

هذه لمحة من تصور أبى بكر للحكم . فلما أن خلفه عمر لم يختلف هذا التصور ، ولم يفهم عمر أن منصبه الجديد يرتب له حقوقاً جديدة من أى نوع ـ غير أن يزيد فى تبعاته فى القيام بتنفيذ شرع الله .

خطب عقب البيعة له فقال : « أيها الناس : ماأنا إلا رجل منكم ، ولولا أننى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ماتقلدت أمركم » .

وخطب خطبته الثانية فقال فيها : «ولكم علىّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها : لكم على ألا أجتبى شيئا من خراجكم ولا ماأفاء الله عليكم إلا من وجهه ؛ ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ألا يخرج منها إلا فى حقه ؛ ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال» .

وكان يقول : « إنى أنزلت مال اللهمنى بمنزلة مال اليتيم ، فإن استغنيت عففت عنه ؛ وإن افتقرت أكلت بالمعروف » .

سئل يوماً عما يحل لهمن مال الله فقال : « أنا أخبركم بما أستحل منه : يحل لى حلتان: حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر ، وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم » .

وكذلك عاش ، ولكنه كثيراً ما كان يتحرج حتى مما أحل لنفسه .. اشتكى يوماً فوصف له العسل وفى بيت المال عكة منه ، فلما كان على المنبر قال : « إن أذنتم لى فيها ، وإلا فإنها علىّ حرام » ، فأذنوا له .

ورأى المسلمون ماهو عليه من الشدة ، فذهب بعضهم إلى ابنته حفصة أم المؤمنين

فقالوا لها : « أبىٰ عمر إلا شدةعلى نفسه وحصرا ، وقد بسط الله فى الرزق ، فليبسط فى هذا الفىء فيما شاء منه ، وهوفى حل من جماعة المسلمين ». فلما كلمته حفصةفى ذلك كان جوابه: « ياحفصة بنت عمر . نصحت قومك وغششت أباك ، إنما حق أهلى فى نفسى ومالى ، فأما فى دينى وأمانتى فلا ! » .

وكان يشعر شعوراً عميقاً بوجوب المساواة بينه وبين أفراد رعيته ؛ فلما جاع الناس فى عام الرمادة ، آلى على نفسه : لا يذوق سمناً ولا لحماً حتى يحيا الناس . وظل كذلك حتى اسود جلده وبسر من أكل الزيت ؛ ثم جاءت السوق عكة من سمن ووطب من لبن فاشتراهما غلام له بأربعين درهما ، وذهب إليه ينبئه أن الله أحله من يمينه، وأن قد قدمت السوق عكة من سمن ووطب من لبن وقد اشتراهما له ، فلما علم الثمن قال له :«أغليت فتصدق بهما ، فإنى أكره أن آكل إسرافاً » وأطرق هنيهة ثم قال :« كيف يعنّينى شأن الرعية إذا لم يمسنى مايمسهم ؟ » .

لقد كان يرى أن يحرم نفسه حرمان رعيته ، ليحس بما يمسها كما قال ؛ ولأنه فى أعماق نفسه ما كان يرى أن قيامه بالحكم يجعل له حقوقا وامتيازات ليست لسائر الناس ؛ وأنه إن لا يعدل فى هذا فما هو بمستحق طاعة الرعية ؛ وقصة البرود اليمانية ، وإقراره بسقوط طاعته حتى يثبت عدله قد سبق أن ذكرناها ؛ وهى تقرر مبدأ من مبادئ الحكم فى الإسلام : أن لا طاعة لإمام غير عادل ؛ ولو كان يقر أن الحاكمية لله وحده ويحكم بشريعة الله ، ولكنه لا يعدل فى الأحكام .

ولقد كان هذا الشعور الإسلامى عميقاً فى نفسه ، مصاحباً له فى كل ملابسة . فقد ساوم رجلاً على فرس، ثم ركبه ليجربه فعطب ، فأراد أن يرده إلى صاحبه فأبى ، فتحاكما إلى شريح القاضى ، فسمع حجة كل منهما ، ثم قال : « ياأمير المؤمنين خذ ماابتعت ،

أو رد كما أخذت » . فقال عمر : « وهل القضاء إلا هكذا ؟ » . ثم أقام شريحاً على قضاء الكوفة جزاء ما قضى بالحق والعدل .

***

فإذا فهم عمر الحكم على أساس هذا التصور ، فلا مجال لأن يكون لقرابة الحاكم امتيازات ما على سائر أفراد الرعية . فإذا تناول ابنه عبد الرحمن الخمر فلا بد من الحد ، وقصته فى ذلك معروفة ؛ وإذا عدا ابن عمرو بن العاص على المصرى فلا بد من القصاص. فأما فى المال فعماله مسؤولون عن كل ما زاد فى أموالهم بعد الولاية ، خشية أن يكون نموّها على حساب مال المسلمين ، أو بسبب من جاه الولاية . و « من أين لك هذا » كان قانونه الذى عامل به عماله واحداً واحداً كلما وجد مبرراً لأن يعاملهم به ، فقد قاسم عمرو ابن العاص واليه فى مصر ، وسعد ابن أبى وقاص واليه فى الكوفة، كما ضم مال أبى هريرة واليه فى البحرين.

ولقد كان قوام تصور الحكم فى نفس عمر باختصار هو : الطاعة والنصح فى حدود الدين من الرعية ، والعدل والحسنى كذلك من الراعى . ولقد قبل من رجل من رعيته أن يقول له : « لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » فأقر بذلك مبدأ حق الرعية فى تقويم الراعى . كما خطب الناس يوماً فقال : « إنى لم أستعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، وليشتموا أعراضكم ، ويأخذوا أموالكم ؛ ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم . فمن ظلمه عامل بمظلمة ، فلا إذن له علىّ ، ليرفعها إلىّ حتى أقصه منه » . فأقر بذلك حدود الحاكم على الناس لا يتعداها .

ولشعوره العميق بتبعات الحاكم لم يشأ أن يحملها اثنان من أسرة الخطاب ، فمنع أن يكون ابنه عبد الله مرشحاً لها . وإن جعله من أهل الشورى . وقال قولته المشهورة التى تنطق بحقيقة تصوره للخلافة : « لا أرب لنا فى أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد

من بيتى ، إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد » .

* * *

هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئاً ما دون شك على عهد عثمان – وإن بقى فى سياج الإسلام – لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير . ومن ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام . كما أن طبيعة عثمان الرخية ، وحدبه الشديد على أهله ، قد ساهم كلاهما فى صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله ، وكانت لها معقبات كثيرة ، وآثار فى الفتنة التى عانى الإسلام منها كثيرا .

منح عثمان ، من بيت المال ، زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مئتى ألف درهم . فلما أصبح الصباح جاءه زيد بن أرقم خازن مال المسلمين ، وقد بدا فى وجهه الحزن وترقرقت فى عينه الدموع ، فسأله أن يعفيه من عمله ؛ ولما علم منه السبب وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين ، قال مستغرباً : « أتبكى ياابن أرقم أن وصلت رحمى ؟ » فرد الرجل الذى يستشعر روح الإسلام المرهف : « لا ياأمير المؤمنين . ولكن أبكى لأنى أظنك أخذت هذا المال عوضا عما كنت أنفقته فى سبيل الله فى حياة رسول الله . والله لو أعطيته مئة درهم لكان كثيرا ! » فغضب عثمان على الرجل الذى لا يطيق ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين وقال له : « ألق بالمفاتيح ياابن أرقم فإنا سنجد غيرك » !

والأمثلة كثيرة فى سيرة عثمان على هذه التوسعات ؛ فقد منح الزبير ذات يوم ستمئة ألف ، ومنح طلحة مئتى ألف ، ونفّل مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية . ولقد عاتبه فى ذلك ناس من الصحابة على رأسهم على بن أبى طالب ، فأجاب : « إن لى قرابة ورحماً » فأنكروا عليه وسألوه : « فما كان لأبى بكر وعمر قرابة ورحم ؟ » فقال : « إن أبا بكر

وعمر كانا يحتسبان فى منع قرابتهما ، وأنا أحتسب فى إعطاء قرابتى » فقاموا عنه غاضبين يقولون : « فهديهما والله أحب إلينا من هديك » ..

وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابه عثمان .وفيهم معاوية الذى وسع عليه فى الملك فضم إليه فلسطين وحمص؛ وجمع له قيادة الأجناد الأربعة ومهد له بعد ذلك أن يطلب الملك فى خلافة علىّ وقد جمع المال والأجناد . وفيهم الحكم ابن العاص طريد رسول الله الذى آواه عثمان وجعل ابنه مروان ابن الحكم وزيره المتصرف . وفيهم عبد الله ابن سعد ابن أبى السرح أخوه من الرضاعة ... الخ .

ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب ، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ تقاليد الإسلام ، وإنقاذ الخليفة من المحنة ؛ والخليفة فى كبرته لا يملك أمره من مروان .وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام فى نفس عثمان ؛ ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ ، الذى نلتمس أسبابه فى ولاية مروان الوزارة ؛ فى كبرة عثمان .

ولقد اجتمع الناس ، فكلفوا علىّ ابن أبى طالب أن يدخل إلى عثمان فيكلمه ، فدخل إليه فقال : « الناس ورائى وقد كلمونى فيك . والله ماأدرى ماأقول لك ، وما أعرف شيئا تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعلم ما نعلم ؛ ماسبقناك إلى شىء فنخبرك عنه ؛ ولا خلونا بشىء فنبلغكه ؛ وماخصصنا بأمر دونك . وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صهره . وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك ؛ ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخير منك ؛ وإنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً ؛ ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم ينالا ؛ ولا سبقاك إلى شىء . فالله الله فى نفسك ؛ فإنك والله ما تُبَصَّرُ من عمى ؛ ولا تُعَلمُ من جهل ؛ وإن الطريق لواضح بيّن ؛ وإن أعلام الدين لقائمة . تعلم ياعثمان

أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدى وهَدى ؛ فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة متروكة ؛ فوالله إن كلاً لبيِّن ؛ وإن السنن لقائمة لها أعلام ؛ وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضَل وضُل به ؛فأمات سنة معلومة ،وأحيا بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر ، فيلقى فى جهنم[1] » .

فقال عثمان : « قد والله علمت ليقولُن الذى قلت . أما والله لو كنت مكانى ماعنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ؛ وماجئت منكراً أن وصلت رحماً ، وسددت خلة ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى . أنشدك الله ياعلى . هل تعلم أن المغيرة ابن شعبة ليس هناك ؟ قال : نعم ، قال : أتعلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم . قال : فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟ قال على : سأخبرك . إن عمر كان كل من ولّى فإنما يطأ على صماخه ، إن بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية . وأنت لاتفعل . ضعفت ورفقت على أقربائك . قال عثمان : وأقرباؤك أيضاً ! قال على : لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم . قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته ، فقال على : أنشدك الله ! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر ، من يرفأ غلام عمر منه ؟ قال نعم . قال على : فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت لاتعلمها ، فيقول للناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية ! »

وأخيراً ثارت الثائرة على عثمان ، واختلط فيها الحق بالباطل ، والخير بالشر . ولكن لابد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام ، ويستشعر الأمور بروح الإسلام ، أن يقرر أن تلك الثورة فى عمومها كانت فورة من روح الإسلام ؛ وذلك دون إغفال لما كان وراءها من كيد اليهودى ابن سبأ عليه لعنة الله !

(١) ذكره الطبرى فيما يرويه فى سنة أربع وثلاثين هجرية .

واعتذارنا لعثمان رضى الله عنه : أن الخلافة قد جاءت إليه متأخرة ، فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين ، فكان موقفه كما وصفه صاحبه على بن أبى طالب: « إنى إن قعدت فى بيتى قال : تركتنى وقرابتى وحقى ؛ وإن تكلمت فجاء مايريد ، يلعب به مروان ، فصار سيقة له يسوقه حيث شاء ، بعد كبر السن وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولقد كان من جراء مباكرة الدين الناشئ بالتمكين منه للعصبة الأموية على يدى الخليفة الثالث فى كبرته ، أن تقاليده العملية لم تتأصل على أسس من تعاليمه النظرية لفترة أطول . وقد نشأ عن عهد عثمان الطويل فى الخلافة أن تنمو السلطة الأموية ويستفحل أمرها فى الشام وفى غير الشام ؛ وأن تتضخم الثروات نتيجة لسياسة عثمان (كما سيجىء) وأن تخلخل الثورة على عثمان بناء الأمة الإسلامية فى وقت مبكر شديد التبكير .

ومع كل مايحمله تاريخ هذه الفترة وأحداثها من أمجاد لهذا الدين ، تكشف عن نقلة بعيدة جدا فى تصور الناس للحياة والحكم ، وحقوق الأمراء وحقوق الرعية ، إلا أن الفتنة التى وقعت لا يمكن التقليل من خطرها وآثارها البعيدة المدى .

* * *

مضى عثمان إلى رحمة ربه ، وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل مامكن لها فى الأرض ، وبخاصة فى الشام ، وبفضل مامكن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام ، من إقامة الملك الوراثى والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع ، مما أحدث خلخلة فى الروح الإسلامى العام . وليس بالقليل ما يشيع فى نفس الرعية ـ إن حقاً وإن باطلا ـ أن الخليفة يؤثر أهله ، ويمنحهم مئات الألوف ؛ ويعزل أصحاب رسول الله ليولى أعداء رسول الله ؛ ويبعد مثل أبى ذر لأنه أنكر كنز الأموال ، وأنكر الترف الذى يخب فيه الأثرياء ، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الإنفاق والبر والتعفف..

فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار ، إن حقاً وإن باطلا ، أن تثور نفوس ، وأن تنحل نفوس. تثور نفوس الذين أشربت نفوسهم روح الدين إنكارا وتأثما ؛ وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداء ، ولم تخالط بشاشته قلوبهم ، والذين تجرفهم مطامع الدنيا ، ويرون الانحدار مع التيار . وهذا كله قد كان فى أواخر عهد عثمان .

فلما أن جاء على ـ كرم الله وجهه ـ لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه فى هوادة. وقد علم المستنفعون على عهد عثمان ، وبخاصة من أمية ، أن عليا لن يسكت عليهم ، فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية .

جاء على ليرد التصور الإسلامى للحكم إلى نفوس الحكام ونفوس الناس . جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها ، ويختم هو على جراب الشعير ويقول : « لا أحب أن يدخل بطنى إلا ما أعلم » . وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام ، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثرا عليه الخصاص التى يسكنها الفقراء . جاء ليعيش كما روى عنه النضر ابن منصور عن عقبة ابن علقمة قال : دخلت على علىّ عليه السلام ، فإذا بين يديه لبن حامض ، آذتنى حموضته ؛ وكسر يابسة . فقلت : « ياأمير المؤمنين ! أتأكل مثل هذا ؟ فقال لى : يا أبا الجنوب ! كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ـ فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به » . أو كما روى عنه هارون ابن عنترة عن أبيه قال : دخلت على علىّ بالخورنق ، وهو فصل شتاء ، وعلية خلق قطيفة ، وهو يرعد فيه . فقلت : ياأمير المؤمنين ! إن الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيباً ، وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال : والله ما أرزؤكم شيئاً ، وما هى إلا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة » .

وما يصنع علىّ هذا بنفسه وأهله ، وهو يجهل أن الدين يبيح له فوق ما يصنع ، وأنه لا يحتم التزهد والحرمان والشظف ، وأن حظه من بيت المال فى ذلك الحين ـ كفرد

من المسلمين ـ يبلغ أضعاف ما يأخذ ، وأن راتبه كأمير للمؤمنين يؤدى خدمة عامة ، أكبر من هذا لو شاء أن يأخذ مثلما خصصه عمر لبعض ولاته على الأقاليم ، إذ قدر لعمار ابن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة درهم فى الشهر له ولمساعديه ، يزاد عليها عطاؤه الذى يوزع عليه كما توزع الأعطية على نظرائه ، ونصف شاة ونصف جريب من الدقيق ؛ كما قدر لعبد الله ابن مسعود مئة درهم وربع شاة لتعليمه الناس با لكوفة وقيامه على بيت المال فيها ، ولعثمان ابن حنيف مئة وخمسين درهما وربع شاة فى اليوم مع عطائه السنوى وهو خمسة آلاف درهم . . .

ما يصنع علىّ بنفسه ما صنع وهو يجهل هذا كله . إنما كان يعلم أن الحاكم مظنة وقدوة . مظنة التبحبح بالمال العام إذ كان تحت سلطانه ؛ وقدوة الولاة والرعية فى التحرج والتعفف . فأخذ نفسه بعزائم أبى بكر وعمر فى هذا الأمر . فالأفق الأعلى كان هو الأحرى بخلفاء رسول الله على دين الله .

وسار علىّ ـ كرم الله وجهه ـ فى طريقه يرد للحكم صورته كما صاغها النبى ـ صلى الله عليه وسلم والخليفتان بعده . . . « وجد درعه عند رجل نصرانى ، فأقبل به إلى شريح قاضيه ، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : إنها درعى ولم أبع ، ولم أهب . فسأل شريح النصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصرانى : ما الدرع إلا درعى ، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ! فالتفت شريح إلى علىّ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك على وقال : أصاب شريح . مالى بينة ! فقضى بالدرع للنصرانى ، خذها ومشى ، و « أمير المؤمنين » ينظر إليه . . إلا أن النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . . . أمير المؤمنين يدينى إلى قاضيه فيقضى عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . الدرع والله درعك

يأمير المؤمنين . اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين ؛ فخرجت من بعيرك الأورق .
فقال علىّ : أما إذ أسلمت فهى لك[1] » .

ولقد كان منهاجه الذى شرعه هو ما قاله فى خطبته عقب البيعة له :

أيها الناس . إنما أنا رجل منكم ، لى مالكم ، وعلىّ ما عليكم ، وإنى حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمرت به . . ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود فى بيت المال . فإن الحق لا يبطله شىء . ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الإماء ، وفرق فى البلدان لرددته . فإن فى العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق .

« أيها الناس . . ألا لا يقولن رجال منكم غدا ــ قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرقفة ــ إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون : « حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا » . ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ؛ فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء » .

ولقد كان من الطبيعى ألا يرضى المستنفعون عن على ، وألا يقنع بشرعة المساواة من اعتادوا التفضيل ، ومن مردوا على الاستئثار . فانحاز هؤلاء فى النهاية إلى المعسكر الآخر : معسكر أمية ، حيث يجدون فيه تحقيقا لأطماعهم ، على حساب العدل والحق اللذين يصر عليهما على ــ رضى الله عنه ــ هذا الإصرار !

(١) عبقرية الإمام ، للأستاذ العقاد .

والذين يرون فى معاوية دهاء وبراعة لا يرونهما فى على ؛ ويعزون إليهما غلبة معاوية فى النهاية ، إنما يخطئون تقدير الظروف ، كما يخطئون فهم علىّ وواجبه. لقد كان واجب علىّ الأول والأخير ، أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها ؛ وأن يرد إلى الدين روحه ؛ وأن يجلو الغاشية التى غشت هذا الروح على أيدى بنى أمية فى كبرة عثمان . ولو جارى وسائل بنى أمية فى المعركة لبطلت مهمته الحقيقية ؛ ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة فى حياة هذا الدين . إن علياً إما أن يكون علياً أو فلتذهب الخلافة عنه ، بل فلتذهب حياته معها . وهذا هو الفهم الصحيح الذى لم يغب عنه – كرم الله وجهه – وهو يقول – فيما روى عنه إن صحت الرواية – : « والله ما معاوية بأدهى منى ولكنه يغدر ويفجر . ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس » .

* * *

ومضى علىّ إلى رحمة ربه ، وجاء بنو أمية .

فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته ، كانت تقف حاجزاً أمام أمية .. لقد انهار هذا الحاجز .. وانفتح الطريق للانحراف .

لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد ، ولكن روحه انحسرت بلا جدال . ولولا قوة كامنة فى طبيعة هذا الدين ، وفيض عارم فى طاقته الروحية ، لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل . ولكن روحه ظلت تقاوم وتغالب ، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار .

غير أنه منذ أمية انساحت حدود بيت مال المسلمين ، فصار نهباً مباحاً للملوك والحاشية والمتملقين ؛ وتخلخلت قواعد العدل الإسلامى الصارم ، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات ، ولأذيالها منافع ، ولحاشيتها رسوم ؛ وانقلبت الخلافة ملكا ، وملكا عضوضاً ،

كما قال عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى وثبة من وثبات الاستشفاف الروحى العميق .

وعدنا نسمع عن الهبات للمتملقين والملهين والمطربين ، فيهب أحد ملوك أمية اثنى عشر ألف دينار لمعبد، ويهب هارون الرشيد – من ملوك العباسيين – إسماعيل بن جامع المغنى فى صوت واحد أربعة آلاف دينار، ومنزلا نفيس الأثاث والرياش ... وتنطلق الموجة فى طريقها لا تقف إلا فترة بين الحين والحين .

ولا بد أن نذكر هنا عهد عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – فقد كان بقية من عهد الخلافة ، وإشعاعة مضيئة تنير الطريق . لقد بدأ عهده برد الحكم المغصوب إلى صاحب الحق الأول فيه : إلى الأمة المسلمة ، التى يجب أن تختار إمامها حرة طائعة مختارة ، لا بقوة الجند، ولا بسلطان الوراثة .. صعد المنبر فقال :

«أيها الناس . إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين . وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم » فصاح الناس : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فل الأمر باليمن والبركة .

وبذلك رد الأمر إلى نصابه فى ولاية الأمر ، فلا ولاية بغير شورى ورضى وقبول .

عندئذ خطب الناس فقال : « أيها الناس . إنه قد كان قبلى ولاة تجترون مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم . ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم .. » .

وحينما باشر سلطته بدأ برد المظالم ، مبتدئا بنفسه . فقال : « إنه لينبغى ألا أبدأ بأول من نفسى . فنظر إلى ما فى يديه من أرض أو متاع فخرج منه ، حتى نظر إلى فص خاتم كان

فى يده فقال : هذا أعطانيه الوليد من غير حقه ، مما جاء من أرض المغرب فرده . وخرج مما كان فى يده من القطائع ، وكان فى يده قطائع باليمامة ، والمكيدس وجبل الورس باليمن ، وفدك ، فخرج من ذلك كله ، ورده إلى المسلمين . إلا أنه ترك عيناً بالسويداء ، وكان استنبطها بعطائه . فكانت تأتيه غلتها كل سنة . مئة وخمسون ديناراً أو أقل أو أكثر .

« ولما أزمع أن يرد مالديه أمر فنودى فى الناس : الصلاة جامعة ؛ وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها ، وما كان ينبغى لهم أن يعطوناها ؛ وإن ذلك قد صار إلىّ ، ليس علىّ فيه دون الله محاسب ، ألا وإنى قد رددتها ، وبدأت بنفسى وأهل بيتى . اقرأ يامزاحم ـ وقد جىء قبل ذلك بسفط فيه تلك الكتب ـ فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيأخذه عمر ، وبيده مقص فيقصه به ، حتى لم يبق فيه شئ إلا شقه .

« ثم ثنى بزوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله ، فقال لها : اختارى إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى فى فراقك ،فإنى أكره أن أكون أنا وهو فى بيت واحد ، قالت : لا، بل أختارك ياأمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى . فأمر به فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين . فلما مات عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك ، قال لأخته فاطمة :إن شئت رددته عليك ،قالت: فإنى لاأشاؤه ،طبت عنه نفسا فى حياة عمر وأرجع فيه بعد موته! لاوالله أبداً. فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده .

« ولم يكتف عمر برد ما كان فى يده من المظالم ، بل ذكروا أنه كان لايأخذ من بيت المال شيئاً ، ولايجرى على نفسه من الفيء درهما ؛ وكان عمر بن الخطاب

يجرى على نفسه فى ذلك درهمين فى كل يوم ، فقيل لعمر ابن عبد العزيز : لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب ، فقال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالى يغنينى .

« كذلك حمل بنى مروان على النزول عما كان فى أيديهم من الأموال بغير استحقاق، وردها إلى ذويها . روى أنه جاءه رجل ذمى من أهل حمص فقال : ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال : وماذاك ؟ قال : العباس ابن الوليد بن عبدالملك اغتصبنى أرضى — والعباس جالس — فقال له : ياعباس ماتقول ؟ قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، كتب لى بها سجلا ، فقال : ماتقول ياذمى؟ قال : ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله عزوجل، فقال عمر : نعم، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك . ياعباس اردد عليه ضيعته. فردها عليه .

« وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح ، وكان نشأ فى البادية فكأنه أعرابى ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر يخاصمون روحا فى حوانيت بحمص — وكانت لهم، أقطعه إياها أبوه الوليد— فقال له عمر : اردد عليهم حوانيتهم ، قال له روح : إنها لى بسجل الوليد ، قال : ما يغنى عنك سجل الوليد ، الحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها ، خل لهم حوانيتهم .فقام روح والحمصى منصرفين فتوعد روح الحمصى ،فرجع إلى عمر فقال: هو والله يتوعدنى ياأمير المؤمنين ، فقال عمر لكعب بن حامد — وهو على حرسه — اخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوانيته فذاك ، وإلا فأتنى برأسه . فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح ، فذكر له الذى أمر به عمر ، فخلع فؤاده ، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبراً فقال له : قم فخل له حوانيته ، قال : نعم نعم ! فخلى له حوانيته .

« وتتابع الناس فى رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها سواء كانت فى يده

أو فى يد غيره ، حتى أخذ أموال بنى مروان وغيرهم مما صار إليهم ظلماً . وكان يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة ، وكان يكتفى باليسير ، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس . وقد ذكروا أنه أنفد بيت مال العراق فى رد المظالم حتى حمل إليها من الشام .

« وكان سليمان ابن عبدالملك قد أمر لعنبسة ابن سعيد ابن العاص — من البيت الأموى — بعشرين ألف دينار فدارت فى الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضها ، فتوفى سليمان قبل أن يقبضها ، وكان عنبسة صديقاً لعمر ابن عبد العزيز ، فغدا يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فوجد بنى أمية حضوراً بباب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه فى أمورهم ، فلما رأوا عنبسة قالوا : ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمه . فدخل عنبسة عليه فقال له : ياأمير المؤمنين ، إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لى بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ولم يبق إلا قبضها ، فتوفى على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستمام الصنيعة عندى ، ومابينى وبينه أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان ؛ فقال له عمر : كم ذلك ؟ قال عشرون ألف دينار. قال عمر : عشرون ألف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ! والله مالى إلى ذلك من سبيل . قال عنبسة : فرميت بالكتاب الذى فيه الصك ، فقال لى عمر : لا عليك أن يكون معك ، فعله أن يأتيك من هو أجرأ على هذا المال منى فيأمر لك به! فأخذته وخرجت إلى بنى أمية فأعلمتهم ما كان من ذلك ، فقالوا ليس بعد هذا شىء ، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان ؛ فرجعت إليه فقلت : يا أمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجرى عليهم ما كان من قبلك يجرى عليهم . فقال عمر : والله ماهذا المال لى ومالى إلى ذلك من سبيل. قلت : ياأمير المؤمنين ، فيسألونك أن تأذن لهم يضربون فى البلدان . قال : ماشاءوا ذلك لهم ، وقد أذنت لهم . قلت : وأنا أيضا ؟ قال : وأنت أيضا قد أذنت لك ؛ ولكنى أرى

لك أن تقيم ، فإنك رجل كثير النقد ، وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشترى منها مايكون لك فى ربحه عوض مما فاتك ، قال : فأقمت فابتعت من تركة سليمان بمائة ألف ، فخرجت بها إلى العراق فبعتها بمائتى ألف دينار ، وحبست الصك ؛ فلما توفى عمر وولى يزيد ابن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان ، فأنفذ لى ما كان فيه .

« وجمع عمر بنى مروان فقال لهم : إنكم قد أعطيتم حظا وشرفا وأموالا ، وإنى لأحسب شطرأموال هذه الأمة أو ثلثيها فى أيديكم ،فأدُّوا ما فى أيديكم من حقوق الناس، ولا تلجئونى إلى ماأكره فأحملكم على ما تكرهون . فلم يجبه أحدمنهم. فقال : أجيبونى . فقال رجل منهم : والله لا نخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا فنفقرأبناءنا ونكفر آباءنا ، حتى تزايل رؤوسنا أجسادنا . فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا علىّ بمن أطلب هذا الحق له ، لأضرعت خدودكم عاجلاً . ولكنى أخاف الفتنة ، ولئن أبقانى الله لأرُدَّنَّ إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله »[1] .

ولكنه لم يعش ليرد لكل ذى حق حقه كما كان يريد ؛ فجاء من بعده يسيرون على نهج أميَّة ، ولا يسيرون على نهج عمر ! فلما أن جاء بنو العباس جاءوا ملوكا وقد فسدت الأرض ، وبعد الناس عن تقاليد الدين ، بما باعدت أمية بينهم وبينه ذلك الأمد الطويل . وما كان ملوك بنى العباس خيراً من ملوك بنى أمية ، فإنه لكذلك الملك العضوض !

* * *

وإذ كنا لا نؤرخ هنا للدولة الإسلامية ، ولكن الروح الإسلامى فى الحكم ، فإننا نكتفى فى إبراز مظاهر التحول والانحسار فى هذا الروح بإثبات ثلاث خطب من عهد الملوك . وبموازنتها بالخطب الثلاث التى سبقت فى عهد الخلفاء يتبين الفارق العميق .

---

(١) من كتاب « عمر بن عبد العزيز » للأستاذ أحمد زكى صفوت .

خطب معاوية فى أهل الكوفة بعد الصلح فقال :

« يا أهل الكوفة ! أترانى قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت أنكم تصلون ، وتزكون ، وتحجون ؟ولكننى قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم ؛ وقدآتانى الله ذلك ، وأنتم كارهون . ألا إن كل مال أودم أصيب فى هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطته ، فتحت قدمى هاتين » .

وخطب كذلك فى أهل المدينة فقال :

«أما بعد ،فإنى والله ماوليتها بمحبةعلمتها منكم ،ولامسرةبولايتى.ولكنى جالدتكم بسيفىهذا مجالدة .ولقد رضت لكم نفسىعلى عمل ابن أبى قحافة ، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ؛ وأردتها على سنيات عثمان ، فأبت على ؛ فسلكت بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة ؛ مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدونى خيركم ، فإنى خير لكم ولاية . . . »

وخطب المنصور العباسى ـ وقد فعلت الموجة الأموية فعلها فى تصور الحكم حتى انتهت به أيام العباسيين إلى نظرية الحق الإلهى المقدس التى لا يعرفها الإسلام . فقال .

« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتأييده ؛ وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلنى الله عليه قفلا ؛ إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ؛ وإن شاء أن يقفلنى عليه أقفلنى » !

وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائياً من دائرة الإسلام ، وتعاليم الإسلام .

***

فأما سياسة المال فكانت تبعاً لسياسة الحكم ، وفرعاً عن تصور الحكام لطبيعة الحكم وطريقته ، ولحق الراعى والرعية . فأما فى حياة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبيه وفى خلافة على بن أبى طالب ، فكانت النطرة السائدة هى النظرة الإسلامية :

وهى أن المال العام مال الجماعة ؛ ولا حق للحاكم بنفسه أو بقرابته أن يأخذ منه شيئاً إلا بحقه ؛ ولا أن يعطى أحداً منه إلا بقدر ما يستحق، شأنه شأن الآخرين. وأما حين انحرف هذا التصور قليلا فى عهد عثمان، فقد بقيت للناس حقوقهم ؛ وفهم الخليفة أنه فى حل — وقد اتسع المال عن المقررات للناس — أن يطلق فيه يده يبر أهله ومن يرى من غيرهم حسب تقديره. وأما حين صار الحكم إلى الملك العضوض، فقد انهارت الحدود والقيود، وأصبح الحاكم مطلق اليد فى المنع والمنح، بالحق فى أحيان قليلة وبالباطل فى سائر الأحيان. واتسع مال المسلمين لترف الحكام وأبنائهم وحاشيتهم ومملقيهم إلى غير حد، وخرج الحكام بذلك نهائياً من كل حدود الإسلام فى المال.

هذه صورة مجملة نعرض لها نماذج تفصلها من وقائع التاريخ.

كانت موارد بيت المال منذ أيام الرسول — صلى الله عليه وسلم — هى :

الزكاة المفروضة على المسلمين فى أموالهم بحسب فئاتها المعروفة فى الذهب والفضة والزرع والثمار، وفى الماشية، وفى عروض التجارة، وفى الركاز. والمتوسط العام فيها هو نصف العشر، وتنفق فى مصارفها الثمانية المعروفة.

والجزية على الرؤوس للمصالحين عليها من الذميين. وهى مقابل ضريبة الدم وضريبة الزكاة التى يدفعها المسلمون.

والفىء، وهو مايصل إلى المسلمين من المشركين عفواً بغير قتال، وكله لله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل بنص القرآن.

والغنيمة، وهى ما يصل إلى المسلمين من المشركين بالحرب. وأربعة أخماسها للمحاربين، وخمسها كالفىء فى مصرفه.

أو الخراج — بدل الغنيمة — وهو مال مقرر على الأراضى التى كانت فى يد المشركين

واستولى عليها المسلمون حرباً ، أوصولح عليها المشركون وبقيت فى أيديهم ، كالنظام الذى اتبعه عمر ابن الخطاب فى أرض فارس .

وفى أيام الرسول لم تكن موارد بيت المال وفيرة ، لأن المهاجرين قد تركوا ديارهم وأموالهم ، فوسعهم الأنصار وشاركوهم وآخوهم . وكان عدد المسلمين بعد محدوداً ؛ وقبل الغزو لم يكن لبيت المال إلا مورد التطوع للإنفاق فى سبيل الله .

فلما بدأت الغزوات وفرضت الزكاة فى السنة الثانية من الهجرة وجد المورد الأساسى ـ وهو الزكاة ـ ومورد آخر هو مورد الغنيمة الذى يحصل المحاربون على أربعة أخماسه . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى الراجل سهماً والفارس سهمين ـ وقيل ثلاثة ـ مقرراً مبدأ « الرجل وبلاؤه » كما كان يعطى الأعزب سهماً والمتزوج سهمين مقرراً بذلك مبدأ : « الرجل وحاجته » . وأما الخمس فكان يوزع حسب مصارفه التى ذكرنا .

ثم حدث أن وقع أول فىء فى غزوة بنى النضير ، فجعله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمهاجرين خاصة ، لم يعط إلا رجلين من الأنصار فقيرين ؛ وجاء القرآن بعد ذلك فقرر المبدأ الإسلامى العام : « كى لا يكون دُولةً بين الأغنياء منكم » .

ثم أخذت موارد المسلمين تتسع باتساع رقعة الإسلام وتوالى الفتوح ، فأخذ الرخاء يشمل شيئاً فشيئا جموع المسلمين على السواء . إذ كانوا جميعاً شركاء فى موارد بيت المال ، بالأنصبة التى حددها الإسلام .

وحين لحق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الأعلى ، وارتد من ارتد ومنعوا الزكاة ، وقف أبو بكر وقفته المشهورة وقال قولته الخالدة « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » مخالفاً فى ذلك رأى عمر ابن الخطاب الذى كان يرى ـ قبل أن يفىء إلى رأى أبى بكر ويشرح الله له صدره ويعلم أنه الحق ـ أن القوم يقولون : لا إله إلا الله . . فلا يجوز قتالهم . وقد بلغ من معارضته أن

يقول فى شىء من الحدة : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله وأن محمداً رسـول الله : فمن قالها فقد عصم منى ماله ودمه إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » . فأجابه أبو بكر فى تصميم : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة هى حق المال » . وعندئذ يقول عمر : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

وبهذا الموقف الخالد تقرر نهائياً فى الواقع التاريخى أصل من أصول سياسة المال فى الإسلام .هو القتال والقتل لتقرير حق الجماعة فى المال فى الحدود التى شرعها الله . وبالمقادير التى حددها الله .

وسار أبو بكر فى توزيع أموال الزكاة على مصارفها المعهودة سيرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكذلك فى أخماس الغنيمة وسائر الموارد . فكان يأخذ لنفسه ذلك القدر الضئيل الذى فرضه له المسلمون ــ وقيل إنه درهمان فى اليوم ــ ثم يعطى أصحاب الفرائض فرائضهم ، وما بقى فى بيت المال ينفق فى تجهيز الجيوش للجهاد .

وقد حدثت فى عهد أبى بكر سابقة اختلف عليها هو وعمر . فقد رأى أبو بكر أن يسوى فى القسمة بين السابقين الأولين والمتأخرين فى الإسلام ، وبين الأحرار والموالى ، وبين الذكور والإناث . ورأى عمر مع جماعة من الصحابة أن يقدم أهل السبق فى الإسلام على قدر منازلهم ؛ فقال أبو بكر : « أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل، فما أعرفنى بذلك . وإنما ذلك شىء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » .

وظلت هذه المساواة مرعية ، واليسر يفيض على المسلمين سواء ، كلما اتسعت الموارد، حتى كان عهد عمر بن الخطاب فظل مستمسكا برأيه الذى رآه : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » .

وقد حدث أن جاءه يوماً عامله بالبحرين أبو هريرة بمال كثير . وروايته : « قدمت من البحرين بخمسمائة ألف درهم ، فأتيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممسيا ، فقلت : يا أمير المؤمنين: اقبض هذا المال، قال : وكم هو ؟ قلت : خمسمائة ألف درهم. قال : وتدرى كم خمسمائة ألف ؟ قلت : نعم : مئة ألف ومئة ألف ـ خمس مرات ـ قال : أنت ناعس! اذهب الليلة فبت حتى تصبح ! فلما أصبحت أتيته ، فقلت : اقبض منى هذا المال . قال : وكم هو، قلت : خمسمائة ألف درهم. قال: أمن طيب هو ؟ قلت : لا أعلم إلا ذاك ، فقال عمر رضى الله عنه : أيها الناس إنه قد جاءنا مال كثير . فإن شئتم أن نكيل لكم كلنا ، وإن شئتم أن نعدّ لكم عددنا ، وإن شئتم أن نزن لكم وزنا ، فقال رجل من القوم : ياأمير المؤمنين دوّن للناس دواوين يعطون عليها ، فاشتهى عمر ذلك . ففرض للمهاجرين خمسة آلاف خمسة آلاف ، وللأنصار ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، ولأزواج النبى صلى الله عليه وسلم اثنى عشر ألفا . . . » وقد أثبتنا هذه الرواية هنا لما تبين من رأى عمر فى تفضيل بعض الناس على بعض ، ولما تصور من درجة الثراء حتى يحسب فيها نصف مليون درهم حلماً من الأحلام يتحدث به النيام ! وقد تغير ذلك كله فيما بعد الفتوح العظام .

قال أبو يوسف فى كتاب الخراج : « وحدثنى شيخ من أهل المدينة عن إسماعيل بن محمد السائب عن زيد عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : والله الذى لا إله إلا هو ، ما أحد إلا وله فى هذا المال حق ، أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم . ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ،والرجل وحاجته فى الإسلام . والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه ـ أى فى طلبه ـ . . . » .

« ثم إنه فرض لكل رجل شهد بدراً خمسه آلاف درهم فى كل سنة ؛ وفرض لكل من كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحداً أربعة آلاف درهم فى كل سنة ؛ وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين إلا حسناً وحسيناً فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول الله ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم ؛ وفرض لكل رجل هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ، ولكل رجل من مسلمة الفتح ألفين ، ولغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح . وفرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم . ثم جعل من بقى من الناس باباً واحداً . ففرض لمن جاء من المسلمين إلى المدينة ، وأقام بها ، خمسة وعشرين ديناراً ، وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمئة إلى ثلاثمئة . ولم ينقص أحداً عن ثلاثمئة . وقال لئن كثر المال لأفرضنّ لكل رجل أربعة آلاف درهم : ألف لسفره ، وألف لسلاحه ، وألف يخلفها لأهله ، وألف لفرسه وبغله » [1] .

« غير أن عمر خرج عن القاعدة التى وضعها لتنظيم العطاء فى أمر رجال ونساء زاد فى عطائهم على عطاء أمثالهم ممن فى طبقتهم . فرض لعمر ابن أبى سلمة أربعة آلاف درهم . وعمر هذا هو ابن أم سلمة أم المؤمنين . وقد اعترض محمد ابن عبد الله ابن جحش ، وقال لأمير المؤمنين : « لم تفضل عمر علينا ، فقد هاجر آباؤنا وشهدوا » وأجابه ابن الخطاب بقوله : « أفضله لمكانه من النبى صلى الله عليه وسلم ، فليأتنى الذى يستعتب بأم مثل أم سلمة أعتبه » وفرض لأسامة ابن زيد أربعة آلاف درهم ، فقال عبد الله ابن عمر : « فرضت لى ثلاثة آلاف ، وفرضت لأسامة أربعة آلاف ، وقد شهدت مالم يشهد أسامة » وأجابه عمر : « زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وكان أبوه أحب

(١) كتاب : الفاروق عمر جزء ٢ للدكتور هيكل .

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ! » وفرض لأسماء بنت عميس زوج أبي بكر ألف درهم ، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم ، ولأم عبد الله ابن مسعود ألف درهم ؛ فزادهن على أمثالهن لمكانتهن الخاصة إذ كن أزواجاً وأمهات لرجال لهم على غيرهم منزلة وفضل »[1].

هما رأيان إذن فى تقسيم المال . رأى أبي بكر ورأى عمر . وقد كان لرأى عمر – رضى الله عنه – سنده : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » و ... « فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ... » ولهذا الرأى أصل فى الإسلام وهو التعادل بين الجهد والجزاء. وكان لرأى أبي بكر – رضى الله عنه – سنده كذلك: « إنما أسلموا لله وعليه أجرهم، يوفيهم ذلك يوم القيامة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ » . ولكننا لا نتردد فى اختيار رأى أبي بكر إذ كان أقمن أن يحقق المساواة بين المسلمين – وهى أصل كبير من أصول هذا الدين – وأحرى ألا ينتج النتائج الخطرة التى نشأت عن هذا التفاوت ، من تضخم ثروات فريق من الناس ، وتزايد هذا التضخم عاما بعد عام بالاستثمار – والمعروف اقتصاديا أن زيادة الربح تتناسب إلى حد بعيد مع زيادة رأس المال – هذه النتائج التى رآها عمر فى آخر أيام حياته ، فآلى لئن جاء عليه العام ليسوين فى الأعطيات ، وقال قولته المشهورة : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » !

ولكن واأسفاه ! لقد فات الأوان، وسبقت الأيام عمر ، ووقعت النتائج المؤلمة التى أودت بالتوازن فى المجتمع الإسلامى ، كما أدت فيما بعد إلى الفتنة ، بما أضيف إليها من تصرف مروان وإقرار عثمان !

رجع عمر إذن عن رأيه فى التفرقة بين المسلمين فى العطاء ، حينما رأى نتائجه الخطرة ،

---

(١) المصدر السابق .

إلى رأى أبى بكر . وكذلك جاء رأى علىّ مطابقاً لرأى الخليفة الأول ـ ونحن نميل إلى اعتبار خلافة على ـ رضى الله عنه ـ امتداداً طبيعياً لخلافة الشيخين قبله ، وأن عهد عثمان الذى تحكم فيه مروان كان فجوة بينهما ـ لذلك نتابع الحديث عن عهد علىّ ، ثم نعود للحديث عن الحالة فى أيام عثمان .

اختار علىّ مبدأ المساواة فى العطاء ، وقد نص عليه فى خطبته الأولى حيث قال : «ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدق ملتنا ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ؛ ولا فضل فيه لأحد على أحد ؛ وللمتقين عند الله أحسن الجزاء » .

هذا هو المبدأ الإسلامى السليم الذى يتفق معروح المساواة الإسلامية؛ ويكفل للمجتمع الإسلامى التوازن ، فلا يدع الثروات تتضخم إلا بقدر الجهد والعمل وحدها ، لا بفضل إتاحة فرصة لانتاج للآخرين ، بوجود وفر من المال للعمل فيه أكبر مما لدى الآخرين .

وقد كان عمر فى آخر أيامه على أن يفىء إلى هذا المبدأ ؛ ولكنه عوجل فاستشهد ولم ينفذ عزيمته التى اعتزم ، بل عزيمتيه : عزيمته فى أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء ، إذ كانت هذه الفضول قد نشأت ـ فى الأغلب ـ من تفريقه فى العطاء؛ وعزيمته فى أن يسوى بينهم فى العطاء فلا تعود هذه الفوارق إلى الظهور كما ظهرت؛ ولا يختل المجتمع الإسلامى كما بدأ يختل .

وجاء عثمان ـ رضى الله عنه ـ فلم ير أن يأخذ بالعزيمتين أو إحداهما .. ترك الفضول لأصحابها فلم يردها ؛ وترك الأعطيات كذلك على تفاوتها . ولكن هذا لم يكن كل ما كان. بل وسع أولا على الناس فى العطاء فازداد الغنى غنى ، وربما تبحبح الفقير قليلا ، ثم جعل يمنح

المنح الضخمة لمن لا تنقصهم الثروة ؛ ثم أباح لقريش أن تضرب فى الأرض تتاجر بأموالها المكدسة ، فتزيدها أضعافا مضاعفة؛ ثم أباح للأثرياء أن يقتنوا الضياع والدور فى السواد وغير السواد ؛ فإذا نوع من الفوارق المالية الضخمة يسود المجتمع الإسلامى فى نهاية عهده يرحمه الله .

كان أبو بكر وكان عمر من بعده يتشددان فى إمساك الجماعة من رؤوس قريش بالمدينة، لا يدعونهم يضربون فى الأرض المفتوحة ، احتياطاً لأن تمتد أبصار هؤلاء الرؤوس إلى المال والسلطان ، حين تجتمع إليهم الأنصار بحكم قرابتهم من رسول الله ، أو بحكم بلائهم فى الإسلام وسابقتهم فى الجهاد . وما كان فى هذا افتيات على الحرية الشخصية كما يفهمها الإسلام ؛ فهذه الحرية محدودة بمصلحة الجماعة والنصح لها . فلما جاء عثمان أباح لهم أن يضربوا فى الأرض . ولم يبح لهم هذا وحده بل يسر لهم وحضهم على توظيف أموالهم فى الدور والضياع فى الأقاليم ، بعد ما آتى بعضهم من الهبات مئات الآلاف .

لقد كان ذلك كله براً ورحمة بالمسلمين وبكبارهم خاصة . ولكنه أنشأ خطرا عظيما لم يكن خافياً على فطنة أبى بكر ، وفطنة عمر بعده . أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة فى الجماعة الإسلامية ، كما أنشأ طبقة تأتيها أرزاقها من كل مكان دون كد ولا تعب ؛ فكان الترف الذى حاربه الإسلام بنصوصه وتوجيهاته ، كما حاربه الخليفتان قبل عثمان ، وحرصا على ألا يتيحياه .

عندئذ ثار الروح الإسلامى فى نفوس بعض المسلمين ، يمثلهم أشدهم حرارة وثورة أبو ذر . ذلك الصحابى الجليل الذى لم تجد هيئة الفتوى المصرية فى الزمن الأخير إلا أن تخطئه فى اتجاهه ؛ وإلا أن تزعم لنفسها بصرا بالدين أكثر من بصره بدينه ! ثم عادت – فى مناسبة

أخرى ـ فأصدرت فتوى بصواب اتجاهه ، عندما تغيرت الظروف الأولى! كأن دين الله سلعة تتجر بها الهيئة فى سوق الرغبات !

قام أبو ذر ينكر على المترفين ترفهم الذى لا يعرفه الإسلام ؛ وينكر على معاوية وأمية خاصة سياستهم التى تقر هذا الترف ، وتستزيد منه ، وتتمرغ فيه ؛ وينكر على عثمان نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف ، فيزيد فى ثراء المثرين وترف المترفين .

علم أن عثمان أعطى مروان ابن الحكم خمس خراج إفريقية، والحارث ابن الحكم مئتى ألف درهم ، وزيد ابن ثابت مائة ألف... وما كان ضمير أبى ذر ليطيق شيئاً من هذا كله. فانطلق يخطب فى الناس :

« لقد حدثت أعمال ما أعرفها . والله ماهى فى كتاب الله ولا سنة نبيه . والله إنى لأرى حقاً يطفأ ، وباطلا يحيا ، وصادقا مكذباً ، وأثرة بغير تقى . . يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء . وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار ، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .. يا كانز المال اعلم أن فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت ؛ والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم ، وأنت الثالث ، إن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن . . إن الله عز وجل يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

« اتخذتم ستور الحرير ، ونضائد الديباج ؛ وتألمتم الاضطجاع على الصوف الأذربى ، وكان رسول الله ينام على الحصير ؛ واختلف عليكم بألوان الطعام ، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير » .

وروى مالك ابن عبد الله الزيادى عن أبى ذر : « أنه جاء يستأذن على عثمان بن عفان ،

فأذن له وبيده عصاه . فقال عثمان : يا كعب ، إن عبد الرحمن توفى وترك مالا ، فما ترى فيه ؟ فقال : إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه . فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً . وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ماأحب لو أن لى هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل منى ، أذر خلفى منه ستأواق » أنشدك الله ياعثمان . أسمعته ـ ثلاث مرات ـ قال نعم[1] » .

وما كانت مثل هذه الدعوة ليطيقها معاوية ، ولا ليطيقها مروان بن الحكم ؛ فما زالا به عند عثمان يحرضانه عليه حتى كان مصيره إلى « الربذة » منفياً من الأرض فى غير حرب لله ولرسوله ، وفى غير سعى فى الأرض بالفساد . كما تقول شريعة الإسلام !

لقد كانت هذه الصيحه يقظة ضمير مسلم لم تخدره الأطماع ، أمام تضخم فاحش فى الثروات ، يفرق الجماعة الإسلامية طبقات ، ويحطم الأسس التى جاء هذا الدين ليقيمها بين الناس . وبحسبنا أن نعرض هنا نموذجاً للثروات الضخام أورده المسعودى ، قال :

« فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال : فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومئة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مئة ألف دينار ، وخلف إبلا وخيلا كثيرة . وبلغ الثُّمْن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مربط عبد الرحمن ابن عوف ألف فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ؛ وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً . وخلف زيد ابن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر

---

(١) حديث رقم ٤٥٣ المسند جزء أول نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر .

بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع ، وبنى الزبير دارة بالبصرة ، وبنى أيضا بمصر والكوفة والإسكندرية وكذلك بنى طلحة دارة بالكوفة ، وشيد دارة بالمدينة ، وبناها بالجص والآجر والساج . وبنى سعد ابن أبى وقاص دارة بالعقيق ، ورفع سمكها وأوسع فضاءها ، وجعل على أعلاها شرفات . وبنى المقداد دارة بالمدينة ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . وخلف يعلى ابن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً ، وغير ذلك ماقيمته ثلاثمئة ألف درهم[1] » .

هذا هو الثراء الذى بدأ صغيراً بإيثار بعض المسلمين على بعض فى العطاء فى أيام عمر - ذلك الإيثار الذى كان معتزماً إبطاله وتلافى آثاره لولا أن عاجلته الطعنة التى لم تصب قلب عمر وحده ،وإنما أصابت قلب الإسلام - ثم نما وازداد بإبقاء عثمان عليه، فضلا على العطايا والهبات والقطائع . ثم فشا فشوا ذريعا بتجميع الأملاك والضياع وموارد الاستغلال، بما أباحه عثمان من شراء الأرضين فى الأقاليم وتضخيم الملكيات فى رقعة واسعة ؛ وبمقاومة الصيحة الخالصة العميقة التى انبعثت من قلب أبى ذر ؛ وكانت جديرة لو بلغت غايتها ، ولو وجدت من الإمام استماعا لها ، أن تعدل الأوضاع،وأن تحقق ماأراده عمر فى أواخر أيامه من رد فضول الأغنياء على الفقراء ، بما يبيحه له سلطان الإمامة لدفع الضرر عن الأمة ، بل بما يحتمه عليه تحقيقاً لمصلحة الجماعة .

وبقدر ماتكدست الثروات وتضخمت فى جانب ، كان الفقر والبؤس فى الجانب الآخر حتما ، وكانت النقمة والسخط كذلك . ومالبث هذا كله أن تجمع وتضخم ، لينبعث فتنة هائجة ، يستغلها أعداء الإسلام ، فتودى فى النهاية بعثمان . وتودى معه بأمن الأمة الإسلامية وسلامتها؛ وتسلمها إلى اضطراب وفوران لم يخب أواره حتى كان قد غشى بدخانه على روح الإسلام ، وأسلم الأمة إلى ملك عضوض .

(١) عن كتاب عثمان للأستاذ صادق عرجون .

لذلك لم يكن غريبا أن يغضب أصحاب الأموال ، والمستنفعون من تفاوت الحظوظ فى العطاء ، على سياسة المساواة والعدالة التى اعتزمها علىّ بعد عثمان ؛ وأن يتظاهروا بأنهم إنما ينصحون بالعدول عن هذه السياسة خوفاً عليه من الانتقاض، فما كان جوابه إلا أن يستلهم روح الإسلام فى ضميره القوى فيقول :

« أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ لو كان هذا المال لى لسويت بينهم ؛ فكيف وإنما المال مال الله ؟ ألا وإن إعطاء المال فى غير حقه تبذير وإسراف ؛ وهو يرفع صاحبه فى الدنيا ؛ ويضعه فى الآخرة » .

* * *

فأما بنو أمية فقد ساروا فى سياسة المال سيرة أخرى . حتى كان عمر بن عبد العزيز ، فصنع الذى أسفلنا فى رد المظالم ؛ وفى الكف عن بعثرة أموال المسلمين فى غير حقها ؛ فلم يكن لبنى أمية إلا ما لسائر الناس؛ ولم يكن للمتملقين والملهين نصيب فى هذا المال،فقد انقطع عن الشعراء المداح ، ولم يجزهم بشىء من بيت المال .

وفى خبر له مع جرير أن جريراً مدحه فقال له عمر : « يا ابن الخطفى : أمن أبناء المهاجرين أنت فنعرف لك حقهم ؟ أم من أبناء الأنصار فيجب لك ما يجب لهم ؟ أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب صدقات قومك فيصلك بمثل ما يصل به قومك ؟ » فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا بواحد من هؤلاء ، وإنى لمن أكثر قومى مالا ، وأحسنهم حالا ؛ ولكنى أسألك ما عودتنيه الخلفاء : أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان . فقال له عمر : « كل امرئ يلقى فعله ، وأما أنا فما أرى لك فى مال الله حقا ؛ ولكن انتظر حتى يخرج عطائى ، فأنظر ما يكفى عيالى سنة منه فأدخره لهم ؛ ثم إن فضل فضل صرفناه إليك » فقال جرير : لا بل يوفر أمير المؤمنين ويُحمد ، وأخرج راضياً ، قال : فذلك أحب إلىّ .فخرج فلما ولى قال عمر : إن شر هذا ليتقى؛ ردوه

إلىّ . فردوه فقال : « إن عندى أربعين ديناراً وخلعتين، إذا غسلت إحداهما لبست الأخرى وأنا مقاسمك ذلك ، على أن الله جل وعز يعلم أن عمر أحوج إلى ذلك منك » فقال له: قد وفرك الله يا أمير المؤمنين ، وأنا والله راض . قال : أما وقد حلفت فإن ما وفرته علىّ ولم تضيق به معيشتنا آثر فى نفسى من المدح ، فامض مصاحبا » .

لا عجب إذن حين تحفظ أموال المسلمين فترد على المستحقين أن يروى الرواة أن الناس اكتفوا فى عهد عمر ابن عبد العزيز حتى لا تجد الصدقات فى بعض الأقطار من يأخذها لاغتناء عامة الأمة باستحقاقاتهم الأخرى عن أموال الصدقات . وفى ذلك يقول يحيى ابن سعد :

« بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ؛ فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم » .

إنما الفقر والحاجة ثمرة التضخم والزيادة . والفقراء فى كل وقت هم ضحايا الأغنياء المفحشين . والأغنياء المفحشون فى الغالب هم نتاج الأعطيات والإقطاعيات والمحاباة والظلم والاستغلال !

* * *

وفى أيام بنى أمية ثم فى أيام بنى العباس من بعدهم ، كان بيت المال مباحاً للملوك كأنه ملك لهم خاص ؛ وذلك على الرغم من وجود بيتين للمال : بيت المال العام ، وبيت المال الخاص . والأول مفروض أن موارده ومصارفه للجماعة؛ والثانى مفروض أن موارده ومصارفه من خاصة السلطان. لكنا نجد أحياناً أن أموالا عامة تحمل إلى بيت المال الخاص . وأن مصارف خاصة تؤخذ من بيت المال العام !

جاء فى كتاب الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى تأليف آدم ميتز وترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة :

« أما العطايا وكل مايتعلق بنفقات دار الخلافة فكان يؤخذ من بيت المال العام .

وعندنا بيان يرجع إلى أول القرن الرابع مشتمل على وجوه الأموال التي تحمل إلى بيت مال الخاصة .

١ ــ الأموال المختلفة التي يتركها الآباء لأبنائهم في بيت المال . ويقال : إن الرشيد خلف أكبر مقدار من المال ، وهو ثمانية وأربعون ألف ألف دينار ، وكان المعتضد (٢٧٩ــ ٢٨٩ هـ) يستفضل من كل سنة من سني خلافته بعد النفقات ، مما كان يحصله بيت مال الخاصة ألف ألف دينار ، حتى اجتمع في بيت المال تسعة آلاف ألف دينار ، وكان يريد أن يتممها عشرة آلاف ألف دينار ، ثم يسبكها ويجعلها نقرة واحدة ، ونذر عند بلوغ ذلك أن يترك عن أهل البلاد ثلث الخراج في تلك السنة . وأراد أن يطرح السبيكة على باب العامة ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار وهو مستغن عنها ، فاخترمته المنية قبل بلوغ الأمنية . ثم جاء المكتفي بعد المعتضد (٢٨٩ ــ ٢٩٥) فأبلغ المدخر إلى أربعة عشر ألف ألف دينار .

٢ ــ مال الخراج والضياع العامة الذي يرتفع من أعمال فارس وكرمان (بعد إسقاط النفقات) وبلغ مقدار ذلك في كل سنة منذ عام ٢٩٩ إلى عام ٣٢٠ هـ (٩١١ ــ ٩٣٢ م) ثلاثة وعشرين ألف ألف درهم ، منها أربعة آلاف ألف درهم كانت تحمل إلى بيت مال العامة ، والباقي وهو تسعة عشر ألف ألف درهم إلى بيت مال الخاصة . ويجب أن نسقط من ذلك النفقات الحادثة التي تتطلبها هذه البلاد ، ففي عام ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) أنفق الخليفة لفتحها مايزيد على سبعة آلاف ألف درهم .

٣ ــ أموال مصر والشام . وكانت جزية أهل الذمة مثلا تحمل إلى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين لا إلى بيت مال العامة . وهذا مايجب للخليفة نظرياً !

٤ — المال الذى يؤخذ من المصادرة لأموال الوزراء المعزولين والكتاب والعمال وما يحصل من ارتفاع ضيعاتهم ، والمال الذى يؤخذ من التركات [1] .

٥ — ما كان يحمل إلى بيت مال الخاصة من أموال الضياع والخراج بالسواد والأهواز والمشرق والمغرب .

٦ — ما كان يستفضله الخلفاء ، فكان كل من الخليفتين الأخيرين فى القرن الثالث الهجرى (وهما المعتضد والمكتفى) يستفضل فى السنة ألف ألف دينار ، وكان سبيل المقتدر أن يستفضل مثلها ، فيكون مبلغه فى خمس وعشرين سنة خمسة وعشرين ألف ألف دينار ، أعنى نحواً من نصف ماخلفه الرشيد » .

ومن هذا النص يبدو كم عدا من يسمون خلفاء من الملوك على أموال المسلمين العامة ، وكم بعدت سياسة المال عن أصول الإسلام ، وكم ارتفع الثراء والترف فى جانب والبؤس والشقاء فى جانب ، وكم اختل المجتمع الإسلامى نتيجة بعده عن النهج الإسلامى ، وتنكره للمبادئ الإسلامية .

* * *

ولكن الواقع التاريخى للإسلام — على الرغم من هذا كله — استطاع أن يقرر عدة مبادئ أساسية فى « سياسة المال » وأن يحقق الكثير من نظريات الإسلام ومبادئه على الرغم من النكسة التى أصابته فى مطلع عهده ، على أيدى بنى أمية .

استطاع الواقع التاريخى أن يقرر .

١ — أن الفقراء أولى من أولى السابقة فى الإسلام بالمال العام . وجاء فى مسند أحمد بن حنبل : « حدثنا بكر بن عيسى ، حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن الشعبى عن

(١) كان الخليفة يرث مال الخدم ومن لا ولد له من موالى أسرة الخلافة . ولما كان هؤلاء فى الغالب سادة ذوى مناصب تدر الرزق الكثير فإن مالا كثيراً كان يجرى إلى خزانة الخليفة .

عدى ابن حاتم قال : أتيت عمر ابن الخطاب فى أناس من قومى ، فجعل يفرض للرجل من طيء فى ألفين ويعرض عنى . قال فاستقبلته فأعرض عنى ، ثم أتيته من حيال وجهه فأعرض عنى . قال : فقلت : ياأمير المؤمنين . أتعرفنى ؟ قال : فضحك حتى استلقى لقفاه ، ثم قال : نعم والله إنى لأعرفك . آمنت إذ كفروا ،وأقبلت إذ أدبروا ،ووفيت إذ غدروا ، وإن أول صدقة بيضت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوه أصحابه ، صدقه طيء جئت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أخذ يعتذر ، ثم قال : إنما فرضت لقوم أجحفت بهم الفاقة ، وهم سادة عشائرهم ، لما ينوبهم من الحقوق » .

وهذه من عمر الذى آثر أولى السابقة فى تقدير العطاء ، لها قيمتها ، ولها دلالتها . فالحاجة هى المبرر الأول للاستحقاق فى المجتمع الإسلامى . وهو مبدأ عميق الدلالة فى كراهة الإسلام للحاجة والفاقة ، وحثه على إزالتها أولا قبل كل رعاية لأى اعتبار آخر .

٢ — أن الإسلام يكره تكدس الثراء فى جانب والحرمان فى جانب . وفى سبيل إزالة هذه الحالة يبيح لولى الأمر المسلم الذى ينفذ شريعة الله ، حرية التصرف . فى المال العام . وهذا المبدأ وعاه الواقع التاريخى عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى توزيع فيء بنى النضير على المهاجرين الفقراء خاصة ـ عدا رجلين فقيرين من الأنصار ـ حتى يعيد بعض التوازن للمجتمع الإسلامى فى أول فرصة عرضت له . ثم جاء القرآن مصدقاً لهذه السابقة التاريخية : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

وهذه السابقة لها دلالتها ولها قوتها . فولى الأمر المسلم وهو الذى ينفذ شريعة الله يملك دائماً أن يخص الفقراء من المال العام ، بما يعيد التوازن إلى الجماعة الإسلامية ، وبما يحقق رغبة الإسلام فى ألا توجد فوارق بين الطبقات تخل بهذا التوازن العام .

مبدأ الضريبة المتفاوتة حسب المقدرة والعجز . . فحين فرضت الجزية على الذميين جعلت بالفئات الآتية :

(ا) أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما عن كل رأس فى العام .

(ب) أوساط ويؤخذ منهم ٢٤ درهما :

(حـ) فقراء يتكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهما .

ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ، ولا من عاجز عن العمل ، ولا من أعمى أو مقعد أو مجنون أو ذى عاهة على وجه العموم . ولا تجوز الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء . . فلا جزية على امرأة أو صبى .

وحين وقعت المجاعة فى عام الرمادة بسبب القحط ، لم يرسل عمر جباته ليقبضوا الزكاة ، بل ترك الناس حتى يرتفع الجدب ، فلما اطمأن الناس وعاد الرخاء ، بعث عماله فتقاضوا من القادرين حصتين : حصة عن عام الرمادة ، وحصة عن العام الحاضر ، وأعفى غيرهم ، ثم أمر أن ترد على هؤلاء إحدى الحصتين ، ويقدم العمال عليه بالثانية .

٤ — مبدأ عدم الحجز على الضروريات وفاء للضريبة ، وعدم استيفائها كذلك بالقوة . . قال على بن أبى طالب لأحد عماله : « . . إذا قدمت عليهم ، فلا تبيعن لهم كسوة ، شتاء ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها ؛ ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً فى درهم ، ولا تقمه على رجله فى طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً فى شىء من الخراج . فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو . . » (١)

٥ — مبدأ « الرجل وحاجته » بجانب مبدأ « الرجل وبلاؤه » . . فقد فرض النبى صلى الله عليه وسلم للأعزب حظاً من الغنيمة وللمتزوج حظين . ولهذا الفرض دلالته فى أن الحاجة مبرر كالجهد للعطاء . فجهد المتزوج فى الجهاد كجهد الأعزب . ولكن حاجته

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف .

مضاعفة . فضوعف له حظه . فالحاجة وحدها مبرر كاف للتملك فى الإسلام . ولهذا قيمته فى الضمان الاجتماعى .

٦ — مبدأ الضمان الاجتماعى العام لكل عاجز وكل محتاج . فقد فرض عمر للمولود مئة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مئتين ، فإذا بلغ زاده . وكان يفرض للقيط مئة ، ولوليه كل شهر رزقاً يعينه عليه ، ويجعل رضاعه ونفقته من بيت المال ، ثم يسويه عند كبره بسواه من الأطفال . وهذه سماحة من عمر توحيها سماحة الإسلام ، فاللقيط برىء، لا يحمل وزر أبويه الجارمين . وقد أثبتنا من قبل كيف فرض لليهودى الأعمى؛ وللمجذومين من النصارى. وهى سماحة الإسلام فى نفس عمر للناس جميعاً لا للمسلمين وحدهم ، وتأمين للمجتمع من غوائل الحاجة والعجز والحرمان .

٧ — مبدأ من أين لك هذا ؟ فلا حصانة للحاكم تمنع الجماعة أن تحاسبه على ما كسبه من مال ، ليتبين لها إن كان ذلك ماله أو مالها . وتقرير هذا المبدأ كفيل بأن يتردد الحاكم مرتين قبل أن يقدم على اغتيال المال العام . وقد قرره عمر مع ولاته جميعاً ، وأقره علىّ مع بعض الولاة .

٨ — مبدأ الزكاة العام الذى لم ينقض حتى فى أشد العهود ظلاماً وفسوقاً عن روح الدين . فما من أحد أنكره نظرياً أو عملياً ، منذ حروب الردة فى أوائل عهد أبى بكر . إلى أن غلبت المدنية الغربية فى عصرنا الحاضر ، فنقض آخر مبدأ حى من مبادئ الإسلام !

٩ — مبدأ التكافل العام الذى يجعل كل أهل بلد مسؤولين مسؤولية مباشرة عمن يتلفه الجوع ، مسؤولية جنائية يؤدون فيها الدية ، بوصفهم قتلة لذلك الذى أتلفه الجوع وهو بينهم مقيم . ومما يؤيد هذا المبدأ حق الجائع أو العطشان أن يقاتل من فى يده الطعام والماء حين يخشى على نفسه التلف ، فإذا قتله فلادية عليه ولا عقاب .

١٠ — مبدأ تحريم الربا ، والإنظار عند العسرة للمدين . ولقد ظل الربا محرماً حتى أباحته المدنية المادية ، يحملها إلينا القانون الفرنسى ، وجعلته أصلا من أصول الحياة الاقتصادية العامة ، فى غير ما ضرورة ملجئة إلا انعدام العنصر الخلقى فى الحياة ، وانتفاء روح التعاون والبر من صدور الناس . تلك الروح التى يجعلها الإسلام أساس المجتمع وركن التعاون بين الناس.

وذلك كله غير تقاليد البر والمواساة والتكافل فى المجتمع - عن غير طريق التشريع - والماضى القريب الذى شهده آباؤنا - لا أجدادنا - فى الريف الإسلامى فى كل مكان ، والذى ماتزال بقية منه حتى بعد أن طغت الحضارة المادية الغربية على العالم الإسلامى ، يشهد بأثر الروح الإسلامى فى المجتمعات الإسلامية ، حيث كان فيض ذلك الروح يغنى عن التشريع والإلزام . وهذه الأوقاف الكثيرة ، والحبوس المنوعة ، التى صرفت اليوم عن أهدافها ، وانتهبها الناهبون تحت مختلف العنوانات والتعلات ، شاهد بعوامل الرحمة والبر والتكافل والتأمين الاجتماعى فى نفوس أجيال المسلمين البعيدة والقريبة ، قبل أن تفسدها الحضارة المادية الجامدة ، القاسية القلب والشعور .

ولقد بلغت الرغبة فى الضمان الاجتماعى للضعفاء مبلغاً جعلها تتجاوز الإنسان إلى الحيوان . وقد حبست بعض الحبوس على ضعاف الحيوان لتتخذ لها المأوى ، وتنال الحماية من التشرد والجوع !

* * *

هذا هو الإسلام على الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولى ، من انحراف فى تصور معنى الحكم وسياسة المال كانت له آثار ضخام .

هذا هو الإسلام فى واقعه التاريخى الذى حققه فعلا . فأما الإسلام فى مبادئه العامة ،

فهو على استعداد دائم للوفاء بالحاجات المتجددة فى كل المجتمعات التى تقوم على أساسه ، وتتخذ شريعته شريعة . وهو يفى بهذه الحاجات فى شمول وتوازن ، برىء من التخبطات التى تتأرجح فيهاالتجارب البشرية والمذاهب البشريةبين التفريط والإفراط . والتى تكلف البشرية ثمنا غاليا من الضحايا والتضحيات[1] .

فأما حاضر الإسلام ومستقبله فسنتحدث عنهما فى فصل آت .

---

(١) يراجع فصل « تخبط واضطراب » فى كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » للمؤلف

نحن ندعو إلى استئناف حياة إسلامية ، فى مجتمع إسلامى ، تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامى ، كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامى .

ونحن نعلم أن الحياة الإسلامية –على هذا النحو – قد توقفت منذ فترة طويلة فى جميع أنحاء الأرض ؛ وأن « وجود » الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك !

ونحن نجهر بهذه الحقيقة الأخيرة – على الرغم مما قد تحدثه من صدمة وذعر وخيبة أمل للكثيرين ممن لا يزالون يحبون أن يكونوا « مسلمين » ! – ونجهر بها على هذا النحو فى الوقت الذى ندعو فيه إلى استئناف حياة إسلامية ، فى مجتمع إسلامى ، تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامى كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامى . ولا نرى أن فى رؤية تلك الحقيقة والجهر بها كذلك ما يدعو إلى خيبة الأمل ؛ أو اليأس من هذه الدعوة ومن هذه المحاولة . على العكس نرى أن الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة – حقيقة أن الحياة الإسلامية قد توقفت منذ فترة طويلة فى جميع أنحاء الأرض ، وأن « وجود » الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك – نرى أن الجهر بهذه الحقيقة ضرورة من ضرورات الدعوة إلى الإسلام ، ومحاولة استئناف حياة إسلامية .. ضرورة لا مفر منها .

إن الأمر المستيقن فى هذا الدين أنه لا يمكن أن يقوم فى الضمير « عقيدةً » . ولا فى واقع الحياة « دينا » إلا أن يشهد الناس : أن لا إله إلا الله . أى لا « حاكمية » إلا لله .. حاكمية تتمثل فى قضائه وقدره كما تتمثل فى شرعه وأمره – وهذه كلها سواء فى كونها أساسا للعقيدة لا تقوم – ابتداء – فى الضمير إلا به – كذلك هو لا يمكن أن يقوم فى واقع الحياة « دينا » إلا أن تتمثل العقيدة فى نظام واقعى للحياة هو « الدين » ، فتنفرد فيه شريعة الله بالهيمنة على حياة الناس جملة وتفصيلا ؛ ويبرأ فيه الحاكم والمحكوم من ادعاء حق « الألوهية »

عن طريق ادعاء حق « الحاكمية » ومزاولة التشريع فعلا بمالم يأذن به الله ؛ بمايتخذه البشر لأنفسهم من أنظمة وأوضاع وتشريعات وقوانين ؛ غير مستمدة من شريعة الله ، نصاً حين يوجد النص ، واجتهادا ــ فى حدود المبادئ العامة ــ حين لا يوجد النص . طاعةً لأمر الله سبحانه : « فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول ــ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ــ » ..

ونحن لانحدد مدلول « الدين » ولا مفهوم « الإسلام » على هذا النحو من عند أنفسنا .. ففى مثل هذا الأمر الخطير ، الذى يترتب عليه تقرير مفهوم لدين الله ؛ كما يترتب عليه الحكم بتوقف « وجود » الإسلام فى الأرض اليوم ؛ وإعادة النظر فى دعوى مئات الملايين من الناس أنهم « مسلمون » .. فى مثل هذا الأمر لا يجوز أن يفتى الإنسان فيما يقصم الظهر فى الدنيا والآخرة جميعا !

إنما الذى يحدد مدلول « الدين » على هذا النحو ، ومفهوم « الإسلام » هو الله ــ سبحانه ــ إله هذا الدين ورب هذا الإسلام .. وذلك فى نصوص قاطعة لا سبيل إلى تأويلها ولا الاحتيال عليها :

« إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ » . . . (يوسف : ٤٠)

« وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ » ... (المائدة : ٤٩)

« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ » ... (المائدة:٤٥)

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » ... (النساء : ٦٥)

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً » ... (النساء : ٥٩)

وكلها تقرر حقيقة واحدة . أنه لا إسلام ولا إيمان بغير الإقرار بالحاكمية لله وحده ؛ والرجوع إليه فيما يقع عليه التنازع - مما لم يرد به نص - إذ لا رأى مع النص ولا نزاع - والحكم بما أنزل - دون سواه - فى كل شئون الحياة ؛ والرضى بهذا الحكم رضى قلبيا بعد الاستسلام له عمليا ... وأن هذا هو « الدين القيم » .. وهذا هو « الإسلام » الذى أراده الله من الناس .

وحين نستعرض وجه الأرض كله اليوم - على ضوء هذا التقرير الإلهى لمفهوم الدين والإسلام - لا نرى لهذا الدين « وجودا » .. إن هذا الوجود قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة من المسلمين عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية فى حياة البشر ؛ وذلك يوم أن تخلت عن الحكم بشريعته وحدها فى كل شؤون الحياة .

ويجب أن نقرر هذه الحقيقة الأليمة ، وأن نجهر بها ، وألا نخشى خيبة الأمل التى تحدثها فى قلوب الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا « مسلمين ».. فهؤلاء من حقهم أن يستيقنوا: كيف يكونون مسلمين !

إن أعداء هذا الدين بذلوا طوال قرون كثيرة ومايزالون يبذلون ، جهودا ضخمة ماكرة خبيثة ، ليستغلوا إشفاق الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا مسلمين ، من وقع هذه الحقيقة المريرة ، ومن مواجهتها فى النور ! وتحرجهم كذلك من إعلان أن « وجود » هذا الدين قد توقف ، منذ أن تخلت آخر مجموعة مسلمة فى الأرض عن تحكيم شريعة الله فى أمرها كله؛ فتخلت بذلك عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية - [أو بالألوهية] - فهذه مرادفة لتلك ، أو لازمة لها لا تتخلف .

هؤلاء الأعداء الماكرون الخبثاء يستغلون ذلك الإشفاق وهذا التحرج لتخدير مشاعر

الكثيرين في الأرض ، الذين يحبون أن يكونوا « مسلمين » وإيهامهم أنهم مايزالون « مسلمين » فعلا ! وأن « الإسلام بخير » ! وأن الناس يمكن أن يكونوا « مسلمين » دون أن تحكمهم شريعة هذا الدين ؛ بل دون أن يعتقدوا أن الحاكمية لله وحده ، من ادعاها لنفسه فقد ادعى الألوهية ، وكفر ، وخرج من هذا الدين ! .

ولقد بلغ من تبجح هذا الخبث أن يكتب المستشرق « ولفرد كانتول سميث » كتابا كاملا تحت عنوان : « الإسلام في العصر الحديث » هدفه الأساسي هو إثبات أن « العلمانية » التركية ، التي قام بها «أتاتورك » ، هي « إسلامية ! » بل إنها هي « الحركة الإسلامية ! » الوحيدة الناجحة في تاريخ الفترة الحديثة ؛ وأن على « المسلمين » الذين يريدون استبقاء « وجود » الإسلام أن يحذوا حذوها ؛ بوصفها المحاولة الوحيدة الصحيحة !

كذلك بلغ الخبث من التبجح ! وكذلك ينبغي أن نجهر نحن بالحقيقة المقابلة ، التي قد يشفق منها الكثيرون ممن يحبون أن يكونوا مسلمين ؛ وممن يتحرجون أن يعلنوا أن وجود هذا الدين قد توقف .. لنبطل مفعول « المخدر » الخبيث ، الذي يخدر به أعداء هذا الدين محبي هذا الدين !!!

وينبغي كذلك ألا نخشى مايحدثه إعلان هـذه الحقيقة من خيبة أمل مريرة .. فنحن واثقون بعد ذلك أن « المستقبل لهذا الدين » ؛ وأن هذا التوقف عن الوجود لن يستمر . بل لن يطول ! وأن جميع الفقاعات التي ينفخ فيها الاستعمار الصليبي والصهيوني في هذه الأرض ستنفثئ كما تنفثئ الفقاعات دائما مهما تكن ضخمة المظهر ، شديدة البريق !

إن هذا الدين الذي توقف – مؤقتا – عن الوجود ؛ عميق الجذور في هذه التربة ؛ وهو أعمق من هـذا في تربة الفطرة .. إن اثني عشر قرنا من الوجود الواقعي لهـذا الدين

فى الأرض لن يمكن محوها من هذه الأرض .. وإن فطرة الله التى فطر الناس عليها لن تغلبها محاولات الاستعمار الصليبى والصهيونى !

إن « المستقبل لهذا الدين » فى هذه الأرض التى تحقق فيها وجوده الفعلى أكثر من مئتين وألف عام ؛ وفى غيرها من الأرض أيضاً ، التى تصارع فيها الفطرة ماهو مفروض عليها من المذاهب والأنظمة والأحكام !

ذلك حاضر هذا الدين . . إن وجوده متوقف . . لأنه لا يوجد إلا بالمدلول الذى أراده الله له ؛ وهو أن يكون هو المهيمن وحده على حياة الناس كلها . وأن تتحقق به ألوهية الله ـ سبحانه ـ فى الأرض تحقق هـذه الألوهية فى السماء . أى أن تتحقق عن طريق الإذعان لشريعته وأمره تحققها عن طريق قضائه وقدره . . تصديقـا لقول الله سبحانه :

« وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ » ..

وهذا هو مستقبله .. أمل عريض واثق فى عودة هذا الدين إلى الوجود .. أمل يسنده الوجود التاريخى الطويل ؛ ويؤكده الوجود « الفطرى » الأصيل ..

إلا أن هذا الأمل العريض الواثق لا يجوز أن يقعدنا عن استعراض الأسباب التاريخية لذلك التوقف ـ الوقتى ـ واستعراض العقبات القائمة فى وجه الوجود الفعلى . واستعراض الجهود الأولية اللازمة أو الممهدة لهذا الوجود الفعلى . .

لقد أشرنا من قبل إلى الهزة التى أصابت المجتمع المسلم وهو حديث عهد بالوجود ، وذلك فيما وقع من بنى أمية من انحراف عن القمة التى كان المجتمع مستويا عليها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد الخلافة الراشدة .

فالآن نشير إشارات سريعة إلى أهم الصدمات التى واجهت هذا الدين بعد ذلك فثبت لها طوال هذه القرون .

ونحن واجدون أولاها فى قيام الدولة العباسية واعتمادها على عناصر حديثة العهد بالإسلام ، لم تخلص نيتها له بعد ،لما يعتمل فيهامن عصبية قومية لا تزال جذورها كامنة؛فلما تقدم العهد بالدولة العباسية تركت العناصر التى قامت عليها والتى أخذت تندمج فى الإسلام، إلى عناصر أخرى قلوبها غلف من الترك والشراكسة والديلم وسواها . وهكذا ظلت الدولة تعتمد على عناصر مضادة لروح الإسلام ؛ وتتأثر بهذه العناصر بحكم اعتمادها عليها .فلم يكن إلا روح الإسلام مقاوماً لهذه العناصر ولسلطان الدولة معها ، بما يحمله من طاقة كامنة ، وحيوية عظيمة .

ثم كانت غزوات التتار المدمرة ، التى طغت على العالم الإسلامى ببربرية متوحشة ، لم يلبث الإسلام أن طواها فى تياره ، وابتلعها فصارت بعض رواسبه ، ولكن بعد أن هزت هذا الروح الإسلامى هزة عنيفة ، وأثرت حتما فى أوضاعه وتقاليده . إلا أن الأمة الإسلامية ظلت – على الرغم من تضعضع الدولة أمام عاصفة التتار – قوية متماسكة الأواصر ، قائمة على أصول الدين مهما ندت عنها فى بعض الجوانب الرسمية الخاصة .

وينبغى أن نذكر هنا أن الإمبراطورية الرومانية التى استغرق بناؤها ونموها نحو ألف عام ، انقرضت وتفسخت فى قرن واحد نتيجة لغزوات الهون والقوط ، فلم يبق منها سوى بضعة معالم وإمارات ، على حين بقيت الدولة الإسلامية قائمة فى رقعة فسيحة ، وهى الدولة التى لم يستغرق بناؤها سوى نيف ونصف قرن ، على الرغم من جميع النزاعات الداخلية بين الأسر الحاكمة ، والضربات الخارجية من التتار وغير التتار ، مما يشهد بحيوية الإسلام العظيمة فى مواجهه تلك الظروف .

فإذا مضينا فى تتبع الصدمات وجدنا صدمة الأندلس فى الغرب ، بعد صدمة الحروب الصليبية فى الشرق . وقد هزم الإسلام فى الأولى وانتصر فى الثانية ، وظل يعانى العداء

الوحشى من الروح الصليبية منذ ذلك الحين ظاهراً ومستتراً حتى الآن .

ولـكن الـكارثة التى أطبقت على الإسلام إنما كانت فى هذا العصر الحديث ، حين غلبت أوربا على العالم ، وامتد ظل الاستعمار الصليبى ، وغشى العالم الإسلامى كله شرقاً وغرباً ، وأرصد لقتل الروح الإسلامية كل قواه ، مستمداً دفعته من العداء الصليبى الموروث، ومن القوة المادية والثقافية التى يحملها ،مضافاً إليهما التضعضع الداخلى فى قوة الأمة الإسلامية ، وابتعادها رويداً رويداً فى هذا المدى الطويل عن تعاليم دينها ووصاياه .

وفى الحديث عن العداء الصليبى الـكامن فى النفس الأوربية للإسلام ينبغى ألا تخدعنا الظواهر ، وألا يستغفلنا التظاهر باحترام الحريات الدينية ؛ والقول بأن أوربا ليست متحمسة للمسيحية اليوم تحمسها لها إبان الحروب الصليبية ، فليس هناك ما يدفعها إلى التحمس ضد الإسلام كما كانت فى تلك الأيام !

إنها كلها خدع وأضاليل . وما كان اللورد ألنبى إلا مثلا لضمير أوربا كلها ، وهو يدخل بيت المقدس فى الحرب العظمى الماضية فيقول : « اليوم فقط انتهت الحروب الصليبية » ! وما كان الحاكم العام للسودان إلا ممثلا لهذا الضمير ، وهو يضع كل قوى الحـكومة تحت تصرف المبشرين فى جنوب السودان ، ويمنع أى تاجر مسلم أن يمر هناك مجرد مرور . وقد حدث أن موظفاً بقى فى الجنوب أمداً طويلا وطلب نقله إلى الشمال فلم يجب ، فهدته الحيلة أن يرفع صوته بالأذان للصلاة فـكان هذا إيذاناً بنقله فى الغداة !

وانجلترا هى أشد الدول الأوربية تسامحا وإغضاء ولباقة فى معالجة مسائل الأديان .

وقد يعجب البعض لأن تظل هذه الروح التعصبية ضد الإسلام قوية إلى هذا الحد فى الشعور الأوربى ، بعد ما تنـكرت أوربا للمسيحية، ولم تعد صيحات الحجاج والقديسين هى التى تملأ سمعها كما كانت أيام الحروب الصليبية ، ولـكن هذا العجب يزول حين نلقى بالنا إلى حقيقتين واقعتين .

الحقيقة الأولى : « أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ، ولكنه كان قبل كل شىء وفى مقدمة كل شىء شراً ثقافيا . لقد نشأ تسميم العقل الأوربى عما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب . وفى ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة فى عقول الأوربيين، من أن الإسلام دين شهوانية وعنف حيوانى ، وأنه تمسك بفروض شكلية ، وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها ؛ ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت . وفى ذلك الحين أيضاً نبز الرسول محمد بقولهم « كلبى »[1] .

« لقد بذرت بذور البغضاء . . إن حمية الصليبيين الجاهلية كان لها ذيولها فى أماكن كثيرة من أوربة ، فشجع ذلك نصارى الأندلس على الحرب لإنقاذ بلادهم من « نير الوثنيين » ! وأما تدمير أسبانية المسلمة (الأندلس) فقد اقتضى قروناً كثيرة حتى تم . ولما تطاول أمد هذا القتال على وجه الحصر ، أخذ الشعور ضد الإسلام فى أوربة ينشب جذوره ثم يثبت . ولقد انتهى باستئصال شأفة العهد الإسلامى فى أسبانية بعد اضطهاد بالغ فى الوحشية والقسوة مما لم يشهده العالم قط ؛ وإن كانت أصداء الفرح قد تجاوبت فى أوربة على إثر ذلك ، مع العلم بأن النتائج التى تلته كانت القضاء على العلوم والثقافة ، والتبدل بها جهل العصور الوسطى وخشونتها .

« ولكن قبل أن يتاح لصدى هذه الحوادث أن يخفت فى أسبانية حدث حدث ثالث عظيم الأهمية ، زاد فى فساد الصلات بين العالم الغربى وبين الإسلام ، ذلك هو سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك . لقد كانت أوربا ترى بقية من الزهو اليونانى والرومانى القديم على بيزنطيوم (القسطنطينية) وكانت تنظر إليها على أنها حصن أوربة ضد برابرة آسية .

(١) « وازن بين صورة Mahomed وصورة Mahound إن Ma؛ ما : ضمير الملك للمتكلم (ضمير جر) و Hound هاوند — من هوند Hund الجرمانية بمعنى الكلب : وقد كان أولئك النابزون يتلاعبون بظاهر اللفظين : ماهومد وماهوند » .. كتاب « الإسلام على مفترق الطرق» تأليف بيولد ڤايس (محمد أسد) وترجمة الدكتور عمر فروخ .

وبسقوط القسطنطينية فتح باب أوربة على مصراعيه للسيل الإسلامى . وفى القرون التى تلت والتى امتلأت بالحروب ، لم تبق عداوة أوربة للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب بل ذات أهمية سياسية أيضاً . وهذا زاد فى اشتداد تلك العداوة .

« ومع هذا كله فإن أوربة قد استفادت كثيراً من هذا النزاع . إن « النهضة » أو إحياء الفنون والعلوم الأوربية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص ، كانت تعزى فى الأكثر إلى الاتصال المادى بين الشرق والغرب . لقد استفادت أوربة أكثر مما استفاد العالم الإسلامى ، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل ، وذلك بأن تنقص من بغضائها للإسلام ، بل كان الأمر على العكس ، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ، ثم استحالت عادة . ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبى كلما ذكرت كلمة « مسلم » . ولقد دخلت فى الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت فى قلب كل أوربى رجلا كان أو امرأة . وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى . ثم جاء عهد الإصلاح الدينى حينما انقسمت أوربا شيعا ؛ ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها فى وجه كل شيعة أخرى ؛ ولكن العداء للإسلام كان عاماً فيها كلها . بعدئذ جاء زمن أخذ الشعور الدينى فيه يخبو ، ولكن العداء للإسلام استمر . وإن من أبرز الحقائق على ذلك أن الفيلسوف والشاعر الفرنسى ڤولتير ، وهو من ألدّ أعداء النصرانية وكنيستها فى القرن الثامن عشر ، كان فى الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للإسلام ولرسول الإسلام . وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشىء من العطف ؛ أما فيما يتعلق بالإسلام فإن الاحتقار التقليدى أخذ يتسلل فى شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية ؛ وبقى هذا الخليج الذى حفره التاريخ بين أوربة والعالم الإسلامى غير معقود فوقه بجسر . ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً فى التفكير الأوربى . والواقع أن المستشرقين الأولين فى الأعصر

الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون فى البلاد الإسلامية ؛ وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوربيين من « الوثنيين » . غير أن هذا الالتواء العقلى قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسىء توجيهها . أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة ، وخاصة طبيعية ، تقوم على المؤثرات التى خلقتها الحروب الصليبية ، بكل مالها من ذيول فى عقول الأوربيين الأولين .

« ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق أن نفوراً قديماً مثل هذا ــ وقد كان دينياً فى أساسه وممكناً فى زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية ــ يستمر فى أوربة فى زمن ليس الشعور الدينى فيه إلا قضية من قضايا الماضى ؟

« ليست مثل هذه المعضلات موضع استغراب أبداً ، فإنه من المشهور فى علم النفس أن الإنسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التى تلقنها فى أثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة ــ والتى كانت من قبل تدور حول تلك الاعتقادات المهجورة ــ فى قوتها ، تتحدى كل تعليل عقلى فى جميع أدوار ذلك الإنسان ، وهذه حال الأوربيين مع الإسلام : فعلى الرغم من أن الشعور الدينى الذى كان السبب فى النفور من الإسلام قد أخلى مكانه فى هذه الأثناء ، لاستشراف حياة أكثر مادية ، فإن النفور القديم نفسه قد بقى عنصراً من الوعى الباطنى فى عقول الأوربيين . وأما درجة هذا النفور من القوة ، فإنها تختلف بلا شك بين شخص وآخر ، ولكن وجوده لا ريب فيه . إن روح الحروب الصليبية ــ فى شكل مصغر على كل حال ــ ما زال يتسكع فوق أوربة ، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الإسلامى موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت فى القتال[1] » .

(١) عن كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» تأليف ليوبولد ڤايس (محمد أسد) وترجمة الدكتور عمر فروخ .

والحقيقة الثانية : أن الاستعمار الأوربى والأمريكى الصليبى لا يملك أن يغفل من حسابه أن الروح الإسلامى صخرة مقاومة لمد الاستعمار ؛ وأنه لا مفر من تحطيم هذه الصخرة أو زحزحتها على الأقل ؛ ولا عبرة بما يقوله بعض المخدوعين أو المأجورين من أن أوربا لا يهمها الدين ، ولا تراه مصدر قوة ، ولا تخشى من العالم الإسلامى إلا قوته المادية . فالدين فى حقيقته قوة روحية لها حسابها فى تجديد القوى المادية ؛ فوق أن الإسلام بالذات غير المسيحية ، فهو يأمر بإعداد القوى المادية ويحض على المقاومة والكفاح ، وينذر المستسلمين والمستضعفين بسوء المآل فى الدنيا والآخرة : «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (١) » .. « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (٢) » . . « فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ (٣) . . « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ (٤) » .

فالدين قوة روحية وتنظيمية ودعوة إلى قوة مادية ؛ والدين صخرة مقاومة ودعوة إلى شدة المقاومة . فلا مفر للاستعمار الأوربى والأمريكى أن يكون عدواً لهذا الدين . . كل ما هنالك أن مظاهر العداء تختلف بحسب أساليب كل أمة فى الاستعمار ؛ ثم بحسب الظروف والأحوال . ففرنسا مثلا تعلنها حرباً صريحة سافرة فى المغرب العربى كله على الإسلام باسم « الظهير البربرى » أو بأى اسم آخر . ويعلن ممثلوها فى دمشق أنهم أحفاد الصليبيين جهاراً نهاراً . وانجلترا تراوغ فتسلك طريقها خلسة إلى معاهد التعليم فى مصر لتنشىء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية بل الشرقية ؛ فإذا تم لها تكوين

(١) سورة الأنفال [٦٠] .
(٣) سورة النساء [٧٤] .
(٣) سورة النساء [١٤٤] .
(٤) سورة آل عمران : [١٣٩ ، ١٤٠] .

جيل من المعلمين بهذه العقلية ، أطلقتهم فى المدارس وفى دواوين المعارف يصبغون عقلية الأجيال هذه الصبغة ، ويضعون المناهج والخطط مؤدية إلى تكوين هذه العقلية ، مع المحافظة التامة على إبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه فى الوزارة . وبذلك تستغنى عن مواجهة الشعور الدينى بالعداوة السافرة ، إذ تدع هذه المهمة لفريق كبير ذى أثر بعيد فى تكوين العقلية المصرية العامة . . أما فى السودان الجنوبى فلا تجد حاجة إلى هذه المواربة ، فتقف موقفها الذى وصفناه من المبشرين المسيحيين والتجار المسلمين ! وأمريكا تقيم الأوضاع والأنظمة التى تسحق الإسلام سحقاً بكل مقوماته العقيدية والخلقية والحركية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . .

وهكذا سارت كل دولة مستعمرة على طريقة فى مقاومة هذا الدين وخنقه منذ قرون مضت ؛ وما تزال تسير على خطة متعاونة فى صميمها تبدو فى موقف الأمم الغربية من كل قضية تواجه فيها الإسلام من قريب أو من بعيد !

والذين يحسبون أن نفوذ اليهود المالى فى الولايات المتحدة وسواها هو الذى يوجه الغربيين هذا التوجيه ؛ والذين يحسبون أن المطامع الإنجليزية والمكر الأنجلوسكسونى هو الذى يوجه الموقف ؛ والذين يحسبون أن الصراع بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية هو الذى يؤثر . . كل أولئك يغفلون عنصراً حقيقياً فى المسألة يضاف إلى هذه العناصر جميعاً ، هو الروح الصليبية التى تحملها دماء الغربيين ، والتى تندس فى عقلهم الباطن ، مضافاً إليها الخوف الاستعمارى من الروح الإسلامى ، والعمل على تحطيم قوة الإسلام ، حيث يربط الغربيين جميعاً شعور موحد ومصلحة موحدة فى تحطيمها ، تجمع بين روسيا الشيوعية وأمريكا الرأسمالية ! ولا ننسى دور الصهيونية العالمية فى الكيد للإسلام وتجميع القوى ضده فى العالم الاستعمارى الصليبى والعالم المادى الشيوعى على

السواء . وهو الدور المستمر الذى قام به اليهود دائماً منذ هجرة الرسول إلى المدينة وقيام دولة الإسلام !

والعجيب أن روح الإسلام على الرغم من جميع هذه الصدمات التى واجهته منذ الفترة الأولى فى حياته إلى اليوم ، وعلى الرغم من معاجلة الصدمات له وأثر ذلك فى كيانه الوليد ؛ ثم على الرغم من غلبة الحضارة الغربية اليوم بقوتيها المادية والثقافية ، مما أحال بعض من يحملون أسماء المسلمين أدوات هدم وتحطيم للإسلام فى أيدى المستعمرين وهم مستريحون !

على الرغم من هذا كله ظلت روح الإسلام فى ذاتها سليمة ، وظلت طاقته الكامنة تؤثر فى مجرى الحياة الإنسانية بصفة عامة ؛ وتؤثر فى صوغ السياسات العالمية وتوجيهها منذ أربعة عشر قرناً إلى اليوم ؛ فما من حركة سياسية أو حربية فى العالم لم يحسب فيها للإسلام حساب ؛ حتى فى عصور الضعف والفرقة وتخلخل الحياة الروحية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم الإسلامى .

ولقد انقضت فترة الخمول والاضمحلال ؛ وأخذ المد الإسلامى فى الظهور فى كل مكان على الرغم من الضربات الساحقة التى توجه إلى طلائع البعث الإسلامى فى كل مكان ! وهى مظاهر لا يمكن إغفالها ، على الحيوية الكامنة فى الإسلام ، وعلى أن رصيده المدخر يكفى لاستئناف حياة إسلامية جديدة ، لا تقوم على مجرد الرغبة والتفاؤل ، بل على أسس عملية وواقعية كذلك ظاهرة للعيان ، هى اليوم فى دور التجمع والاستعداد على الرغم مما يبدو أحياناً من عوامل المقاومة والانتكاس . فما هى إلا فقاعات تنفقع ، أو سحابة صيف تنقشع !

ولكننى على الرغم من إيمانى إيماناً مطلقاً بحتمية استئناف الحياة الإسلامية فى العالم الإسلامى ، وباستعداد الإسلام لأن يكون نظاماً عالمياً ـ لا محلياً ـ فى المستقبل . .فإننى

لاأحب أن أندفع وراء خيال جامح ، فأقرر أن هذا سهل ميسور !

كلا فهناك عراقيل شتى وضخمة ، كاأن هناك أعمالا عظيمة يجب أن تتم قبل أن يصبح استئناف الحياة الإسلامية الصحيحة ميسوراً فى المجتمع الإسلامى ذاته . وتقدير تلك العوائق الضخمة ، والتنبيه إلى هذه الأعمال الواجبة أمر يوجبه الشعور الحقيقى بعظمة الغاية التى تهدف إليها ، وبثقل التبعة التى تنتظر من ينهض لهذه الغاية .

وليس يكفى أن يبعث المرء بالصيحة المدوية فى حماسة فوارة ، ليصبح الأمل واقعاً والرجاء حقيقة ، إن لم يقدر كل العقبات و كل التبعات ، وينبه من يبعث إليهم بصيحته إلى الجهد الضخم الذى يطلب إليهم أن يبذلوه .

وطبيعى أن انفراج المسافة بين سياسة الحكم وروح الإسلام فترة طويلة من الزمان ، يجعل العودة إلى السياسة المستمدة من هذا الروح أصعب ؛ لأن جهاز الدولة والمجتمع ، وقواعد الحياة بكل مقوماتها ، والاتجاه النفسى والعقلى . . كلها تقوم على أسس معينة يصعب تغييرها قبل بذل جهود ضخمة طويلة . وكلما امتد الزمن زادت هذه الصعوبة ، واحتاجت إلى جهود أضخم وأطول .

ثم يضاف إلى عامل الزمن الطويل عامل آخر حاضر ؛ وهو أننا لانعيش فى هـذا العالم وحدنا ، ولا نعيش كذلك فى عزلة عنه . وتشابك مصالحنا وقضايانا مع هذا العالم الذى تسيطر عليه حضارة معينة ، ذات عقلية مناقضة تماماً لعقلية الإسلام ـ كما سنبين فيما بعد ـ يجعل خطواتنا فى سبيل استئناف حياة إسلامية صحيحة ، خطوات بطيئة من جهة ، وذات تـكاليف علينا من جهة أخرى .

ومما يزيد هذا العامل الأخير أهمية ، أن هذا العالم الغربى الذى تتشابك مصالحنا معه أقوى منا فى الوقت الحاضر ، ولبست لنا السيطرة عليه أو القوة المـكافئة لقوته كما كنا فى أول عهد الإسلام ؛ ثم هو فى الوقت ذاته عدو لنا ، وعدو لديننا بوجه خاص . لذلك لن يدعنا

ننشئ نظاماً إسلامياً من جديد، ونستأنف حياة إسلامية صحيحة، مالم نبذل جهوداً مضاعفة، كان يمكن الاقتصاد فيها لو كانت لنا السيطرة على العالم الغربى أو القوة المكافئة لقوته، أو لو كان هو صديقاً لنا، ولديننا الذى نريد العودة إليه.

إلا أن هذا كله لا يعني أن العودة إلى النظام الإسلامى مستحيلة. وكل مايعنيه أنها عمل عسير ضخم، فى حاجة إلى جهود غير عادية؛ وقبل كل شىء فى حاجة إلى حماسة فى الإيمان به؛ وجرأة فى اقتحام العقبات المرصودة فى طريقه؛ وصبر على الجهد الشاق الواجب له، وثقة فى ضرورته للعالم الإسلامى وللعالم الإنسانى كله، وعقلية إنشائية مبتكرة، ليست وظيفتها مجرد ترقيع الواقع، بل إنشاء واقع جديد كامل غير مرقع!

ولعله من الحقائق ذات القيمة فى هذا المجال، أن نشير إلى أن الحضارة الغربية الراهنة قد قادت العالم إلى حربين شاملتين خلال ربع قرن؛ كما قادته بعد الحرب الثانية إلى انقسام بين الكتلتين الشرقية والغربية، وإلى تهديد دائم بحرب ثالثة؛ وإلى اضطرابات فى كل مكان، وإلى جوع وعرى وبؤس فى ثلاثة أرباع المعمورة. وأن النظام العالمى كله اليوم فى حالة تخلخل واضطراب وبحث عن أسس جديدة، وتنقيب عن زاد روحى يرد إلى الإنسانية ثقتها بالمبادىء الإنسانية.

ولا ينبغى - مع هذا - أن نتفاءل أكثر مما يجب باستعداد العالم الغربى لقبول أسس حضارتنا الإسلامية، فهذا موضوع آخر.. نعم إن رجلا كبرنارد شو يقول: إن العالم الغربى قد أخذ يتجه هذا الاتجاه، ويتنبأ بأنه فى الطريق إليه فيقول:

« لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غدا، وهو قد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم.. لقد عمد رجال الإكليروس فى العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام فى أحلك الألوان؛ وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم. والواقع أنهم كانوا يسرفون فى كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصما للمسيح. أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ

الإنسانية ، وأعتقد أن رجلا مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث نجح فى حل مشكلاته ، وأحل فى العالم السلام والسعادة . وما أشد حاجة العالم إليهما !

« لقد أدرك مفكرون منصفون قاموا فى القرن التاسع عشر ، مالدين محمد من قيمة ذاتية . من هؤلاء : كارليل ، وجوته ، وجيبون . . . بذلك حدث تحول صالح فى موقف أوربا من الإسلام . وقد تقدمت أوربا تقدماً كبيراً فى هذا القرن المتمم العشرين ، فبدأت تحب عقيدة محمد . ولعلها تذهب فى القرن التالى إلى أبعد من ذلك فتعترف بجدوى هذه العقيدة لحل مشاكلها . . وقد دان كثيرون من قومى ومن أهل أوربا بدين محمد فى الحاضر . وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول : إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ »[1].

ولكننا نرى أن نبوءة برنارد شو لاتزال مجرد نبوءة ـ إن لم تكن مخدراً لشعور المسلمين ليطمئنوا وينتظروا اعتناق الأوربيين لدينهم ! ـ وعلى كل حال فإن انتظار تحققها سابق على الأقل لأوانه لسببين رئيسيين :

أولها : هو هذا العداء الموروث للإسلام فى أعماق الطبيعة الأوربية والأمريكية ؛ والذى يغذيه فى العصر الحديث تعارض مصلحة الاستعمار الغربى والشرقى مع وجود هذه العقبة فى طريقه .

وثانيهما : أن العقلية الأوربية تأصلت على أسس مادية ، أثر الفكرة الروحية فيها ضئيل ، منذ الحضارة الرومانية إلى العصر الحديث . وهذ القول يحتاج إلى تفصيل لا تقتصر فائدته على دلالته فى هذا الموضع ، بل تمتد إلى الإجابة على هذا السؤال الهام : هل يمكن أن تتعاون الحضاة الإسلامية والحضارة الغربية ؟ وما حدود هذا التعاون ؟

لقد قلنا فى أوائل هذا الكتاب : إن أوربا لم تكن مسيحية فى يوم من الأيام .

---

(١) عن كتاب حياة محمد لهيكل نقلا عن مجلة نور الإسلام عدد ٤٠ ص ٥٧٢٠ سنة ١٣٥٣ هـ

وذلك بسبب أن طبيعة الصراع فيها على رقعة من الأرض صغيرة ضنينة ، جعلت مبادئ المسيحية السمحة لا تمتد جذورها فى تلك التربة العصية ؛ وذلك فوق ما فى طبيعة المسيحية من تزهد وعدم احتفال بالحياة الدنيا . فالآن نضيف إلى هذين العاملين عاملا ثالثاً أشرنا إليه هناك إشارة عابرة ؛ وهو وجود الإمبراطورية الرومانية العريقة فى طريق المسيحية ، وبقاء تعاليم الإمبراطورية أساساً للحضارة الأوربية الحديثة ، على الرغم من انتقال المسيحية إليها ، إذ ظلت هذه على هامش الحياة .

ونقتطف هنا فقرات من كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » نجد فيها الكفاية والغنـاء .

« كانت الفكرة التى تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية . . الاجتياح بالقوة ، واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده . وفى سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون فى عنفهم سوءا ، ولا فى ظلمهم انحطاطا . وإن « العدل الرومانى » الشهير كان عدلا للرومانيين وحدهم . ومن البين أن اتجاهاً كهذا كان ممكناً فقط على أساس إدراك مادى خالص للحياة وللحضارة ، إدراك مادى هذبه على التأكيد ذوق فكرى ولكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية . إن الرومانيين فى الحقيقة لم يعرفوا الدين ؛ وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية . لقد كانت أشباحا سكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعى ؛ ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل فى أمور الحياة الحقيقية ؛ بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت مثل ذلك ، ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية !

« تلك كانت التربة التى نمت فيها المدنية الغربية الحديثة . ولقد عملت بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة فى أثناء تطورها ؛ ثم إنها بطبيعة الحال قد بدلت وحورت فى ذلك

الإرث الثقافى الذى ورثته عن رومية فى أكثر من ناحية واحدة . ولكن الحقيقة الباقية أن كل ما هو اليوم حقيقى فى الاستشراف الغربى للحياة والأخلاق يرجع للمدنية الرومانية . وكما أن الجو الفكرى والاجتماعى فى رومية القديمة كان نفعيا بحتاً ولا دينيا ـ لا على الافتراض بل الحقيقة ـ فكذلك هو الجوفى الغرب الحديث . ومن غير أن يكون لدى الأوربى برهان على بطلان الدين المطلق ، ومن غير أن يسلم بالحاجة لمثل هذا البرهان.. . ترى التفكير الأوربى الحديث ـ بينما هو يتسامح بالدين وأحيانا يؤكد أنه عرف اجتماعى ـ يترك ، على العموم ، الأخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية . إن المدنية الغربية لا تجحدالله ألبتة ، ولكنهالاترى مجالا ولا فائدة لله فى نظامها الفكرى الحالى . لقد اصطنعت فضيلة من العجز الفكرى فى الإنسان ، أى من عجزه عن الإحاطة بمجموع الحياة . وهكذا يميل الأوربى الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية و تلك التى ينتظر منها على الأقل أن تؤثر فى صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة . وبما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك ، فإن العقل الأوربى يميل بداءة إلى إسقاط « الله » من دائرة الاعتبارات العملية !

« وهنا يعرض سؤال : كيف يمكن لهذا الاتجاه أن يتفق وطريقة التفكير المسيحى ؟ أليست النصرانية ـ المفروض فيها أن تكون الهيكل الروحى للمدنية الغربية ـ عقيدة مبنية على الأخلاق المطلقة كما هى الحال فى الإسلام ؟ لا شك فى أنها كذلك . ولكن حينئذ لا يمكن أن يكون ثمة خطأ أفدح من أن نعتبر أن المدنية الغربية الحديثة نتاج النصرانية . إن الأسس الفكرية الحقيقية فى الغرب يجب أن تطلب فى فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق ؛ ويمكن التعبير عنها كما يلى : بما أننا لا نعرف شيئاً معينا ـ من طرق الاختبار العلمى والتقدير فى الحساب ـ

لا عن أصل الحياة الإنسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد.. فإن من الخير لنا أن نحصر قوانا فى وجوه إمكاننا المادى والفكرى ، من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية . فلا ريب إذن فى أن هذا الاتجاه الذى تتميز به المدنية الغربية الحديثة ، لا يجد قبولا فى التفكير الدينى المسيحى كما لا يجد قبولا فى الإسلام أو فى كل دين آخر ، وذلك لأنه لا دينى فى جوهره . وهكذا تكون نسبة نتاج المدنية الغربية الحديثة إلى النصرانية خطأ تاريخياً عظيما . إن النصرانية ساهمت فى جزء يسير جداً من الرقى العلمى المادى الذى فاق به الغرب ، فى مدنيته الحاضرة ، كل ماسواه . وفى الحق أن ذلك النتاج قد برز من كفاح أوربا المتطاول للكنيسة المسيحية ولاستشرافها للحياة . . ثم إن للنصرانية اليوم فى نظر السواد الأعظم معنى شكلياً فقط كما كانت حال الهة رومية، تلك الآلهة التى لم يكن يسمح لها ، ولا ينتظر منها ، أن يكون لها نفوذ حقيقى ما على المجتمع . ولا ريب فى أنه لا يزال فى الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب دينى ، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم ؛ ولكن هؤلاء شواذ فقط، إن الأوربى العادى ـ سواء عليه أكان ديمقراطياً أم فاشياً أم بلشفيا، صانعاً أم مفكرا ـ يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقى المادى ، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أو كما يقول التعبير الدارج : « طليقة من ظلم الطبيعة » . إن هيا كل هذه الديانة إنما هى المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء ؛ وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران . وإن النتيجة التى لا مفر منها فى هذه الحال هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة؛ وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ، ومصممة على أن يفني بعضها بعضاً حيثما تتصادم مصالحها المتقابلة . أما على الجانب الثقافى فنتيجة

ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية فى مسائل الفائدة العملية ، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادى » . . انتهى .

والخلاصة لهذا كله أن الضمير الأوربى الحالى ليس على استعداد لاستشعار روح الإسلام والاستعانة به فى حل مشكلات الإنسانية . وإن يكن ذلك ليس مستحيلا بعد عدة انقلابات وتطورات أخرى ؛ وبعد أن يبدأ العالم الإسلامى ذاته فى استئناف حياة إسلامية واضحة المعالم ، مستقلة الأسس ، يجد فيها الغرب الواقعى التفكير ، حقائق عملية قائمة تجذب حسه ؛ وتعدل تفكيره . وإن كان اعتقادى الخاص أن أجيالا متطاولة ستنقضى قبل أن يستطيع الغرب استشعار روح الإسلام على نحو من الأنحاء .

والخلاصة لهذا كله كذلك أن أسلوب التفكير الإسلامى القائم على الغايات الخلقية للأعمال ، لا يستطيع الالتقاء بأسلوب التفكير الغربى الحاضر القائم على الغايات النفعية للأخلاق ؛ وهذا ما يجب علينا أن نحسب حسابه ، ونحن نعمل لتحقيق حياة إسلامية سليمة ، فلا نحاول ترقيع هذه الحياة باستعارات نستوردها من الخارج ، لأن هذه الرقع لن تستقيم مع نسيج تفكيرنا الأصيل .

والذين يريدون من أصحاب الدعوة إلى الإسلام أن يستعيروا مناهج الفكر الغربية يسلمون بالهزيمة منذ الجولة الأولى حين يحاولون تجديد حياتهم باستعارة الطرق الغربية فى التفكير والحياة والسلوك ؛ وينتهون إلى وأد الحياة التى يعملون لإحيائها ، لأنهم منذ الخطوة الأولى يعدلون عن طريقها الطبيعى الوحيد ، وهو أن يفكروا على أسس إسلامية تجعل العنصر الأخلاقى أصيلاً فى بناء الحياة ؛ وتنظر للغايات الخلقية للعمل ، ولا تجعل المنفعة هى الغاية العليا للأخلاق .

ولقد رأينا فى الفصول الأولى من هذا الكتاب ، أن الإسلام يحقق غايات الحياة الصالحة كلها ، وهو يحافظ على العنصر الأخلاقى فيها ؛ وأن قيمته الحركية الكبرى كامنة

فى أنه لا يجزئ الحياة؛ ولا يفصل بين الوسائل والغايات؛ ولا يفترض التعارض بين المادى والروحى فى كيان الحياة وفى طبيعة الكون والناس ، بل يفترض أن الحياة وحدة كلية ، تسير بجملتها نحو هذه الأهداف فى توافق واتساق .

يقدم الإسلام إذن للبشرية فكرة كاملة عن الحياة . . هذه الفكرة قابلة دائما للنمو فى التفريع والتطبيق ؛ ولكنها غير قابلة للتعديل أو المزج فى الأصل أو الاتجاه .

ويجب لكى تؤتى هذه الفكرة الكاملة نتائجها الطبيعية كاملة ، أن تطبق تطبيقاً كاملا ، وإلا فإن أقل تعديل فى أساسها واتجاهها يحدث فيها اختلالا ، لا تتحقق معه صورة الحياة التى يرسمها الإسلام .

أما النمو الدائم فى التفريع والتطبيق على أساس الفكرة الكلية فهو أمر طبيعى تقره طبيعة الإسلام ، وتدعو إليه ، وتهيئ له وسائله ، وتعترف بها . فالاجتهاد المفتوح دائما ، والسلطات الواسعة المتروكة للإمام الذى يحكم بشريعة الله ... كل هذه وسائل حية لاستمرار النمو فى التفريع والتطبيق لمسايرة حركة الحياة ، وتلبية حاجاتها المتجددة ... أمر واحد هو الذى يجب التزامه : ألا تخرج هذه التفريعات والتطبيقات على الأصول الأساسية للإسلام ؛ وألا تسلك اتجاهاً غير اتجاهه ؛ أو تحتال على روح الإسلام وتتلبس بروح أخرى غير روحه القوية المستقيمة .

وعندما يقوم المجتمع المسلم بالفعل ، فسيكون المجال مفتوحاً للاجتهاد ولتطبيق شرائع هذا الدين على هذا المجتمع . وسيكون مدار قبولنا لأى تفريع أو رده ، أن نعرضه على فكرة الإسلام الأساسية وروحه العامة ، فما وافق فكرته وروحه قبلناه ، وما خالفها رفضناه ، على أن يكون مقرراً فى نفوسنا إلى درجة الإيمان والحماسة : أننا نملك تصوراً عن الحياة أكبر مما يملك أتباع أى دين أو فلسفة أو حضارة ، لأنه من صنع الله خالق الحياة .

ولكن هذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل الوسائل العملية لبلوغ هذا الهدف العظيم . فعلى بركة الله إذن نأخذ فى هذا التفصيل .

* * *

إن استئناف حياة إسلامية لا يتم بمجرد وضع تشريعات وقوانين ونظم مستمدة من الشريعة الإسلامية ؛ فهذا ركن واحد من ركنين يعتمد عليهما الإسلام دائما فى إقامة الحياة ، وهو الركن الثانى لا الأول . أما الركن الأول ، فهو العقيدة الصحيحة التى تفرد الله سبحانه بالألوهية . ومن ثم تفرده بالحاكمية . وتنكر على غير الله أن يدعى حقّ الألوهية ، بادّعاء حق الحاكمية ومزاولته فعلا !

أما العدالة الاجتماعية فهى جزء من تلك الحياة الإسلامية لا يتحقق كاملا إلا بتحقق تلك الحياة ، ولا يكفل له البقاء إلا بإقامتها على أسسها الوطيدة ، شأنها فى ذلك شأن كل نظام آخر ، لا بد أن يعتمد على الإيمان به والثقة بصلاحيته؛ وإلا فقد أسسه المعنوية ، وقام على القهر التشريعى والنظامى وحده ؛ وهو قهر عمره مرهون بالقدرة على التملص منه.

لذلك كان التشريع الإسلامى أدنى إلى الاتباع والطاعة لأنه يعتمد على عقيدة دينية. ولذلك أيضاً يجب أن تكون نقطة البدء هى استحياء هذه العقيدة ، ونفى ما علق بها من تحريفات وتأويلات وشبهات ، لتكون سنداً للنظام التشريعى الذى نشير به لتحقيق حياة إسلامية صحيحة . وبذلك تقوم هذه الحياة ــ حين تقوم ــ على التشريع والتوجيه، وسيلتى الإسلام الأساسيتين فى تحقيق أهدافه جميعاً .

يجب إذن أن نعيد بناء العقيدة الإسلامية على الأسس التى بيناها فى مطلع هذا الفصل فى نفوس الأفراد والجماعات قبل أن نفكر فى موضوع التشريع الإسلامى الذى ينظم الحياة .

ولكن كيف يتسنى لنا أن نكوّن عقيدة إسلامية بثقافة ، ووسائل تربية ، وطرق تفكير ، هى فى صميمها غربية ، وهى فى صميمها معادية للفكرة الإسلامية .

أولا : لأنها تقوم على أساس مادى مناهض لفكرة الإسلام عن الحياة . وثانياً : لأن محاربة الإسلام جزء أصيل فى تكوينها ؛ سواء ظهر هذا القصد واضحاً أو توارى فى الثنايا والشعاب ؟

إننا كما قلت : نعلن هزيمتنا منذ الجولة الأولى إذا نحن اتخذنا الفكرة الغربية وسيلتنا لإحياء الفكرة الإسلامية . فلا بد أولا من التخلص من طريقة التفكير الغربية ؛ ولا بد من اتخاذ طريقة تفكير إسلامية ذاتية ؛ لنضمن أن يجيء النتاج خالصاً غير هجين !

إن مدلول « الحاكمية » فى التصور الإسلامى لاينحصر فى قضية تلقى شريعة الحكم والتحاكم إليها . ومن ثم لاتتمثل العبودية لله وحده فى مجرد تلقى الشريعة منه وحده ، والتحاكم إلى هذه الشريعة وحدها . . متى قصرنا الشريعة على معنى أصول الحكم وقوانينه . . فإن هذا بدوره لايمثل مدلول « الشريعة » فى التصور الإسلامى !

إن شريعة الله تعنى كل ماشرعه الله لتنظيم الحياة البشرية . .وهذا يتمثل فى أصول الاعتقاد وأصول الحكم ؛ وأصول السلوك ، وأصول المعرفة . . يتمثل فى العقيدة والتصور . . وكل مقدّمات هذا التصور . . ويتمثل فى الأحكام التشريعية . ويتمثل فى قواعد الأخلاق والسلوك . ويتمثل فى القيم والموازين التى تسود المجتمع ، وتقوّم بها الأشخاص والأشياء والأحداث . . ثم يتمثل فى المعرفة بكل جوانبها وفى أصول النشاط الفكرى والفنى جملة . .

وفى هذا كله لابد من التلقى عن الله ؛ كالتلقى فى الأحكام التشريعية سواء بسواء . . والأمر فى الحاكمية ـ فى جانبها المختص بالحكم والقانون ـ قد يكون الآن مفهوما بعد الذى سقناه بشأنه من تقريرات . والأمر فى قواعد الأخلاق والسلوك قد يكون مفهوما أن يرجع فيها إلى أصول التصور الإسلامى جملة ، وإلى ماورد عنها فى كتاب الله وسنة

رسوله مفصلا . والأمر فى القيم والموازين التى تسود المجتمع ، ويقوم بها الأشخاص والأشياء والأحداث ، قد يكون كذلك مفهوما إلى حد ما . إذ أن القيم السائدة فى مجتمع ما ، ترجع مباشرة إلى التصور السائد فيه للوجود ، وللعلاقات القائمة بين الوجود وخالقه ، والعلاقات القائمة بين أطراف هذا الوجود ؛ وإلى الأهداف والغايات التى يقرر ذلك التصور أنها أهداف هذا المجتمع ، أو أنها الغاية من الوجود الإنسانى جملة . .

وعلى سبيل المثال . . فإن غاية الوجود الإنسانى فى التصور الإسلامى هى عبادة الله ــ أى العبودية له وحده والتحرر من عبادة العباد ــ ووظيفته هى الخلافة فى الأرض عن الله ، واستغلال طاقاتها ومدخراتها وأقواتها ، والتركيب فيها والتحليل ، وتنمية الحياة وترقيتها بالإبداع المادى ، فى ظل منهج الله وفى حدوده ؛ ليرتفع الإنسان فى الحياة المادية إلى الاستمتاع بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؛ وليرتفع فى حياته الروحية المنطلقة من الضغوط المادية . ومقياس التفاضل فى الحياة فى التصور الإسلامى هو التقوى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وعلى أساس التقوى تقوم كل الأخلاق الإسلامية وكل قواعد السلوك . فالتقوى تنشأ عن تمثل ألوهية الله وعبودية الإنسان . وتنشئ المشاعر التى يقوم عليها بناء الأخلاق كله . . . وقد تحدثنا من قبل عن هذه المقدمات . ولكننا نذكرها لندل على أن للإسلام قيمه الخاصة . وهى تُتلقى من ذات المصدر الذى تُتلقى منه العقيدة ، ولا تتلقى من مصدر آخر لأنها من مقتضى العبودية لألوهية الله وحده . . وهى بعض معانى « شريعة الله » فى مدلولها الحقيقى ، الذى لا ينحصر فى المدلول المتداول لكلمة الشريعة .

ومن ثم فإن أصول الاعتقاد والتصور ، وأصول الأخلاق والسلوك ، وأصول القيم والموازين التى تسود حياة المجتمع ــ بجملتها ــ لا يتلقاها المسلم من أى مصدر آخر إلا

المصدر الربانى . . والأمر فى هـذا التلقى هو أمر العقيدة . فالتلقى من غير الله فيها مناف لأصل الاعتراف بالعبودية الشاملة للألوهية المتفردة . . شأنه شأن التلقى فى الشرائع القانونية ، الذى أسلفنا حكم الله فيه .

ليست هناك أخلاق زراعية ، وأخلاق صناعية ؛ وليست هناك قيم خاصة بالمجتمع الزراعى ، وقيم خاصة بالمجتمع الصناعى .. ليست هناك أخلاق المجتمع البرجوازى، وأخلاق لمجتمع الصعاليك (البروليتاريا) . وليست هناك قيم للمجتمع البرجوازى وقيم لمجتمع الصعاليك ... ليست هناك أخلاق رأسمالية وأخلاق اشتراكية . ولا قيم رأسمالية وقيم اشتراكية ... إنما هنالك فقط أخلاق إسلامية وأخلاق جاهلية. وقيم إسلامية وقيم جاهلية.. هنالك قيم وأخلاق تنبثق من تصور : أن هناك ألوهية واحدة ، وعبودية شاملة لـكل شىء وكل حى . . وأخلاق وقيم تنبثق من تعدد الأرباب ـ فى شتى صور الربوبية ـ وتمزق الضمير البشرى وتمزق الحياة البشرية بين الأرباب المتفرقة ! .. هنالك أخلاق وقيم تنبثق من التصور الإسلامى للوجود ، ولعلاقته بخالقه ، ولمركز الإنسان فى هذا الوجود ، ولغاية وجوده ووظيفته ، ونوع ارتباطاته وعلاقاته بالـكون المادى وبالأحياء وببنى جنسه كذلك، وعلاقة هؤلاء جميعا بالله. وأخلاق وقيم تنبثق من التصورات الجاهلية فى شتى أشكالها وصورها .. والتصورات الجاهلية هى كل ما عدا التصور الإسلامى ..وهى السبل المتفرقة التى لا تلتقى بصراط الله الواحد ــ كما بينه هو فى كتابه لا كما يصوره الناس بأهوائهم ــ ومن ثم لا تصل إلى الله أبدا !

والأوضاع الاجتماعية بجملتها ، والأوضاع السياسية بجملتها ، والأوضاع الاقتصادية بجملتها . . هى فروع عن التصور الاعتقادى ؛ وتطبيق واقعى للقيم المنبثقة من هـذا التصور . . ومن ثم فالتلقى فيها كلها لا يجوز أن يكون له مصدر آخر غير مصدر التصور الإسلامى . أو غير مصدر الشريعة الإسلامية ـ بمدلولها الحقيقى الذى لا ينحصر فى

المدلول المتداول لكلمة الشريعة . . والتلقى فيها عن المصدر الربانى وحده ، هو مقتضى الإقرار بالعبودية الشاملة للألوهية المتفردة . والشأن فيه شأن التلقى فى الأحكام القانونية التى ينحصر فيها مدلول « الشريعة » المتداول ! ويدور حولها معنى « الحاكمية » المتداول كذلك . . والشريعة أشمل نطاقا . والحاكمية أوسع مدى من هذا المدلول المتداول !

على أن هذا كله قد يكون مفهوما ـ شيئا ما ـ ولا يكون الحديث فيه هنا مبتدأ ، ولا غريبا على قراء مثل هذه البحوث . وإن كان ينبغى التوكيد على أن الأمر فى هذه الشؤون كلها هو أمر العقيدة . فهو يتعلق مباشرة بالإقرار أو عدم الإقرار بالعبودية الشاملة للألوهية المتفردة . .

أما الأمر الذى قد يكون غريبا بعض الشيء فهو الرجوع فى شأن النشاط الفنى ، والنشاط الفكرى ، والنشاط العلمى إلى التصور الإسلامى ، وإلى مصدره الربانى . باعتبار أن هذا الشأن متعلق بالعقيدة . ومن مقتضيات الاعتراف بالعبودية الشاملة للألوهية المتفردة !

وفى النشاط الفنى صدر كتاب كامل يتضمن بيان هذه القضية . باعتبار أن النشاط الفنى كله ، هو تعبير إنسانى عن تصورات الإنسان وانفعالاته واستجاباته وتوجهاته . . وهذه كلها يحكمها ـ بل ينشئها ـ فى النفس المسلمة تصورها الإسلامى بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة ؛ وعلاقتها ببارئ الكون والنفس والحياة . وبتصورها خاصة لحقيقة هذا الإنسان . ومركزه فى الكون . وغاية وجوده . ووظيفته . وقيم حياته . . وكلها متضمنة فى التصور الإسلامى الذى ليس هو مجرد تصور فكرى . إنما هو تصور اعتقادى موح مؤثر فعال دافع مسيطر على كل انبعاث فى الكيان الإنسانى [1] . . وسنتحدث عن هذه المسألة هنا باختصار فى الفقرات التالية فى هذا الفصل .

(١) كتاب « منهج الفن الإسلامى » لمحمد قطب .

فأما قضية النشاط الفكرى والعلمى ، وضرورة رد هذا النشاط إلى التصور الإسلامى ومصدره الربانى . تحقيقا للإقرار بالعبودية الشاملة للألوهية المتفردة . أى تحقيقا لإسلام المسلم من ناحية العقيدة . . فهذه هى القضية التى قد تقتضى منا بيانا كاملا . لأنها قد تكون ــ بالقياس إلى قراء هذا العصر حتى المسلمين منهم ، الذين يرون حتمية رد الحاكمية والتشريع لله لتتحقق صفة الإسلام والإيمان ــ غريبة أو غير مطروقة !

إن المسلم لا يملك أن يتلقى فى أمر يختص بالعقيدة والتصور العام للوجود ، أو يختص بالعبادة ، أو يختص بالخلق ، أو يختص بالقيم والموازين التى تحكم فى المجتمع ، أو يختص بالمبادئ والأصول فى النظام السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى ، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنسانى وبحركة تاريخه إلا من ذلك المصدر الربانى . . ولا يتلقى فى هذا إلا عن مسلم يثق فى دينه وتقواه ، ومزاولته لعقيدته فى الحياة . .

ولكن المسلم يملك أن يتلقى فى العلوم البحتة ، كالكيمياء والطبيعة والأحياء والفلك والصناعة والزراعة وطرق الإدارة ــ من الناحية الفنية الإدارية البحتة ــ وطرق العمل من هذه الناحية كذلك ، وطرق الحرب والقتال من هذا الجانب أيضاً ... إلى آخر ما يشبه هذا النشاط . . يملك أن يتلقى فى هذا كله عن المسلم وغير المسلم . . وإن كان الأصل فى المجتمع المسلم حين يقوم أن يسعى لتوفير الكفايات فى هذه الحقول كلها باعتبارها فروض كفاية ، يجب أن يتخصص فيها أفراد فتسقط عن الباقين ، وإلا أثم المجتمع كله إذا لم يوفر هذه الكفاية ولم يوفر لها الجو الذى تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج . . ولكن إلى أن يتحقق هذا فإن للفرد المسلم أن يتلقى فى هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية من المسلم وغير المسلم ، وأن ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم ، وأن يشغّل فيها المسلم وغير المسلم . . لأنها من الشؤون الداخلة فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وهى لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان وغاية وجوده؛

وحقيقة وظيفته ، ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله ، وبخالق الوجود كله . ولا تتعلق بالمبادئ والشرائع والأنظمة والأوضاع التى تنظم حياته أفرادا وجماعات . . ومن ثم فلا خطر فيها على زيغ عقيدته ، وارتداده إلى الجاهلية !

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنسانى كله أفرادا ومجتمعات ـ وهو المتعلق بالنظرة إلى « نفس » الإنسان ، « وحركة تاريخه » ، وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون ، ونشأة هذه الحياة ، ونشأة هذا الإنسان ، من ناحية ما وراء الطبيعة (وهو ما لا تتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وأحياء وطب . . . إلخ) فالشأن فيه شأن الشرائع القانونية والمبادئ والأصول التى تنظم حياته ونشاطه . . مرتبطة بالعقيدة . فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم ، يثق فى دينه وتقواه ، ويعلم أنه يتلقى فى هذا كله عن الله . . والمهم أن يرتبط هذا فى حس المسلم بأمر عقيدته . وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده . . أى مقتضى إسلامه !

إنه قد يقرأ كل آثار النشاط الجاهلى، ولكن لا ليكوّن منه تصوّره فى هذه الشئون . إنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية ! وليعرف كيف يصحح هذه الانحرافات البشرية بردها إلى مقوّمات التصور الإسلامى .

إن اتجاهات الفلسفة بجملتها . واتجاهات تفسير التاريخ الإنسانى بجملتها . واتجاهات علم النفس بجملتها . (فيما عدا بعض الملاحظات والمشاهدات دون تفسيراتها العامة) ومباحث الأخلاق بجملتها . واتجاهات دراسة الأديان المقارنة بجملتها . واتجاهات التفسيرات الاجتماعية بجملتها (فيما عدا الإحصاءات والمعلومات المباشرة . . لا النتائج العامة المستخلصة منها . .) . .

إن هذه الاتجاهات كلها فى الفكر الجاهلى ـ غير الإسلامى ـ قديما وحديثا متأثرة تأثرا مباشرا بتصورات جاهلية . وقائمة على هذه التصورات . ومعظمها ـ إن لم تكن

كلها ـ تتضمن فى أصولها المنهجية عداء ظاهرا أو خفيا للتصور الدينى جملة ، وللتصور الإسلامى على وجه الخصوص !

والأمر فى هذه الألوان من النشاط الفكرى والعلمى ليس كالأمر فى علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والأحياء والطب وما إليها . . مادامت فى حدود التجربة الواقعية ، وتسجيل النتائج الواقعية . دون مجاوزتها إلى التفسير الفلسفى فى صورة من صوره . وذلك كتجاوز « الدارونية » مثلا لمجال إثبات المشاهدات وترتيبها فى علم الأحياء إلى مجال القول ـ بدون دليل وبدون حاجة للقول كذلك إلا الرغبة والهوى ـ إنه لاضرورة لافتراض وجود قوة خارجة عن العالم الطبيعى لتفسير نشأة الحياة وتطورها !

إن لدى المسلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشؤون كلها فى المستوى الذى تبدو فيه محاولات البشر فى هذه المجالات هزيلة مضحكة . فضلا على أن الأمر كله يتعلق تعلقا مباشرا بالعقيدة : عقيدة الألوهية الواحدة والعبودية الشاملة . قاعدة هذا التصور وحقيقته الكبرى . .

إن حكاية أن الثقافة تراث « إنسانى » لاوطن له ولا جنس ولا دين . . . هى حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العملية ـ دون تجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية لنتائج هذه العلوم ـ ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه ، ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعا . ولكنها فيما وراء ذلك إحدى مصائد اليهودية العالمية التى يهمها تمييع الحواجز كلها ـ بما فى ذلك بل فى أول ذلك حواجز العقيدة والتصور ـ لكى ينفذ منها اليهود إلى جسم العالم كله ، وهو مسترخ مخدر ، ثم تزاول اليهودية فيه نشاطها الشيطانى . وفى أوله نشاطها الربوى . الذى ينتهى إلى جعل حصيلة كد البشرية كلها تؤول إلى أصحاب المؤسسات المالية الربوية من اليهود ! ! !

ولكن الإسلام يعتبر أن هناك نوعين اثنين من الثقافة ـ فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية ـ الثقافة الإسلامية ، القائمة على قاعدة التصور الإسلامى . والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى كلها ترجع إلى قاعدة واحدة . قاعدة إقامة الفكر البشرى إلها ، لا يرجع إلى الله فى ميزانه . . والثقافة الإسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكرى والواقعى الإنسانى ؛ وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائما .

ويكفى أن نعلم أن الاتجاه التجريبى ، الذى قامت عليه الحضارة الصناعية الأوربية الحاضرة ، قد نشأ ابتداء فى الجامعات الإسلامية ، مستمدا أصوله من التصور الإسلامى وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية ومدخراته وأقواته . ثم استقلت النهضة فى أوربا بهذا المنهج واستمرت تنميه وترقيه ؛ بينما ركد وترك نهائيا فى العالم الإسلامى . . بسبب بعد هذا العالم تدريجيا ـ بفعل عوامل كامنة فى محيطه وبفعل الكيد والهجوم الصهيونى والصليبى عليه من خارجه ـ عن عقيدته وتصوره ومنهجه الأساسى . . ثم قطعت أوربا ما بين المنهج الذى اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية ، وشردت به نهائيا بعيدا عن الله ؛ فى أثناء شرودها عن الكنيسة التى تستطيل على الناس ـ بغيا وعدوا ـ باسم الله !

وكذلك أصبح نتاج الفكر الأوربى بجملته ـ شأنه شأن نتاج الفكر الجاهلى فى جميع الأزمان فى جميع البقاع ـ شيئا آخر ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الإسلامى . ووجب أن يرجع المسلم إلى مقومات تصوره وحدها . وألا يأخذ إلا من المصدر الربانى إن استطاع بنفسه ، وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقى ، يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه إلى الأخذ عنه .

إن حكاية فصل « العلم » عن صاحبه ، لا يعرفها الإسلام فيما يختص بكل العلوم

المتعلقة بمقومات التصور ، المؤثرة فى نظرة الإنسان إلى الوجود والحياة والنشاط الإنسانى والأوضاع والقيم والموازين والتقاليد والعادات ، وسائر ما يتعلق بحياة الكائن الإنسانى من هذه النواحى . .

إن الإسلام يتسامح أن يتلقى المسلم عن غير المسلم أو عن غير التقى من المسلمين فى علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة أو الفلك . أو الطب أو الصناعة أو الزراعة . أو الأعمال الإدارية أو الكتابية . . وذلك فى الحالات التى لايجد فيها مسلما تقيا يأخذ عنه فى هذا كله – كما هو واقعنا اليوم الناشئ من بعدنا عن ديننا ونهجنا وتصورنا لمقتضيات الخلافة فى الأرض – بإذن الله – وما يلزم لهذه الخلافة من هـذه العلوم والمهارات المختلفة !

ولكنه لايتسامح أن يتلقى أصول عقيدته ولا مقومات تصوره . ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه . ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه . ولا مذهب مجتمعه . ولا نظام حكمه ولا منهج سياسته . ولا موحيات فنه وأدبه وتعبيره . . . من مصادر غير إسلامية . ولا أن يتلقى عن غير مسلم يثق فى دينه وتقواه .

إن الذى يقول هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة ، كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع ، فى معظم حقول المعرفة الإنسانية . ماهو من تخصصه وما هو من هواياته الثقافية . . ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره ، فإذا هو يجد كل ماقرأه ضئيلا ضئيلا إلى جانب ذلك الرصيد الضخم – وما كان يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك – وما هو بنادم على ماقضى فيه أربعين سنة من عمره . وإنما عرف الجاهلية على حقيقتها . وعلى انحرافها وعلى ضآلتها وعلى قزامتها . . وعلى جعجعتها وانتفاشها . وعلى غرورها وادعائها كذلك ! وعلم علم اليقين أنه لايمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين فى التلقى ! ! !

ومع ذلك فليس الذى سبق فى هذه الفقرة رأيا لى أبديته .. فالأمر أكبر من أن يُفتى فيه بالرأى، وأثقل فى ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأى.. إنما هو قول الله ـ سبحانه ـ وقول نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحكّمه فى هذا الشأن، ونرجع فيه إلى الله وإلى الرسول كما يرجع الذين آمنوا إلى الله وإلى الرسول فيما اختلفوا فيه . إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر :

يقول الله سبحانه عن الهدف النهائى لليهود والنصارى فى شأن المسلمين بصفة عامة :

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .. (البقرة : ١٠٩)

« وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . قُلْ : إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى . وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .. (البقرة: ١٢٠)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ » .. (آل عمران: ١٠٠)

وحين يتحدد الهدف النهائى لليهود والنصارى فى شأن المسلمين على هذا النحو القاطع، يكون من البلاهة الظن لحظة بأنهم يصدرون فى أى مبحث من المباحث المتعلقة بالعقيدة الإسلامية أو التاريخ الإسلامى، أو التوجيه فى نظام المجتمع المسلم أو فى سياسته أو اقتصاده إلى خير أو إلى هدى أو إلى نور ... والذين يظنون ذلك فيما عند هؤلاء الناس بعد بيان الله سبحانه إنما هم الغافلون !

كذلك يتحدد من قول الله سبحانه : « قل : إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى » المصدر

الوحيد الذى يجب على المسلم الرجوع إليه فى هذه الشئون . فليس وراء هدى الله إلا الضلال . وليس فى غيره هدى ، كما تفيد صيغة القصر الواردة فى النص : « قل : إنَّ هُدَى ٱللهِ هُوَ ٱلْهُدَى » . . ولا سبيل إلى الشك فى مدلول هذا النص ولا إلى تأويله كذلك !

كذلك يرد الأمر القاطع بالإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ، ويقصر اهتمامه على شئون الحياة الدنيا ؛ وينص كذلك على أن مثل هذا لايعلم إلا ظنا ، والمسلم منهى عن اتباع الظن . وأنه لايعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فهو لايعلم علما صحيحا :

« فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا . ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَى » . .
(النجم : ١٩ ـ ٢٠)

« . . . يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » . . .
(الروم : ٧)

والذى يغفل عن هدى الله ولا يريد إلا الحياة الدنيا ــ وهو شأن جميع « العلماء » اليوم ! ــ لايعلم إلا هذا الظاهر . وليس هذا هو العلم الذى يثق المسلم فى صاحبه فيتلقى عنه فى كل شأنه . إنما يجوز أن يتلقى عنه فى حدود علمه المادى البحت . ولا يتلقى منه تفسيرا ولا تأويلا عاما للحياة أو متعلقاتها التصورية .. كما أنه ليس هو العلم الذى تشير إليه الآيات القرآنية ، وتثنى على أهله. فأى علم لايؤدى إلى الاهتداء إلى الله ؛ ولا يقوم على إدراك فضل الله فى تعليم الإنسان مالم يعلم ؛ وفى منحه ابتداء القدرة على الإدراك ؛ وفى تسخير النواميس الطبيعية له .. أى علم لايقوم على هذه الأسس هو علم ضال مضل ؛ وليس هو العلم الذى تقصده الآيات القرآنية وتثنى عليه .. كما يفهم الذين ينتزعون النصوص القرآنية من سياقها ليستشهدوا بها فى غير مواضعها !

إن العلم ــ بطبيعة الحال ــ ليس مقصورا على علم العقيدة ، وعلم الفرائض الدينية .. فالعلم يشمل كل شيء ، ويتعلق بالقوانين الطبيعية وتسخيرها فى خلافة الأرض تعلقه بالعقيدة والفرائض على السواء .. ولكن العلم الذى ينقطع عن قاعدته الإيمانية ليس هو العلم الذى يعنيه القرآن ويثنى على أهله .. إن هناك ارتباطا بين القاعدة الإيمانية وعلم الفلك ، وعلم الأحياء ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء ، وعلم الطب ، وسائر هذه العلوم المتعلقة بالنواميس الطبيعية والقوانين الحيوية .. إنها كلها تؤدى إلى الله ؛ حين لا يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله .. كما اتجه المنهج الأوربى فى النهضة العلمية ــ مع الأسف ــ بسبب الملابسات النكدة التى قامت فى التاريخ الأوربى خاصة ، بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الغاشمة ! ثم ترك آثاره العميقة فى مناهج الفكر الأوربى كلها ، وفى طبيعة التفكير الأوربى . وترك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الدينى جملة ــ لا لأصل التصور الكنسى وحده ولا للكنيسة وحدها ــ فى كل ما أنتجه الفكر الأوربى فى كل حقل من حقول المعرفة . سواء كانت فلسفية ميتافيزيقية ، أو كانت بحوثا علمية بحتة لا علاقة لها ــ فى الظاهر ــ بالموضوع الدينى !

وإذا تقرر أن مناهج الفكر الغربى ونتاج هذا الفكر فى كل حقول المعرفة ، يقوم ابتداء على أساس تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الدينى جملة .. فإن تلك المناهج وهذا النتاج أشد عداء للتصور الإسلامى خاصة ؛ لأنه يتعمد هذا بصفة خاصة ؛ ويتحرى ــ فى حالات كثيرة ــ وفى خطة متعمدة ، تمييع العقيدة والتصور والمفهومات الإسلامية ؛ ثم تحطيم الأسس التى يقوم عليها تميز المجتمع المسلم فى كل مقوماته .. ومن ثم يكون من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربى وعلى نتاجه كذلك فى الدراسات الإسلامية . . ومن ثم تجب الحيطة كذلك فى دراسة العلوم البحتة ــ التى لا بد لنا فى موقفنا الحاضر من تلقيها من المصادر الغربية ــ من أية ظلال فلسفية تتعلق بها . لأن هذه الظلال

معادية فى أساسها للتصور الدينى جملة، وللتصور الإسلامى بصفة خاصة . وأى قدر منها يكفى لتسميم الينبوع الإسلامى الصافى ..

وسنحاول فيما يلى أن نقول كلمة مفصلة عن الأدب والتاريخ بوجه خاص، وكيف تدرس هذه الجوانب دراسة مأمونة لتنشئة « المسلم » وتنقية ضميره من شوائب الجاهلية التى تغمر وجه الأرض جميعا .

إن الأدب هو التفسير الشعورى للحياة . وهو منبعث من المنبع الذى تصب فيه جميع الفلسفات والديانات والتجارب والمؤثرات فى بيئة من البيئات .

ولقد يكون الأدب أشد المؤثرات فى تكوين فكرة وجدانية عن الحياة ، وفى طبع النفس البشرية بطابع خاص . ومن هنا يجب أن يكون لنا أدب نابع من التصور الإسلامى . ولعله يحسن أن نقول هنا كلمة مفصلة عن منهج الأدب الإسلامى :

الأدب – كسائر الفنون – تعبير موح عن قيم حية ينفعل بها ضمير الفنان . هذه القيم قد تختلف من نفس إلى نفس ، ومن بيئة إلى بيئة . ومن عصر إلى عصر ، ولكنها فى كل حال تنبثق من تصور معين للحياة ، والارتباطات فيها بين الإنسان والكون ، وبين بعض الإنسان وبعض .

ومن العبث أن نحاول تجريد الأدب أو الفنون عامة من القيم التى يحاول التعبير عنها مباشرة ، أو التعبير عن وقعها فى الحس الإنسانى. فإننا لو أفلحنا – وهذا متعذر – فى تجريدها من هذه القيم ، لن نجد بين أيدينا سوى عبارات خاوية ، أو خطوط جوفاء ، أو أصوات غفل ، أو كتل صماء .

كذلك من العبث محاولة فصل تلك القيم عن التصور الكلى للوجود والحياة، والارتباطات فيها بين الإنسان والكون والأحياء والأحداث، وبين بعض الإنسان وبعض . ويستوى أن يشعر الإنسان بأن له تصورا خاصا للحياة أو لا يشعر ، لأن هذا قائم فى نفسه على كل

حال ، وهو الذى يحدد قيم الحياة فى نظره ، ويلون تأثراته بهذه القيم . . .

والإسلام تصور معين للحياة ، تنبثق منه قيم خاصة لها . فمن الطبيعى إذن أن يكون التعبير عن هذه القيم ، أو عن وقعها فى نفس الفنان ، ذا لون خاص .

وأهم خاصية للإسلام أنه عقيدة ضخمة جادة فاعلة خالقة منشئة ، تملأ فراغ النفس والحياة ، وتستنفد الطاقة البشرية فى الشعور والعمل ، وفى الوجدان والحركة ،فلا تبقى فيها فراغا للقلق والحيرة، ولا للتأمل الضائع الذى لا ينشئ سوى الصور والتأملات .

وأبرز ما فيه هو الواقعية العملية حتى فى مجال التأملات والأشواق . فكل تأمل هو إدراك أو محاولة لإدراك طبيعة العلاقات الكونية أو الإنسانية ، وتوكيد للصلة بين الخالق والمخلوق ، أو بين مفردات هذا الوجود . وكل شوق هو دفعة لإنشاء هدف ، أو لتحقيق هدف ، مهما علا واستطال .

وقد جاء الإسلام لتطوير الحياة وترقيتها ، لا للرضى بواقعها فى زمان ما أو فى مكان ما . ولا لمجرد تسجيل ما فيها من دوافع وكوابح ،ومن نزعات وقيود ، سواء فى فترة خاصة ، أو فى المدى الطويل .

مهمة الإسلام دائما أن يدفع بالحياة إلى التجدد والنمو والترقى ، وأن يدفع بالطاقات البشرية إلى الإنشاء والانطلاق والارتفاع .

ومن ثم فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى للحياة ، قد لا يحفل كثيرا بتصوير لحظات الضعف البشرى ، ولا يتوسع فى عرضها ، وبطبيعة الحال لا يحاول أن يبررها ، فضلا على أن يزينها بحجة أن هذا الضعف واقع ، فلا ضرورة لإنكاره أو إخفائه.

إن الإسلام لا ينكر أن فى البشرية ضعفا ، ولكنه يدرك كذلك أن فى البشرية قوة. ويدرك أن مهمته هى تغليب القوة على الضعف ، ومحاولة رفع البشرية وتطويرها وترقيتها ، لا تبرير ضعفها أو تزيينه .

والأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى للحياة قد يلم أحيانا بلحظات الضعف البشرى ، ولـكنه لا يلبث عندها إلا ريثما يحاول رفع البشرية من وهدة هذه اللحظات ، وإطلاقها من عقال الضرورة وضغطها. وهو لا يصنع هذا متأثراً بالمعنى الضيق لمفهوم «الأخلاق» إنما يصنعه متأثرا بطبيعة التصور الإسلامى للحياة ، وبطبيعة الإسلام ذاته فى تجديد الحياة وترقيتها ، وعدم الاكتفاء بواقعها فى لحظة أو فترة .

والنظرة الإسلامية لا تؤمن بسلبية الإنسان فى هذه الأرض ، ولا بضآلة الدور الذى يؤديه فى تجديد الحيـاة وترقيتها . ومن ثم فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى لا يهتف للـكائن البشرى بضعفه ونقصه وهبوطه؛ ولا يملأ فراغ مشاعره وحياته بأطياف اللذائذ الحسية ، أو بالتشهى الذى لا يخلق إلا القلق والحيرة والحسد والسلبية . إنما يهتف لهذا الـكائن بأشواق الاستعلاء والطلاقة ، ويملأ فراغ حياته ومشاعره بالأهداف البشرية التى تجدد الحياة وترقيها . سواء فى ضمير الفرد أو فى واقع الجماعة .

وليست الخطب الوعظية هى سبيل الأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى ، فهذه وسيلة بدائية وليست عملا فنيا بطبيعة الحال .

كذلك ليست وظيفة هـذا الأدب أو الفن هى تزوير الشخصية الإنسانية أو الواقع الحيوى ، وإبراز الحياة البشرية فى صورة مثالية لا وجود لها . إنما هو الصدق فى تصوير المقدرات الـكامنة أو الظاهرة فى الإنسان. والصدق كذلك فى تصوير أهداف الحياة اللائقة بعالم من البشر ، لا بقطيع من الذئاب !

الأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى أدب أو فن موجه ، بحـكم أن الإسلام حركة تجديد وترقية مستمرة للحياة ، فهو لا يرضى بالواقع فى لحظة أو جيل ، ولا يبرره أو يزينه لمجرد أنه واقع . فمهمته الرئيسية هى تغيير هذا الواقع وتحسينه ، والإيحاء الدائم بالحركة الخالقة المنشئة لصور متجددة من الحياة .

وقد يلتقى فى هذا مع الأدب أو الفن الموجه بالتفسير المادى للتاريخ . يلتقى معه لحظة واحدة ثم يفترقان . .

فالصراع الطبقى هو محور الحركة التطورية فى ذلك الفن . أما الإسلام فلا يعطى الصراع الطبقى كل هذه الأهمية، لأن نظرته إلى أهداف البشرية أوسع وأرقى . إنه لا يرضى بالظلم الاجتماعى ولا يقره ، ولا يهتف للناس بالرضى به أو التذاذه ! وهو يعمل – فيما يعمل – لمكافحته وتبديله . ولكنه لا يقيم حركته على الحقد الطبقى ، بل على الرغبة فى تكريم الإنسان ورفعه عن درك الخضوع للحاجة والضرورة ، وإطلاق إنسانيته المبدعة من الانحصار فى الطعام والشراب وجوعات الجسد على كل حال .

فالمحور الذى تدور عليه حركة النمو والتجدد فى المنهج الإسلامى هو ترقية البشرية كلها، ودفعها إلى الانطلاق والارتفاع ، وإلى الخلق والإبداع . وفى الطريق يلم بآلام الطبقات وقيودها ، ليحطم هذه القيود ، ويزيل تلك الآلام .

إنه لا يحقر آلام البشر ، ولكنه لا يستخدم الحقد الطبقى لإزالتها ، لاعتباره أن الحقد ذاته قيد يحول دون انطلاق البشرية إلى آفاق أعلى !

أما كيف يعالج هذه الآلام علاجا واقعيا عمليا ، لا وعظيا ولا خياليا ، فقد تحدثنا عنه فى غير هذا الموضع . إنما المهم أن نقرر هنا أن الأدب أو الفن الإسلامى أدب أو فن موجه . موجه بطبيعة التصور الإسلامى للحياة وارتباطات الكائن البشرى فيها ، وموجه بطبيعة المنهج الإسلامى ذاته ، وهى طبيعة حركية دافعة للإنشاء والإبداع ، وللترقى والارتفاع . ولست أعنى التوجيه الإجبارى على نحو ما يفرضه أصحاب مذهب التفسير المادى للتاريخ ، إنما أعنى أن تكييف النفس البشرية بالتصور الإسلامى للحياة ، هو وحده سيلهمها صورا من الفنون غير التى يلهمها إياها التصور المادى ، أو أى تصور آخر ، لأن التعبير الفنى لا يخرج عن كونه تعبيرا عن النفس كتعبيرها بالسلوك فى واقع الحياة .

وأخيرا فإن الإسلام لايحارب الفنون ذاتها ، ولكنه يعارض بعض التصورات والقيم التى تعبر عنها هذه الفنون . ويقيم مكانها ـ فى عالم النفس ـ تصورات وقيما أخرى ، قادرة على الإيحاء بتصورات جمالية إبداعية ، وعلى إبداع صور فنية أكثر جمالا وطلاقة ، تنبثق انبثاقا ذاتيا من طبيعة التصور الإسلامى ، وتتكيف بخصائصه المميزة .

ولا ينبغى أن يفهم من هذا تحريم الآداب الأوربية على الناشئة المسلمة . فالذى نعنيه هو مجرد الاختيار والانتقاء . ففى هذه الآداب ماتلتئم روحه من بعض الجوانب مع الروح الإسلامية . لالأنه حث على الفضائل وتقبيح للرذائل ؛ فالأدب ليس منبراً خطابياً للوعظ والإرشاد . ولكن لأنه ينظر إلى الحياة نظرة روحية أرفع من المادة ؛ ولأنه يعترف بالقيم المعنوية للحياة . فهذا اللون من الأدب يتفق فى روحه مع المنهج الإسلامى فى عمومه . وتمكن دراسته مع حسن الاختيار .

* * *

والتاريخ فرع من الأدب ، ولكنه ذو طبيعة خاصة ، وذو خطورة كذلك . فالتاريخ تفسير لوقائع الحياة ، ولا بد أن يتأثر بالفلسفة والتصور العام للحياة . وستؤدى تفسيراته على هذا النحو إلى تكوين صورة عن الحياة تختلف اختلافا رئيسيا عن التصور الإسلامى لاتجاه الحياة والتاريخ .

وفوق ذلك فإن المؤرخين ـ لأنهم أوربيون فى الغالب ـ جعلوا محور التاريخ العالمى هو تاريخ أوربا . وهم فى هذا معذورون بحكم الفطرة البشرية . وذلك إذا أغضينا عن الأثرة الغربية والغرور الأوربى . فدراسة ناشئتنا لتاريخ، تلك روحه وهذه طريقته ، يجعلهم يخرجون بفكرتين باطلتين :

الأولى : أنه لاأثر للعوامل الروحية فى سير خط الزمن ، أوأن هذا الأثر ضعيف ضئيل .

والثانيــة : أن أوربا هى محرك خط الزمن ، وأن الإسلام بالذات ليس له إلا أثر ضئيل ضعيف .

وأثر كل من هاتين الفكرتين مؤذ وخطير ، سواء فى تكوين فكرة عامة عن الحياة والخلق والسلوك ، أو فى الشعور بالعزة الإسلامية أمام التيار الأوربى الجارف .

يجب أن نأخذ فى وضع تاريخ عالمى عام ، من وجهة النظر الإسلامية ، فى تفسير الحوادث والوقائع ، فلا تنفرد طريقة النظر الأوربية بهذا العمل الخطير . على أن نضع أوربا فى هذا التاريخ فى موضعها الحقيقى لا تتجاوزه ، وعلى أن نبرز دور البشرية بصفة عامة، ودور الإسلام بصفة خاصة فى خط سير التاريخ .

إن التاريخ ليس هو الحوادث ، إنما هو تفسير هذه الحوادث ، والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التى تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحى فى الزمان والمكان .

ولكى يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها، ويربطها بما قبلها وما تلاها ، ينبغى أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها : روحية وفكرية وحيوية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها : معنوية ومادية . وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ، ويستجيب لوقعها فى مداركه ، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد .

وعلى ذلك فإن التاريخ الإسلامى يجب أن تعاد كتابته على أسس جديدة وبمنهج آخر . يجب أن ينظر إلى الحياة الإسلامية من زاوية جديدة ، وتحت أضواء جديدة ، لكى تعطى كل أسرارها وإشعاعاتها ، وتنكشف بكل عناصرها ومقوماتها .

وفى هذه الدراسة الجديدة يجب أن تكون المصادر الإسلامية هى المرجع الأول ،

بعد أن يعيش الباحث بعقله وروحه وحسه في جو الإسلام كعقيدة وحركة وفكرة ونظام . وفي جو الحياة الإسلامية كقطعة من حياة البشرية الواقعية . وهذه الحياة في هذا الجو ضرورية جدا لتفتح نوافذ إدراكه جميعاً ، لا لفهم تلك الحياة فحسب ، بل لإدراكها ككائن حي ، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع في جسم هذا الكائن الحي .

وإنه ليعز على الباحث في أية فترة من حياة الإنسانية أن يدركها إدراكا حقيقياً داخليا إلا أن يتجاوب معها بكل ذاتيته ، وأن يعيش في جوها بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها. فليست هذه خصيصة قاصرة على الحياة الإسلامية ؛ وإن كانت أكثر وضوحا بالقياس إلى الحياة الإسلامية ، لأن مقومات هذه الحياة تختلف في كثير من أنواعها وماهياتها عن مقومات الفترة الحاضرة .

وإنه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل للعقيدة الإسلامية ، وللتصور الإسلامي عن الألوهية والكون والحياة والإنسان ، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة ، وطريقته في الاستجابة للحياة كلها في ظل تلك العقيدة . وهذه الخصائص كلها لا يمكن أن تطلب إلا عند باحث مسلم ، يعيش في حركة إسلامية ؛ وهي الخصائص التي لا بد من توافرها عند إعادة كتابة التاريخ الإسلامي .

إنه لا بد من إدراك البواعث الحقيقية لتصرفات الناس في خلال هذه الحياة التاريخية الإسلامية ، وعلاقة هذه البواعث بالحوادث ، والتطورات ، والانقلابات . ولا بد من ربط هذا كله بطبيعة العقيدة الإسلامية وما فيها من روح ثورية ـ لا في شكلها الخارجي وخطواتها العملية فحسب ـ ولكن في تفسيرها للعلاقات الكونية ، وللعلاقات الإنسانية ، والعلاقات الاجتماعية . وفي تصويرها لنظام الحكم وسياسة المال وطرق التشريع ووسائل التنفيذ . . الخ . وهي كلها من مقومات الحياة ، وبالتالي من مقومات التاريخ لهذه الحياة .

إن المعارك الحربية ، والمعاهدات السياسية ، والاحتكاكات الدولية .. وما إليها مما يعنى به التاريخ غالبا أكثر من سواه . . إنها كلها محكومة بعوامل أخرى هى التى يجب أن تبرز عند كتابة التاريخ .. هذه العوامل هى التى يختلف الباحثون فى إدراكها وتقديرها : كل يخضع للفلسفة التى تسيطر على تفكيره وتقديره ، أى لطريقة إدراكه للحياة فى عمومها . وللباحث المسلم الذى يعيش فى حركة إسلامية ، المزية هنا فى دراسة الحياة الإسلامية ، لأن طريقة إدراكه للحياة تمت بصلة إلى حقيقة هذه العوامل المؤثرة فى سير التاريخ . ومن ثم فهو أقدر على التلبس بها واستبطانها ، والاستجابة لها استجابة كاملة صحيحة .

وعلى ضوء إدراكه لطبيعة العقيدة الإسلامية ، وطريقة استجابة المسلمين لها ، يستطيع أن يزن دوافع الحياة الإسلامية فى تلك الفترة التاريخية ، والقيم الإنسانية الكامنة فيها ، وأسباب النصر والهزيمة فى كل خطوة . وأن يتصور الحياة الظاهرة والباطنة لتلك الجماعات الإنسانية فى مهد الإسلام الأول وفى البلاد التى انساح فيها ، فيضم إلى الجوانب الظاهرة التى لا يدرك الغربيون سواها فى الغالب ، كل الجوانب الروحية الخفية التى يعدها الإسلام واقعا من الواقع ، ويحسب لها حسابها فى سير الزمان وتشكيل الحياة فى كل زمان ومكان.

ولما كانت الحياة الإسلامية فترة من الحياة البشرية ، والمسلمون جماعة من بنى الإنسان فى حيز من الزمان والمكان ، والإسلام رسالة كونية بشرية غير محدودة بالزمان والمكان . . فإن التاريخ الإسلامى لا يمكن فصله من التاريخ الإنسانى .

وقد تأثرت تلك الفترة ــ من غير شك ــ بمواجهة الإسلام فيها للجاهلية ، والتعامل مع تلك العوامل التى كانت واقعة عند مولد الإسلام . ثم أثرت بدورها فى تجارب البشرية من بعد ، وبخاصة تلك الجهات التى امتدت إليها أو جاورتها . فلا بد إذن عند كتابة

التاريخ الإسلامى من الإلمام بالصورة التى انتهت إليها الإنسانية قبل مولد الإسلام ، والحالة التى صارت إليها المجتمعات البشرية فى الأرض ، وبخاصة من ناحية العقائد الدينية وسائر ما يتعلق بها من أفكار وفلسفات ونظريات ، ومن ناحية الأوضاع الاجتماعية وما يتعلق بها من نظم الحكم وسياسة المال وعلاقات المجتمع والأخلاق والعادات والأفكار، كى تتبين على ضوئها حقيقة دور الإسلام وطبيعته ، ويمكن تفسير استجابة العالم لهذا النظام الجديد قبولا أو رفضا ، وتصور أسباب الصراع وعوامل النصر والهزيمة كاملة ، وعناصر التفاعل والتدافع والتلاقى والانعكاس على مر الأيام .

وإذا كان الإلمام بوضع العالم إذ ذاك ضروريا ، فإن الإلمام بوضع الجزيرة العربية وتصور الحياة فيها من كافة نواحيها أكثر ضرورة بوصفها مهد الإسلام الأول من جهة ، ومركز التجمع والانسياح من جهة أخرى .

فهل كانت مصادفة عابرة أن يظهر هذا الرسول بهذا الدين فى هذا الموضع من الأرض فى هذا الزمان ؟ أم أن هنالك نظاما مقدورا ، وقصدا مقصودا ، وتدبيرا معينا ، وترتيبا موضوعا ، لتلتقى هذه الظواهر كلها حيث التقت ، كى تؤدى دورا معينا ، ليس أقل نتائجه تخطيط خريطة العالم فى عالم الظاهر وفى عالم الشعور على هذا الوضع الذى صارت إليه الأمور ، منذ ذلك التاريخ البعيد ؟ !

ولعل هذا الخاطر أن يسوق إلى دراسة « محمد الرسول » فى هذا السياق الكونى للتاريخ . فلعل فى شخصه ، وفى نسبه ، وفى بيئة حياته ، وفى تقاليد بيئته . . وفى سائر مايحيط بالفرد الإنسانى من مقومات ، عوامل مقصودة ، وموافقات مدبرة ؛ وأنها لم تكن مصادفة عابرة أن يشار إليه من بين الجموع البشرية الحاشدة ، وأن يقال له : أنت . فانتدب لهذا الحدث الكونى الذى لم يسبق ولم يلحق بنظير .

ولعله كذلك أن يسوق إلى دراسة طبيعة هذا الحدث ، والفكرة الكلية التى يتضمنها ، قبل البدء فى دراسة الأحداث والانقلابات العالمية التى تمت على أساسها . .

وبذلك تتهيأ لمثل هذا التاريخ صورة مستكملة الجوانب لكل الأوضاع والأحوال التى نشأت عنها الاستجابات التى وقعت بالفعل فى تاريخ الإسلام فى الفترة التى تلت ظهوره ، كما يتهيأ له تفسير هذه الاستجابات تفسيرا صحيحا ، مستكملا لكل عناصر الحكم والتقدير .

وبذلك يستحيل التاريخ عملية استبطان وتجاوب فى ضمائر الأشياء والأشخاص ، والأزمان والأحداث . ويتصل بناموس الكون ، ومدارج البشرية ، ويصبح كائناً حياً ، ومادة حياة .

ومتى استقام البحث على ذلك المنهج الذى أسلفنا ، وبرزت تلك المقومات الأساسية لطبيعة الدعوة ، وطبيعة الرسول ، وطبيعة البيئة التى استقبلت الدعوة واستقبلت الرسول ، وطبيعة المجتمع الإنسانى الذى كان يعاصر مولد الإسلام ؛ وطبيعة العقائد والأفكار التى كانت تسوده يومذاك . .

متى برزت تلك المقومات الأساسية ، سهل تتبع نشاطها وتفاعلها وصيرورتها ، وأمكن تصوير وتصور خطوات الدعوة على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الخطوات التى تسير متأثرة بتلك المقومات كلها ؛ وتفاعل بعضها مع بعض ، وتيسر لنا وللناس فى هذا الجيل أن نعرف كيف اختار الرسول رجاله ، ومن أية طينة كان هؤلاء الرجال ؛ وكيف صاغ الرسول رجاله ، وكيف أعدهم للمهمة العظمى ؛ وكيف بنى الرسول نظامه ، وعلى أى الأسس قام هذا النظام ؛ وكيف تحولت الجزيرة العربية مهدا لهذا الدين الجديد ، أو لهذا النظام الجديد ؛ وماذا كان فى طبيعتها وفى ظروفها وفى رجالها وبيوتها وعشائرها ،

وفى علاقاتها الاجتماعية ، وملابساتها الاقتصادية والجغرافية والحيوية .. من استعداد لتلبية هذا الحدث أو معارضته . . إلى آخر هذه المباحث التى تصور المرحلة الأولى من مراحل حياة الإسلام ، أو من تاريخ الإسلام ، والتى تصح تسميتها باسم : « الإسلام على عهد الرسول » .

ثم تجىء المرحلة الثانية : مرحلة « المد الإسلامى » . ذلك عندما انساح الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها . عندما فاض ذلك الفيض الانفجارى العجيب الذى لم يعرف له العالم نظيرا فى سرعته وقوته . لا من ناحية الفتح العسكرى وحده ، ولكن من ناحية التأثير الروحى والفكرى والاجتماعى أيضاً . أى من الناحية الإنسانية الشاملة ، التى شهدت تحولا كاملا فى خط سير التاريخ على مولد هذا الدين الجديد ، وانتشاره ذلك الانتشار العجيب !

وهنا تبدو قيمة المنهج الذى أشرنا إليه ، ويمكن تتبع أعمال الهدم والبناء ، التى قام بها الإسلام فى تلك الرقعة الفسيحة التى امتد إليها ، وتفاعله مع الأفكار والعقائد التى كانت سائدة فيها ، ومع النظم الاجتماعية التى كانت تظللها ، ومع الظروف الاقتصادية ، والمخلفات التاريخية ، والملابسات الإنسانية ، فى أخصب بقاع الأرض ، وأكثرها حضارة فى ذلك الزمان .

والمد الإسلامى لم يقف عند الحدود التى وصلت إليها فتوحاته العسكرية . فلقد امتدت الموجة الفكرية ، والحضارة التى كونها إلى ماوراء حدود العالم الإسلامى قطعاً . ولابد من دراسة آثار هذا المد فيما وراء هذه الحدود . دراستها طردا وعكسا فى حياة العالم الإسلامى ذاته ، وفى حياة العالم غير الإسلامى كله . فقد أخذ هذا العالم من الإسلام وأعطى ، وقد تأثر به وأثر فيه . ودراسة هذه التفاعلات فى ضوء المنهج الذى صورنا خصائصه ، كفيلة بأن تنشىء صورة من التاريخ غير مسبوقة ، ذات حيوية خاصة ، وذات طابع خاص ؛ بل كفيلة بأن

تنشئ صورة للعالم الإنسانى وخطواته الحية مختلفة قليلا أو كثيرا عن الصورة التى اعتاد الغربيون أن يرسموها ، والتى اعتدنا نحن أن نراها !

ثم يجيء دور « انحسار المد الإسلامى » . وعلى ضوء المنهج وضوء دراسة المراحل التاريخية السالفة يمكن أن نتبين أسباب هذا الانحسار وعوامله الداخلية والخارجية جميعاً : إن كانت هذه العوامل من طبيعة العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامى كما يزعم من يلقون الشبهات على الإسلام، أوأنها من صنع المسلمين أنفسهم ، ومن صنع أعداء هذا الدين فى العالم غير الإسلامى ؟ ثم هل كان هذا الانحسار شاملا أم جزئياً ؟ وسطحيا أم عميقا ؟ وما أثر هذا الانحسار فى خط سير التاريخ ، وفى تكييفه أحوال البشر ، وفى قواعد التفكير والسلوك ، وفى العلاقات الدولية والإنسانية ؟ وماوزن الأفكار والنظم والعقائد التى استحدثتها الإنسانية بالقياس إلى نظائرها فى الإسلام ؟ وماذا كسبت البشرية وماذا خسرت من وراء انحسار المد الإسلامى وظهور هـذا المد الأوربى الذى ما تزال تظللنا بقاياه ؟

ومن ثم يصبح الحديث عن «حاضر الإسلام» طبيعيا وفى أوانه ، قائماً على أسسه الواضحة الصريحة ؛ وليس حديثا تمليه العاطفة أو التعصب من هذا الجانب أو ذاك ، ويصبح التاريخ الإنسانى ـ فى ضوء منهجنا الخاص ـ مسلسل الحلقات ، متشابك الأواصر، ويتحدد دور الإسلام فى هذا التاريخ فى الماضى وفى الحاضر ، وتتبين خطوطه فى المستقبل على ضوء الماضى والحاضر.

* * *

هذه إشارات مجملة للعمل فى الدائرة الفكرية للتمهيد للوجود الفعلى للإسلام . ولكن شيئا من هـذا كله لن يكون ذا قيمة قبل أن تدرك العصبة المؤمنة فى الأرض أن هذا الدين عقيدة تتمثل فى إفراد الله سبحانه بالألوهية ، ومن ثم إفراده بالحاكمية . و « دين » يتمثل فى نظام يترجم هذه العقيدة .. وأن تدرك كذلك أن هناك توقفا فى « وجود » الإسلام. وأن الخطوة الأولى هى إعادة وجود الإسلام عقيدة ، ليمكن بعد ذلك وجوده نظاما .

وأن يستيقنوا أن المستقبل لهـذا الدين ؛ على الرغم من هـذا التوقف الموقوت .

والله المستعان.

في مفترق الطرق

والآن فإلى أين نحن نسير ؟

يجب أن نقف لحظة لنسأل أنفسنا هذا السؤال ؛ ولنوجه حياتنا في الاتجاه الذي نريد .

إن العالم بعد حربين متواليتين ينقسم اليوم إلى كتلتين كبيرتين : كتلة الشيوعية في الشرق ، وكتلة الرأسمالية في الغرب . . هذا ما يبدو في ظاهر الأمر ، وما تلوكه الألسن ، ويقر في الأذهان . . فأما نحن فنعتقد أنه انقسام ظاهري لا حقيقي ؛ وأنه انقسام على المصالح لا على المبادئ ؛ وأنه صراع على السلع والأسواق لا على العقائد والأفكار . فطبيعة التفكير الأوربي الأمريكي لا تفترق في حقيقتها عن طبيعة التفكير الروسي . كلتاهما تقوم على تحكيم الفكرة المادية في الحياة، وإذا كانت روسيا والصين وما إليها قد صارت شيوعية مادية فإن أوربا وأمريكا لا تفترقان عنها في التصور المادي للحياة والتاريخ !

فليس وراء التفكير المادي الذي يسود الغرب ، ويرد الأخلاق إلى المنفعة ، ويدعو إلى التناحر على الأسواق والمصالح . . ليس وراء هذا التفكير الذي ينفي العنصر الروحي من الحياة ؛ وينفي الإيمان بغير المعمل والتجربة ؛ ويحتقر المثل العليا المجردة ؛ وينكر وجود حقائق للأشياء إلا وظيفتها — على نحو ما تصنع فلسفة البراجماتزم — ليس وراء هذا التفكير إلا المادية الماركسية في صورة أخرى !

إنه لا يوجد اختلاف في طبيعة التفكير الأمريكي والروسي، ولكن توجد اختلافات في الظروف الاقتصادية والاجتماعية. والذي يمسك الأمريكي العادي أن يكون شيوعياً ليس فكرة عن الحياة ترفض التفسير المادي للكون والحياة والتاريخ ، بل لأن الفرصة مهيأة أمامه ليصبح ثرياً ، ولأن أجر العامل مرتفع كذلك .

فلا يخدعنا أن نرى الصراع قوياً وعنيفاً بين كتلتى الشرق والغرب : فكلتاهما لا تملك إلا فكرة مادية عن الحياة ، وكلتاهما قريبة فى طبيعة تفكيرها من الأخرى ، وكلتاهما لا تتنازعان على مبدأ أو فكرة ، إنما تتنازعان النفوذ فى العالم ، والربح فى الأسواق ! ونحن هذه الأسواق !

أما الصراع الحقيقى العميق ، فهو بين الإسلام وبين الكتلتين الغربية والشرقية جميعاً . فالإسلام هو القوة الحقيقية التى تقف لقوه الفكرة المادية التى تدين بها أوربا وأمريكا وروسيا والصين على السواء . الإسلام هو الذى يتضمن التصور الكلى الشامل المتناسق عن الوجود والحياة ؛ ويقيم التكافل الاجتماعى فى المحيط الإنسانى مقام الصراع والتطاحن ؛ ويجعل للحياة قاعدة روحية تصلها بالخالق فى السماء ؛ وتسيطر على اتجاهها فى الأرض ؛ ولا تنتهى بالحياة إلى تحقيق أغراض مادية بحتة ، وإن كان النشاط المادى المثمر عبادة من عبادات الإسلام .

وحقيقة إن الأديان الروحية ــ وفى مقدمتها المسيحية ــ تنكر المادية الأوربية الأمريكية ، كما تنكر المادية الشيوعية ، لأنهما من طبيعة واحدة تتعارض مع الفكرة الروحية فى الحياة . ولكن المسيحية ــ فيما أرى ــ لا تحسب قوة إيجابية فى مواجهة الأفكار المادية الجديدة ؛ فقد انتهت إلى أن تكون ديانة فردية انعزالية سلبية ؛ لا تملك الحياة أن تنمو فى ظلها النمو الدائم الفعال . ولقد عجزت عن مسايرة الحياة العملية فى الأجيال المتلاحقة ، ولم تسيطر على الحياة الواقعة ، لأنها ــ كما صنعتها الكنيسة والمجامع المقدسة ــ بعيدة عن واقعيات الحياة .

والمسيحية كما انتهت إليه لا تستطيع أن تجارى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية الدائمة التغير ؛ لأنه ليس فى صميمها أية فكرة عن الحياة الواقعة العملية . فأما الإسلام فهو نظام كونى كامل ؛ فيه العقيدة ، وفيه التشريع ، وفيه التنظيم الاجتماعى والاقتصادى الخاضع للوجدان وللتشريع ، القابل للنمو فى الفروع والتطبيقات .

وهو يقدم للبشرية تصورا كاملا شاملا عن الوجود والحياة، ونظاما عمليا واقعيا للمجتمع، وشريعة مفصلة وقابلة للنمو التفريعي الذي يقابل حاجات المجتمع المتجددة .

وهو يقيم نظامه على أساس تصور شامل عن الحياة يرفض التفكير المادي ، ويقيم السلوك على أساس العنصر الروحي الأخلاقي ، فيرفض فكرة المنفعة القريبة . وبذلك يصطدم اصطداما مباشرا بالعقلية المادية السائدة في الكتلتين الشرقية والغربية ؛ ويرفع الحياة إلى أفق أعلى من تلك الآفاق القريبة ؛ التي تستشرفها أوربا وأمريكا وروسيا على السواء .

* * *

من ذلك الاستعراض السريع يبدو جليا أن الصراع الحقيقي في المستقبل لن يكون بين الرأسمالية والشيوعية، ولا بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي . . . ولكنه سيكون بين المادية المتمثلة في الأرض كلها وبين الإسلام . . أو بتعبير أصح وأدق ستكون بين النظام الذي يجعل العبودية لله وحده ، ويخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبين سائر الأنظمة الأرضية التي تقوم على أساس من عبودية العباد للعباد . .

والمعسكران الشرقي والغربي على السواء يدركان هذه الحقيقة . ويعملان معا ـ على كل ما بينهما من منافسات ومن متناقضات ـ على سحق حركات البعث الإسلامي في كل مكان . وعلى حرب الإسلام بكل صور الحرب في كل مكان .

وهذا ما ينبغي أن يدركه الداعون إلى الله ، فلا ينخدعوا بهذا النزاع الظاهر بين المعسكرات المختلفة ، وبين الأنظمة المختلفة .

إن الإسلام هو القوة الحقيقية التي يحسب لها المعسكران كل حساب . وبقي أن يعرف أصحاب الإسلام هذه الحقيقة وأن يقيموا خطتهم على هذا الأساس .

وحركات البعث الإسلامي اليوم في مفترق الطرق . ونقطة البدء الصحيحة في الطريق

الصحيح ، هى أن تتبين الشرط الأساسى ا « وجود » الإسلام ، أو عدم وجوده ؛ وأن تستيقن أن « وجود» الإسلام اليوم قد توقف ؛ وألا تفزع لهذا التقرير الخطير ، ولا يتعاظمها الأمر ، فتحجم عن رؤيته والجهر به . وأن تعلم أنها تستهدف إعادة إنشاء الإسلام من جديد ؛ أو بتعبير أدق رده مرة أخرى إلى حالة « الوجود » بعد أن توقف هـذا الوجود فترة ..

هذا طريق .. والطريق الآخر أن تظن هذه الحركات ـ لحظة واحدة ـ أن الإسلام قائم ، وأن هؤلاء الذين يدّعون الإسلام ويتسمون بأسماء المسلمين هم فعلا « مسلمون ! » وأن الأوضاع « العلمانية » السائدة فى الأرض هى أوضاع « إسلامية » كالوضع الذى أقامه أتاتورك ، والأوضاع التى سارت على نسقه .. كما يريد « ولفرد كانتول سميث » وأمثاله والمخدوعون به والخادعون ، أن يلقوا فى روع الناس !

هذا طريق . . وذلك طريق . وحركات البعث الإسلامى اليوم على مفرق الطريق ! فإن سارت فى الطريق الأول سارت على صراط الله وهداه ؛ وعلمت أنها تواجه توقفا فى « وجود » الإسلام ذاته . وأنها تستهدف ما استهدفه محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجماعة المسلمة الأولى ؛ وأنها ستلقى مثلما لقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، من الاضطهاد والتعذيب ، ومن الصبر والمصابرة ، ثم من النصر والتأييد ، والتمكين فى الأرض فى نهاية المطاف .

وإن سارت فى الطريق الثانى الذى يدلها عليه مستر « ولفرد كانتول سميث » وضرباؤه والمخدوعون به والخادعون ، فستسير وراء سراب كاذب . تلوح لها فيه من بعيد « عمائم » .. تحرف الكلم عن مواضعه ، وتشترى بآيات الله ثمنا قليلا ؛ وترفع راية الإسلام على مساجد الضرار ؛ وتضع لافتات إسلامية على معسكرات الفجور والانحلال !

إن حركات البعث الإسلامى تتناثر اليوم على وجه الارض كلها ؛ وتقتحم على الصليبية عرينها فى قلب أمريكا وأوربا ؛ ووتنتفض فى آسيا وإفريقية ـ على الرغم من كل ما رصدته لها الصليبية والصهيونية من الأجهزة والأوضاع التى تحاول سحقها .

ولكن هذه الحركات يمكن أن تذهب وراء السراب الخادع ؛ ويمكن أن تسلك الطريق القاصد ..

ورجاؤنا فى الله كبير أن يفتح البصائر على الحق ، وأن يفتح العيون على الواقع .

والله الهادى والموفق والمعين . .

الفهرس

من كتب دار الشروق الإسلامية

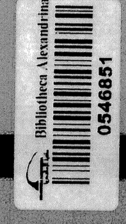
مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الإسلام عقيدة وشريعة
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت
من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت
إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي
أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت
التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين
أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين
دفاع عن أبي هريرة
الأستاذ عبد المنعم صالح العلي
الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم
الإسلام وتوزيع الثروات
الاستاذ ابراهيم البرايري
مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٥٤٣١٤ - برقياً : شروق القاهرة - تلكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE



مطابع الشروق